الأستاذ الدكتور
طه حبيشي
أستاذ بجامعة الأزهر

أبو النبي ﷺ وأمه في الجنة

الفتى الذي نجا عبد الله أبو النبي ﷺ

زهرة بني زهرة آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

كِتَابِى يَاأُولِى الأَلْبَابِ سَهْلٌ
يُفِيــدُ الْقَارِئِينَ بِلاَ مُعَرِّفْ
أَبَحْــتُ لَكُــمْ قِرَاءَتَهُ وَلَكِنْ
حُقُوقُ الطَّبْعِ تُحْفَظُ لِلْمُؤَلِفْ

يطلب من مكتبة رشوان داخل الحرم الجامعى
جامعة الأزهر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٧/٨٣٢٠

مطبعة رشوان

الفَتَى الَّذِى نَجَا
عَبْدُ اللَّهِ أَبُو النَّبِيِّ ﷺ



مُقَدِّمَة

لقد شاء الله عز وجل لَنَا « ومشيئته خير » أن يأتى ميعاد ميلاد رسول الله فِى كل عام ويكون لَنَا تطلع إِلَى كلمة نكتبها حول هذا الميلاد.

وقَدْ نوفق إِلَى هَذِهِ الكلمة أحيانا، وقد تقعد بنَا الهمم أو تنقص عندنَا القدرات فيمر العام وتمر معه المناسبة دون أن نقول شيئًا.

وفيما سبق كتبنَا فِى موضوعين: عنونا للموضوع الأول بهذا العنوان « فِى ساحة النبى ﷺ » وكان هذا العنوان يعنى أن ميلاد النبى ﷺ بوصفه حدثًا كبيرًا فِى الكون ترتب عليه أمور كثيرة غيرت وجه الدنيَا، وردت عَلَى الإنسان كرامته، كان لاَ بد بحكم سنة الله فِى مثل هَذِهِ الأحداث العظام أن يسبقه ممهدات ترتب الساحة لظهور عظيمها ﷺ.

وقد رأينَا أن نشير إِلَى بعض هَذِهِ الممهدات.

ولقد رأينَا فيما رأينَا أن آباء النبى ﷺ الأقربين والذين سجل التاريخ آثارهم، كان لكل واحد منهم أثره فِى المجتمع وحركته فِى إصلاح سلوك الناس وتلبية احتياجاتهم، مَا يجعلنَا نقف عند أعمالهم مندهشين أحيانًا، فخورين فِى معظم الأحايين.

ولقد رأينَا فيما رأينَا من بين هَذِهِ الممهدات أن الكتب السابقة عَلَى النبى ﷺ والمجتمعات التى توالت فيها النبوة، قد حددت بدقة البلد الذى سيولد فيه هذا النبى ﷺ، وصفاته وصفة أبيه، وصفة الذين سيكونون معه، والزمن الذى سينشأ فيه، والعلامات الذاتية المميزة له.

ولقد استفاض بين الناس قبيل المولد الشريف التحدث حول هَذِهِ الأشياء جميعًا، وتشوق الكون كله لرؤية القادم الجديد الذى سيكون عظيم الساحة بلا منازع.

ولقد رأينَا فيما رأينَا من المبشرات وضع المدينة التى سيولد فيها النبى ﷺ وما تحتويه من البيت العتيق، هذا البيت الذى آمن الناس بأن له ربًا واحدًا لاَ يختلفون عليه، فِى نفس الوقت الذى تفرقت فيه القبائل والبطون حول بيوت متعددة تختص كل قبيلة أو بطن ببيت منها لهم فيه مأرب ولعبادتهم لإلهه هوى.

ولما كانت الكعبة البيت الحرام محل إجماع من جميع الخلائق.

ولما كانت الكعبة البيت الحرام قد جعلها الله مثابة للناس وأمنا، وربط بها أربعة أشهر، وهى مَا يساوى ثلث العام الهجرى، لاَ يجوز فيها الترويع ولا القتال، كى يتمكن الذاهب إِلَى البيت الحرام من الذهاب إليه تاجرًا أو متنسكًا، أو تاجرًا متنسكًا معًا فِى أمن لاَ يخاف معه عَلَى مال أو عرض أو نفس.

ولما كانت الكعبة البيت الحرام تتوسط الطريق الأوحد الذى تمر منه التجارة من الشرق إِلَى الغرب، ومن الغرب إِلَى الشرق، ومن جنوب الجزيرة إِلَى شمالها وبالعكس.

لما كانت الكعبة البيت الحرام بهذا المستوى ولها هذا التأثير طمعت إحدى الدولتين العظميين فِى ذلك الوقت أن تسيطر عَلَى هذا الطريق التجارى بالحيلة أو بصارم القدرة والاقتدار، بعد أن تزيل هذا البيت الحرام وتعفو عَلَى أثره، وتنسى الأجيال بعد الأجيال تراث أبيهم إبراهيم مصدر الفخر عند السلف والخلف.

ولقد حاولت دولة الروم هَذِهِ المحاولة فِى الاستيلاء عَلَى هذا الطريق الاقتصادى الهام، والقضاء عَلَى بيت الله الحرام قبل ميلاد النبى ﷺ، فتوسلت لذلك بمحاولة تنصيب عميل لها عَلَى مكة، تمده بكل مَا يسهل له خيانة قومه، والتفريط فِى موضع عزهم ومكان شرفهم.

وحين فطن الناس فِى مكة إِلَى هَذِهِ المؤامرة الدنيئة، لجأ الطامعون فِى هذا المكان إِلَى محاولة أخرى وهى التخلص من البيت العتيق بالهدم والإزالة، حتى تأتى الأجيال القادمة ولا علم لها بهذا البيت العتيق، ولا ارتباط لها بتاريخه، ولا دافع لها يدفعها إِلَى الانتماء لهذا المكان.

ولم يكن لأبرهة فيما نرى من داعية تدعوه إِلَى البيت إلا تلبية رغبات ساداته من الذين يقيمون عَلَى حدود شبه جزيرة العرب.

فى ميعاد ميلاد رسول الله ﷺ كتبنَا القسم الأول من هذا البحث، وعنونا له بهذا العنوان « فِى ساحة النبى ﷺ» وشرحنَا فيه هَذِهِ الممهدات عَلَى الرأى الذى نراه وتؤيده شواهد التاريخ.

ثم شاء الله أن يكون لَنَا كتابات أخرى فِي المناسبة عينها، كتبناه بــروح الإخـــلاص لرسول الله ﷺ ولتاريخه، وبقوة الانتماء إِلَى هذا الإنسان الكامل، راغبين أن نصد عنه هذا الذباب الذى يأتى من مزابل التاريخ أو من عشوائيات الإنسانية.

فكتبنَا تحت عنوان « زهرة بنى زهرة ».

ولقد عمدنَا فِي هَذِهِ النشرة إِلَى أمرين:

أحدهما: أن نجمع المتناثر فى بطون الكتب حول شخصية آمنة بنت وهب التى مــن الله عليها أن يكون رحمها هو الذى احتوى رسول الله ﷺ، وأن يكون دمها هو الذى نقــل الغذاء إليه لمدة تسعة أشهر، وأن تكون نفسها الأبية هى التــى تتبــادل معـــه العواطــف والمشاعر عَلَى نحو مَا يعترف بذلك علماء الأجنة وعلماء النفس وغيــرهم مــن ســائر التخصصات.

وكان الذى جمعناه من بطون التاريخ فِي مكان واحد كافٍ لتصوير شخصية آمنة بنت وهب عَلَى نحو مَا ظهرت به فِي التاريخ، وَعَلَى نحو مَا ودعت به الدنيَا آمنةً مطمئنة.

وثانيهما: أن نرد عن آمنة كثيرًا من المفتريات، وأهمها قولة الجاهلين: إن آمنة التى ولدت النبى ﷺ وبُشرت به قبل ميلاده، وشهدت الآيات التى صحبت هذا الميلاد، وبقيــت مع النبى ﷺ مَا يقرب من ست سنوات، عاشت شطرًا كبيرًا منها تناجيه عَلَى البعد أيام أن كان فِي بادية بنى سعد، وضمته إليها بعد ذلك فتبادلت أرواحهما عميق المشاعر وأســمى الاحساسات إِلَى أن ودعته بالأبواء وداعًا لاَ لقاءَ بعده إلا حين يأذن الله باللقاء.

إن آمنة التى هَذِهِ صفاتُها - عَلَى رأى هؤلاء الجاهلين - ليس لها من مــأوى يــوم القيامة إلا أن تكون فِي سقر مع كل منافق أثيم، ومع كل كافر جاحد، ومع كل جبار عنيد.

رأينَا هذا وتصدعت من هذا القول قلوبنَا وهاجت مشاعرنا، فما كان الله عــز وجــل ليخزى النبى ﷺ فِي أمه، وهو الذى قال لــه: ﴿ وَلَسَــوْفَ يُعْطِيــكَ رَبُّــكَ فَتَرْضَــىٰٓ ﴾ [الضحى:٥].

ولقد رأينَا ابن العربى حين قيل له إن فلانا من الناس يقول: إن أم النبى ﷺ فى النار، قال: إنه ملعون بنص القرآن: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِــرَةِ

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٧].

لقد رأينَا عَلَى كل حال أن ندفع عن آمنة مَا يقوله عنها هؤلاء الجاهلون.

وخرج المقالان أول أمرهما قبل أن نستودعهما هَذِهِ النشرة.

واستقبلهما المؤمنون بقبول حسن.

واستقبلهما الشانئون استقبال من يُغَصُّ بالماء الزلال.

وما كان لَنَا أن نفرح بهذا الاستقبال الحسن، وما كان لَنَا أن نغضب لاستقبال الشانئين لما قلناه عن آمنة بنت وهب أو عن خاتم المرسلين.

لأننَا حين كتبنَا مَا كتبناه إنما كتبناه ليكون هدية متواضعة لصاحب الذكرى ﷺ.

وحين قال لَنَا البعض، إنه قد كُتب فِي الرد عليك كتاب مملوء بالشتائم والنيل منك، فهل تحب أن تطلع عليه نأتيك به ؟ قلت: إنى لاَ أطلع إلا عَلَى الكتب العلمية حيث لم يعد فِي قوس العمر منزع، وما بقى منه يجب أن نقضيه فيما يصلحنَا أو ينفع الناس، أما هذا الصياح المصحوب بركل الأرض بالأرجل، وضرب المناضد بالأيدى، وإثارة الغبار فى الليالى شديدة الظلمة، فهذا لاَ حظ لَنَا من الالتفات إليه، فرب صاحب الذكرى كفيل به، ودار كتبنا المتواضعة ليس عَلَى رفوفها مجال لاحتواء مثل هَذِهِ الكتب، التى أخذنا أنفسنا بالازورار عنها ونبذها خلف أظهرنا.

خرجت هاتان النشرتان من قبل، واستقبلهما الناس عَلَى نحو مَا استقبلوهما به.

وجاء هذا الزمان ليشهد أمورًا عجيبة أهمها:

طمع هَذِهِ الدولة الكبرى فِي أرض العرب وثرواتهم، كَمَا طمعت دولة الروم من قبل فِي هَذِهِ الأرض وَفِي ثرواتها، حين تصدى لها النبى ﷺ، ولم ينتقل النبى ﷺ إِلَى الرفيق الأعلى إلا بعد أن أَمَّنَ حدود الدولة من جهة الشمال لكسر شوكة اليهود الذين اغتصبوا الأرض، وحاولوا أن يظهروا بين الناس وكأنهم سكانها الأصليون، فأجلاهم النبى ﷺ عن المدينة، وخيبر، وفدك ووادى القرى.

ولم ينتقل النبى ﷺ إلا بعد أن أمن هَذِهِ المنطقة الشمالية بكسر شوكة الروم الرابضة عَلَى حدود جزيرة العرب فِي وقت شهد التاريخ فيه عالما أحادى القطب أو يكاد.

وَفِى العام الماضى كان لَنَا شرف إصدار كتاب « رسالة من النبى ﷺ إِلَى الأمـــة » نشرح فيه علاقة النبى ﷺ باليهود فِى المدينة، وَفِى شمال المدينة بينه وبين الشام.

ولئن كان النبى ﷺ لم يُجلِ اليهود عن منطقة خيبر وفدك ووادى القرى إلا أنه قد عاد بهم إِلَى حقيقة الأمر، ليسجل التاريخ عنه وعنهم أن العرب هـــم أصـــحاب هَـــذِهِ الأرض الأصليون، وأن اليهود إنما جاءوا إليها من خـــارج جزيـــرة العـــرب يبتغـــون المـــأوى، ويلتمسون وسائل وأسباب العيش.

وحين أطلعَ الله النبى ﷺ عَلَى أن اليهود فِى طباعهم أنهـــم يدنســـون الأرض التـــى يعيشون عليها، قال لأصحابه فيما يشبه التكليف أو الوصية قولاً حاسمًا يجب عليهم تنفيذه حين يكون الوقت مناسبًا « لاَ يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ » (١).

وظل اليهود عَلَى هدوئهم واستكانتهم التى تخفى نار حقدهم تحت الرماد إِلَى أن جـــاء عهد عمر بن الخطاب، فرآهم يكيدون للمسلمين كيدًا، ويعمدون إِلَى تخريب أمن المجتمع، ويحاولون أن يؤلبوا بعض أفراد الأمة عَلَى بعض، فقرر عمر أن ينهى عقـــد المزارعـــة الممنوح لهم ويخرجهم من أرض العرب بعد أن يعطيهم جميع حقوقهم بوصـــفهم كـــانوا يزرعون الأرض للمسلمين عَلَى نصف محصولها.

خرج هذا الكتاب هو الآخر فِى العام الماضى، ولم يبق فِى الأســـواق طـــويلاً حتـــى نفدت طبعته الأولى فقمنا بطبعه مرة أخرى.

لقد جاء هذا العام، وأصبحنا عَلَى مشارف الاحتفال بالمولد النبوى الشريف، والأمـــة الإسلامية فِى حالة من الدهشة التى سببتها تصرفات دولـــة معلومـــة النشـــأة ومعلومـــة الأهداف، حتى أقبلت ذات صباح تعلن بين الناس بالقول والفعل أن لها زعيمًا هو مبعوث العناية الإلهية للسيطرة عَلَى الدنيا وما فيها ومن فيها، وأن الملائكة تركب الرياح لتكـــون إِلَى جواره حتى يسلم الأرض لليهود من المشرق إِلَى المغرب، ومن الشمال إِلَى الجنوب.

---

(١) موطأ مالك كتاب الجامع باب مَا جاء فِى إجلاء اليهود المجلد الثانى صـ ٨٩٢ ط إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى، وانظر مسند الإمام أحمد جـ ٧ صـ ٣٩٠ ومصنف أبى شيبة جـ٧ صـ ٦٣٥ والبيهقى سنن جـ ٩ صـ ٢٨ و٣٦٢ وجـ ١٤ صـ ٥٧.

وأعلن زعيم هَذِهِ الدولة أنه سيبنى خططه فِى العالم كله عَلَى محورين:

الصدمة

والترويع.

وهو قادر عَلَى هذين الأمرين جميعًا رضيت الدنيَا أم أبت.

وهو يستمد قدرته من أنه قد منح الأرض زخرفها فِى بلـده، ورفـع عليهـا جميـع الشعارات المناسبة حتى ازينت له.

وهو يستمد قدرته من أن جميع العقول العالمة والمفكرة قد هاجرت إليه، هو يطعـم أجسامها ويسقيها، ويهيئ لها رغد العيش، وهى تسلمه ناصية العلم والتكنولوجيَـا « وقـد فعلت »، وأصبح رئيس هَذِهِ الدولة قادرًا الآن من وجهة نظـره - عَلَـى تحريـك هـذا الكوكب وتسييره فِى الوجهة التى يريدها، ولا بأس عنده أن تطلع الشمس من مغربهـا إذا أراد وتغيب فِى مشرقها إذا أراد.

وجاء موعد ميلاد رسول الله ﷺ فِى هذا العام والدنيَا حالها كَمَا ترى.

فأردت أن أكتب صفحات فِى سيرة وعظمة النبى ﷺ من خلال أبيه الذى لم يكن لـه من وظيفة نعلمها إلا أنه قد ربط تاريخيًا بين الماضى والحاضر إِلَى العام الذى ولـد فيـه رسول الله ﷺ من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه قد كان سببًا مباشرًا فِى وجود نبى مرسل عَلَّمَ الناسَ أنهم لاَ يجب أن يذلوا إلا لله، وأن لاَ يخضـعوا إلا لخـالقهم ورازقهـم، وأن يتوسلوا إِلَى رضى هذا الإله بعبادته عَلَى المنهج الذى أوحى به إِلَى نبيه.

وقد ركز فِى نفوسهم وسويداء أفئدتهم أن الله قد أعزهم بدينه، فمن ابتغى العزة فِـى غير هذا الدين أذله الله.

ولم يشأ الله عز وجل أن يأتى النبى ﷺ بمجموعة من النظريات يتركها بـين أهلـه وذويه، وأتباعه ومريديه دون أن يشهد لها التاريخ تطبيقًا عَلَى يديه، ولو قد فعل لكان هذا الدين الذى تركه مثارًا للجدل، وموضوعًا للقيل والقال.

ولقد شهد التاريخ أن مَا جاء به النبى ﷺ قد طبقه فِى جيل من الأجيال هو خيرهـا عَلَى الإطلاق، وهو أشرفها بلا منازع.

ومن هَذِهِ التطبيقات التى لاَ ينكرها التاريخ وتشبه مَا نحن فيه الآن من ظروف تئن أمة الإسلام تحت وطأتها مَا كان له من علاقة مع دولة الروم.

ودولة الروم قد كانت الدولة العظمى الوحيدة فِى ذلك التاريخ، وإلى جوارها دولة أخرى مهزومة هى دولة الفرس تعيش فِى الظل تجتر مجدًا لها وأثرًا لبناء مجد تليد عاشته فترة ليست بالبعيدة.

إن الواقع الذى عاشه النبى ﷺ يشهد أنه كان هناك عالم أحادى القطب تقريبًا فيه دولة عظمى طاغية تريد أن تستلب كرامة هَذِهِ الدولة الناشئة، وتفكر ليل نهار فِى النيل من هيبة هَذِهِ الدولة الفتية، حتى تتمكن من السيطرة عَلَى هذا الطريق الهام جدًا عَلَى ميزان التقدير الاقتصادى، وَعَلَى تقدير المنفعة المادية.

وأنت خبير والناس جميعًا يعلمون أن النبى ﷺ حين أدرك أن حدوده الشمالية مهددة، أرسل طلائع له يستكشفون الموقف عَلَى الحدود، وكان عددهم خمسة عشر رجلا، فقتلوا كلهم عَلَى الحدود بمعرفة اليونان، وبيد العرب الموالين لهم فِى ذلك الزمان.

ولقد شاء النبى ﷺ أن يقضى عَلَى هذا التوتر سلْمًا، فأرسل سفيره بكتاب منه إِلَى بعض أمراء الروم يحدثه عن طبيعة الرسالة التى جاء بها، ولعله قد كلف سفيره أن يتحدث معه حول طبيعة الجوار، وحول المصالح التى يمكن أن تربط بين الدولتين المتجاورتين.

وكانت المفاجأة الكبرى أن الرومان قد قتلوا سفير النبى ﷺ مخالفين بذلك جميع الأعراف التى تعارف عليها الناس منذ فجر التاريخ، والتى منها أن الرسل لاَ تقتل.

وأحس النبى ﷺ والمسلمون أن هيبة الدولة الفتية قد ضاعت، وأنه ليس بعد هاتين الحادثتين إلا هَذِهِ الجرأة المحتملة عَلَى النبى ﷺ فِى المدينة.

وكان لاَ بد أن يفعل النبى ﷺ شيئًا.

وكان هذا الشىء الذى فعله النبى ﷺ هو أن بعث إِلَى الروم هَذِهِ الدولة الكبرى بجيش ضعيف العدد والعتاد يقاتل بإيمانه وانتمائه أكثر من أن يقاتل بعدده وعتاده.

وكان الذين أرسلهم النبى ﷺ لاَ يتجاوزون ثلاثة آلاف رجل أوصاهم بوصية لم يشهد

لها التاريخ نظيرًا، وَأَمَّرَ عليهم زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة.

ومع قلة هذا العدد وقلة هذا العتاد أمام مائتى ألف جندى مدججين بأحدث السلاح، فلقد عاد منتصرًا فِى الوقت الذى كان العقل يقول فيه أنه لن يعود أحد منهم حيًّا.

لقد عاد هذا العدد منتصرًا ومعهم الغنائم بشهادة التاريخ، إلا من اعتمد عَلَى بعض الروايات غير المعقولة وغير الصحيحة التى ذكرها غير المؤرخين.

ولقد شهد النبى ﷺ لهذا الجيش بأنهم قد عادوا منتصرين، كرارًا وليسوا فرارًا والذى يبدو لى من تصرف رسول الله ﷺ، أن هذا العدد وإن كان قَدِ اكتسب جولة، إلا أنه لم يكسر غرور هَذِهِ الدولة المتكبرة عَلَى الحدود، والطامعة فِى الثروات والممتلكات عَلَى أرض العرب وَفِى أيديهم، فعاد يقابل الروم فِى العام العاشر للهجرة عَلَى الحدود لتحقيق الغرض الأساسى لهذه الدولة الفتية وهو أن يحتفظ لها بمكانتها وهيبتها باعتبارها دولة لاَ يجوز النيل منها.

وهاب الروم رسول الله ﷺ فلم يقابلوه، فعاد إِلَى بلده، ولكنه لم يرَ أنه قد حقق هدفه، ولم يعد لهذه الدولة بما يضمن لها هيبتها دولة بين الدول، وأمة بين الأمم، فعقد قبيل وفاته اللواء لأسامة بن زيد عَلَى رأس جيش أوصاه بالنساء والأطفال والممتلكات والضعاف من الناس.

وحقق أسامة هدفه ولكن فِى عهد أبى بكر الذى صمم عَلَى أن يبعث جند أسامة.

وعادت إِلَى الدولة الإسلامية هيبتها فِى عالم أحادى القطب تكاد تتحكم فيه دولة واحدة كثيرة العدد والعتاد.

جاء هذا الزمان ليشهد ميعاد مولد النبى ﷺ الذى تنتظره الأمة قاطبة فِى عالم أحادى القطب كذلك يريد أن ينال من كرامة الأمة الإسلامية بواسطة دولة تفاخرت بعتادها وعدتها، فأردنا أن تكون الورقات التى نريد أن نكتبها لافتة للنظر إِلَى هذا النبى العظيم ﷺ مع الاحتفاظ بهيبة المناسبة.

فعزمنا أن نكتب صفحات فِى بداية عهد هذا النبى ﷺ بالوجود، وأن يكون التركيز

عَلَى أبيه الذى ذكرنا بالجد الأعلى إبراهيم عليه السلام، وربط التاريخ بعضـــه بـبعض، والذى كان سببًا فِى إيجاد هذا النبى ﷺ ووضعه عَلَى أول عتبات وجوده التاريخى لنأخـذ فِى قراءة سيرة هذا النبى العظيم ﷺ لكى نحقق فينا أمرين:

أحدهما: أن نجعل النبى ﷺ فِى وضعه الطبيعى بالنسبة لمجتمع هَذِهِ الأمة، خاصة فِى هذا الزمان.

ووضع النبى ﷺ الطبيعى فِى الأمة، أنه هو روحها الحقيقى الذى يدفعها دائمًـا إِلَـى مواطن عزتها وكرامتها.

وثانيهما: أن نقرأ تاريخ النبى ﷺ خاصة فِى هَذِهِ الحال التى تشبه الحالة التـى نحـن فيها، فنتعلم منه كيف حافظ عَلَى أرضه وحدوده وهو يتعامل مع اليهود من ناحية، وهـو يتعامل مع الدولة العظمى الوحيدة فِى ذلك الوقت وهى دولة الرومان من ناحية أخرى.

لقد شئنا أن نكتب عن أبى النبى ﷺ لتكون اللبنة الأولى فِـى قراءاتنـا، والمحـرك الأساسى الذى يدفعنا إِلَى تتبع سيرة هذا النبى العظيم ﷺ، من بداية الحمل به إِلَى أن لبـى نداء ربه وانتقل إِلَى الرفيق الأعلى.

فَفِى هذا التتبع وحده دفء لاَ يعادله دفء يشيع جوًا من البهجة والطمأنينة فِى وقـت غابت فيه البهجة والطمأنينة، فِى عالم تعود أن يكون سكانه من الذئاب، وممـن تحكمهـم شريعة الغاب، وممن سولت لهم أنفسهم أن يدوسوا بالأقدام كل عرف ويمتهنوا كل نظام.

ونحن نهيب بكل من يقرأ هَذِهِ الصفحات من تاريخ النبى محمد ﷺ أن لاَ يعتبـر مَـا سطرناه مقصودًا لذاته، وإنما المقصود الحقيقى هو أن يتابع القارئ صفحات مـن تـاريخ هذا النبى ﷺ بقدر استطاعته تلائم مَا نحن فيه، ويحاول أن يدخلها فِـى كيانـه لتخـتلط بعناصر وجوده، ويحاول أن يدخلها فِى كيان غيره لتخالط عناصر وجود المجتمع بأسره.

ولقد ترددنا بين أن نكتب عن اللحظات الأولى فِى تاريخ النبى ﷺ وبين أن نكتب عن الأحداث التى تشابه مَا نحن فيه، فاخترنا أن نسلك هذا الطريق الـذى سـلكناه، وتركنـا للقارئ أن يستكمل من سيرة النبى ﷺ جميع مَا تركناه.

فإن بلغنا بالقارئ مَا أردنا أن نبلغه به فإنا راضون بـذلك مغتبطـون، وإن كانـت

الأخرى فالخيرَ قصدنا، والله يتنعّ بنا وبالقراء مَا يشاء.

ونسألُ اللهَ أن يبرم لهذه الأمة إبرام رشد، وأن يكون لها ناصرًا ومؤيدًا؛ إنه كان بها رءوفًا رحيمًا.

حين يكون الإنسان أمام شخصية عظيمة يكون لوجودها أثر فِي التاريخ، فإنه يحتـــار من أين يبدأ؛ ذلك أن جميع الأفكار التى تتصل بهذه الشخصية العظيمة تتـــدافع وتتـــزاحم، وجميع الأحداث التى تميزت بسبب هَذِهِ الشخصية تقف كلها أمام ذهن الكاتب وكأن كـــلً واحدة منها ترفع يدها لِتُبينَ عن نفسها وتحتلَ المكانة الأولى من أماكنِ الحديث حول هَـــذِهِ الشخصيةِ التى يستحيل أن يخطئها التاريخ.

ومن المعروف الذى لاَ ينكر أن جميع الشخصيات التى ظهرت فِي عصـــر المبعـــث كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وغير هؤلاء من الأفذاذ والعظماء، كان من الممكن أن يمر جميعهم فِي التاريخ دون أن يكون لهـــم ذكـــر، ودون أن يعرف أحد عنهم شيئًا لولا هذا النبى العظيم ﷺ الذى أرسل إليهم، وأخذ بأيـــديهم حتى وضعهم فِي مصاف العظماء.

وما كان لهؤلاء وغيرهم أن يكون لهم ذكر، لولا هذا الدين الذى جاء به هذا النبى ﷺ وحيًا من ربه، فأعاد صياغة عقول هؤلاء الرجال عَلَى طريقته ونظامه، فانسجمت أفعالهم وتصرفاتهم مع الكون كله، ودار هواهم مع الشرع حيث دار، فكان لإعادة صياغة عقولهم عَلَى هذا النحو هذا الأثر الذى وضعهم عَلَى قمة العظمة والشرف لاَ يعلو عليهم فيهـــا إلا القدوة ﷺ، الذى شاء الله له أن يتربع سنام العظمة وحده.

إن المعروف الذى لاَ ينكر، أن كل هؤلاء الذين ظهروا فِي عصر المبعـــث يـــدينون جميعهم لنبيهم ﷺ وللدين الذى جاء به؛ لأنه مَنَّ عليهم أو من الله به عليهم، فأخرجهم مـــن جهالة الجهلاء إِلَى عز الدين وشرفه، حتى قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْـــهُ: « لاَ يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية، ولا يعرف الجاهلية من لم يعرف الإسلام » مشيرًا إِلَى أن الضد يظهر حسنَه الضد.

ولا شك عندى الآن أنك مُسَلِّمٌ لى بهذه المقوله، إذ لاَ حظ لك ولا لغيرك فِي شىء من النزاع حولها، فهى لاَ تقبل النزاع ولا تحتمل اللجاجة.

وهذا الفتى الذى نتحدث عنه له حظ من هذا الذى توفر لغيره ممن جاءوا فِي عصـــر المبعث، حيث إنه قَدِ انتشر فِي التاريخ عَلَى أنه وائد نهذا النبـــى العظـــيم ﷺ، وارتباطـــه

بالنبى ﷺ ارتباط لاَ يخطئه التاريخ، ولا يتمكن أحد من جحوده.

وهذا الارتباط بين الفتى والنبى ﷺ يُضفى عَلَى الفتى شيئًا من العظمة غيـر قليـل. دون أن ينقص ذلك من عظمة النبى ﷺ، أو ينال من قدرها.

ومع ذلك فقد شاء الله لهذا الفتى أن تتوفر له أسباب أخرى جعلت لـه فِـى التـاريخ مركزا لم يتوفر لغيره من الناس.

فعلى يديه وقع هذا الحدث العظيم، والذى سنشير إليه فيما بعد إن شاء الله، وهو ذلك الحدث الذى أحدث رجفة اجتماعية شديدة أيقظت كل نائم من سباته، وطارت بالكرى مـن أعين المستمتعين به، فأفاق الناس عَلَى يديه فِى مكة أحداء البصـر، أقويـاء البصـيرة، ينظرون فِى عمق التاريخ، ويتأملون الأيام الخوالى، وإذا بهم يجدون طرفًـا لسـبب فِـى الماضى قَد انقطعت بهم أسباب معرفته، وجاء الفتى ليربطهم بهذا الماضى البعيـد، فمـا يجوز له أن ينقطع، وما يجوز لهم أن يغفلوا عنه.

لقد كان للفتى شرف أن يربط بين الماضى والحاضر قبل أن يظهر النبى ﷺ، بل قبل أن يُسلّم نطفته إِلَى آمنة بنت وهب، كى يأخذ طريقه إِلَى الظهور التاريخى.

وأخرى قد أحاطت بالفتى وميزته فوق المعتاد من أهل زمانه، وهى هذا الضرب من الخلق المتميز الفريد، فلم يحدث عنه التاريخ أنه سجد لصنم ولم يحدث عنه التـاريخ أنـه اختلف إِلَى حانات الخمور، ولم يحدث عنه التاريخ أنه تطلع إِلَى بيوت تعلوهـا الرايـات الحمراء ليقضى فيها أَرَبه، أو ينال فيها مَا يحب أن يناله أقرانه وأترابه، كَمَا لـم يسـجل التاريخ عنه أنه كان عاقًا لأبويه، متمردًا عَلَى أمرهما ونهيهما، حتى ولو طلبـه أحـدهما للذبح ومفارقة الحياة.

لقد توفرت للفتى هَذِهِ المميزات تضاف إِلَى الميزة العظمى التى وفرها القدر له.

يَا له من فتى تميز بين الفتيان فِى التاريخ بميزة أولى لم تتـوفر إلا لـه وبمميـزات ثانوية لاَ يدركها غيره إلا بشق الأنفس، وإلا بكثير من النصب الذى يحمل أترابه وقرناءه عَلَى الزهد فِى مثل هَذِهِ المميزات، وتلك السجايَا التى تحتاج إِلَى مثل هذا المجهود وأمثال هَذِهِ التضحيات.

فمن هذا الفتى المرتقب، ومن هذا الإنسان الذى يتطلع إِلَى مكانته الفتيان ؟

نَسَبٌ رَفِيعٌ:

لقد انحدر هذا الفتى من أبوين عظيمين، احتفظ التاريخ بأسمائهما كَمَا احتفظ لهما بكثير من العظمة والتميز.

أما أبوه: فهو - شيبة الحمد - الذى اشتهر بين المؤرخين باسم عبد المطلب وما كان لعبد المطلب أن يغفله التاريخ، أو يهمله فترة من فترات وجوده، ولم يشأ الله أن يكون أخوال عبد المطلب من مكة، وإنما شاء الله أن يكون أخوال عبد المطلب من يثرب، ومن أشرف بطونها - بنى النجار -.

ولم تأتِ هَذِهِ الخؤولة عفوًا أو مصادفة عَلَى غير نظام، وإنما أتت هَذِهِ الخؤولة ضمن منظومة تاريخية هى فيها مرحلة من مراحلها، أو عنصر من عناصر تكوينها، لها سوابقها ولها لواحقها.

ولم تظهر هَذِهِ اللواحق إلا فِى يوم هجرة سيدنا الرسول ﷺ، حين نزل فِى هذا الحى من العرب فِى قباء، واستقبله فيه - كلثوم بن الهدم - ومعه أهله وذووه.

وكان استقبال هذا البطن من العرب للنبى ﷺ وهم من أبناء عوف بن مالك استقبال الحمية والشهامة، وهما يختلفان عن الإيمان والوشيجة.

وحين علم النبى ﷺ يومها أن له أعداءً لاَ يستهان بهم من أبناء يهود أدرك أنه لو انتقل من قباء إِلَى يثرب فِى جماهير الأوس والخزرج، قد يندس بعض اليهود ليثير ثائرة الماضى بين الأوسيين والخزرجيين وهم حديثو عهد بإيمان، وهم حديثو عهد برسول الله ﷺ، وقد تتسبب هَذِهِ الحداثة فِى خروج الأمر عن سيطرة رسول الله ﷺ.

ولما حدد النبى ﷺ عدوه عَلَى هذا النحو، بقى فِى قباء حتى يستوثق من هَذِهِ الأسباب التى تدفع فتنة محتملة وصدورها عن اليهود غير مستبعد، بل هو الراجح الذى لاَ يرجح عليه غيره.

فأنت ترى النبى ﷺ حين عُرض عليه أن ينتقل إِلَى يثرب فِى حماية الأنصار، وَفِى حماية أبناء عوف بن مالك، لم يرَ النبى ﷺ أن يستجيب لذلك حتى يستكمل أسباب دفع

الفتنة الراجحة الوقوع، وعندها لاَ يستطيع أحد أن يتنبأ بآثارها إلا أن تتدخل العناية الإلهية لدفعها، والنبى ﷺ مأمور ونحن مأمورون بعده أن نأخذ بالأسباب ونترك النتائج لمسببها.

ولم يمض من الوقت إلا قليل حتى جاء بنو النجار ليقولوا للنبى ﷺ فِى رجاء ملح، قم معنا إِلَى يثرب وأنت العزيز المطاع.

وما كان لزعيم جماعة أو عظيم أمة أن يرغب فِى شىء فوق هذين الأمرين، إلا أن يكون نبيًّا طامعًا معهما فِى توفيق الله بعد أن يرى عبده قد أطاعه فِى استكمال الأسباب.

الْعَزِيزُ الْمُطَاعُ:

ما كاد يسمع النبى ﷺ هذين الوصفين إلا وقد أدرك أنهما وصفان تكمن خلفهما وشيجة القربى، بعد أن توفرت وشيجة الحمية والإيمان فِى هذا البطن من بنى النجار، وَفِى غيره من البطون من المهاجرين والأنصار.

شاء الله عز وجل أن يكون عبد المطلب قَدِ ارتبط ببنى النجار فِى يثرب ارتباطًا شديدًا بعد أن صاروا أخوالاً له.

ولقد شاء الله أن يولد شيبة الحمد « عبد المطلب » عَلَى هَذِهِ الأرض فكانت يثرب مسقط رأسه، وكانت يثرب مدرج طفولته إِلَى أن بلغ السابعة من عمره.

وقد أظهر عبد المطلب نبوغًا واضحًا، منه مَا هو فطرى انحدر إليه بالوراثة من آبائه وأجداده، ومنه مَا هو راجع الدربة والمران التى أَهَّلَهُ إليها وإلى التجاوب معها فطرة مستقرة فِى هذا البطن من العرب.

ولم يشأ الله أن يبقى عبد المطلب فِى المدينة فوق هَذِهِ السنوات الأولى التى قضاها فيها أيام طفولته، ثم عاد به إِلَى البيت العتيق لينمو حوله ويرتبط به، هذا البيت الذى سيشهد مطلع النور عَلَى يد حفيده عظيم الساحة وخاتم المرسلين.

وتميز عبد المطلب حتى صار شيخًا لمكة، وجرت عَلَى يديه ويد أبنائه أمورٌ عظام فريدةٌ فِى التاريخ، ليس لها عَلَى صفحات تسجيله نظير.

وهذا الشيخ العظيم كانت له ميول دينية لاَ تنكر، حملته عَلَى أن يرتبط برب البيت، الذى سبق أن نبهنا إِلَى أن العرب جميعًا قد أجمعوا عَلَى عبادته، مع أن الكثير منهم قَدِ

اتخذوا لهم آلهة خاصة.

وما كان شيخ مكة لينسى إلهه فِى السراء أو فِى الضراء.

وما كان لشيخ مكة أن يعصى لإله البيت أمرًا، يظن أنه يريده أن يفعله، أو يظن أنه يريد منه أن يجتنبه.

وما كان لهذا الشيخ أن ينسى أثر الثقة برب البيت وأنه وحده هو القادر، وغيره لاَ قدرة له ولا مشيئة.

وَعَلَىَّ أن ألفتك إِلَى حادثتى الفيل والذبح، باعتبارهما نموذجين من النماذج التى لاَ تخطئك، وفيهما الدليل الدامغ عَلَى مَا نقول.

وقد شاء الله عز وجل أن يرزق عبد المطلب بعدد غير قليل من البنين والبنات.

وهذا النسل يفيد عبد المطلب عزوة كبيرة، ودائرة واسعة من القرابة من طريقيها عَلَى السواء « النسب والمصاهرة » .

وأنا ذاكرٌ لك أسماءَ البنين والبنات الذين أنجبهم جميعًا عبد المطلب، واحتفظ التاريخ بسيرة كل واحد منهم وخبره.

ذكر ابن قتيبة مَا لعبد المطلب من البنين والبنات:

قال أبو محمد [كان لعبد المطلب بن هاشم من الولد لصلبه عشرة من الذكور، ومن الإناث ست بنات، أسماؤهم:

عبد الله بن عبد المطلب وهو أبو النبى ﷺ، والزبير بن عبد المطلب، وأبو طالب بن عبد المطلب واسمه عبد مناف، والعباس بن عبد المطلب، وضرار بن عبد المطلب، وحمزة بن عبد المطلب والمقوم بن عبد المطلب، وأبو لهب بن عبد المطلب واسمه عبد العزى، والحارث بن عبد المطلب، والغيداق بن عبد المطلب واسمه حجل أو نوفل.

أما أولاد عبد المطلب من الإناث فهن عاتكة بنت عبد المطلب وأميمة بنت عبد المطلب، والبيضاء بنت عبد المطلب « وهى أم حكيم »، وبرة بنت عبد المطلب، وصفية بنت عبد المطلب، وأروى بنت عبد المطلب.]

وهذا النسل من البنين والبنات، أو من الرجال والنساء قَدِ انحدروا جميعًا من زوجات

ست ارتبط بهن عبد المطلب رضى الله عنه.

وسوف نحاول أن نذكر بين يديك هؤلاء الزوجات وأولاد كل واحدة منهن من البنين والبنات، دون أن نلتزم بالترتيب التاريخى، لارتباط عبد المطلب بهن.

وسنبدأ بأم الفتى لتميز الفتى تاريخيًا وطبيعيًا واجتماعيًا علَى جميع إخوته وأخواته.

فمن زوجات عبد المطلب: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، فهى المخزومية، وولدها منه: عبد الله أبو النبى ﷺ والزبير وأبو طالب « وهو عبد مناف » وعاتكة وأميمة والبيضاء وبرة « سبعة ».

ومن زوجاته:

النميرية واسمها: نتيلة بنت كليب بن مالك بن جناب وهى من نسل النمر بن قاسط.

وولدها منه: العباس وضرار « اثنان ».

ومن زوجاته:

هالة [1] بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة وهى ابنة عم آمنة بنت وهب وولدها منه: حمزة والمقوم وصفية « ثلاثة ».

ومن زوجاته:

لبنى: وهى امرأة من خزاعة.

وولدها منه أبو لهب.« وحده ».

ومن زوجاته:

صفية وهى من بنى صعصع وولدها منه: الحارث وأروى « اثنان »

---

(١) أولاد عبد المطلب من هالة الذكور لهم أهمية:

أما أولا: فلأنه لاَ يجوز عدهم من الأبناء العشرة الذين وجب الوفاء بالنذر بإكتمالهم، فعبد المطلب لم يتزوج بهالة إلا بعد حسم قضية النذر، أما ثانيًا: فإن كثيرًا من الباحثين القدماء والمحدثين قد وهموا فعدوا الحمزة وأخاه من الأبناء العشرة الذين وجب الوفاء بالنذر عند اكتمالهم وهو خطأ انظر مثلا علَى هامش السيرة وغيره من كتب القدماء والمحدثين.

ولعل صفية هَذِهِ من أولى زوجاته، حيث إن الحارث هو أكبر أبنائه وكان يكنى بــه، وظل فترة طويلة ليس له من الذكور سواه.

وسادسة الزوجات عدًا لاَ ترتيبًا.

امرأة من بنى خزاعة لم يقف الكثيرون عَلَى اسمها لولا أن ابن قتيبة قَــدِ اســتدرك وقال: « بلغنى بعد أن اسمها ممتعة بنت عمرو »

وولدها من عبد المطلب: الغيداق « وحده » [1].

وإذا كُنَّا قد حدثناك عن عبد المطلب حديثًا مختصرًا، فإننا نعتزم أن لاَ نقف بك عنــد كل رجل من رجال سلسلة نسبه ونحدثك عنه.

أما أولا: فلأن مثل هذا الإجراء قد يجعل البحث يطول فِي أيدينا طولاً يخــالف مَــا فرضناه له.

وأما ثانيًا: فلأننا قد تحدثنا عن هؤلاء الأفذاذ فِي نشرة لَنَا سبقت من قبل تحت عنوان « فِي ساحة النبى ﷺ » ويكفيك أن تطالع هناك مَا كتبناه عن هاشم وأثره فِــى مجتمعــه، وعن عبد مناف، وعن قصى لتعلم أن هؤلاء الأعلام قل أن تجد نظيرهم فِي المجتمعــات المجاورة والمعاصرة، بل قُل إنك قد تجد نظائرهم عَلَى نــدرة فِــى المجتمعــات التاليــة والحواضر المختلفة.

أما أمه: فهى كَمَا علمت « فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ».

وبنو مخزوم قد حازوا من الشرف فِي مجتمعهم مكانًا عليًا يعرفه الناس ولا ينكرونه فِي زمانهم، وتعرفه الأجيال من بعدهم فيقدرونه حق قدره، ويرتفعون بــه إِلَــى المكانــة اللائقة به.

وفاطمة هَذِهِ هى صاحبة الحظوة عند عبد المطلب، حيث رزقه الله عز وجــل منهــا نصف أولاده تقريبًا، ثلاثة من البنين وأربع من النساء.

---

(١) راجع ابن قتيبة « عبد الله بن مسلم » فِي كتاب « المعارف » حققه ثروت عكاشة – ط / ٢ ١٩٦٩م – من مطبوعات دار المعارف بمصر صـ ١١٧، ١١٨

لقد شاء الله إذًا لهذا الفتى أن يكون عالى النسب من جهة أمه، وأن يكون عالى النسب من جهة أبيه.

مِيلاَدُ الْفَتَى:

فى مثل هَذِهِ الأيام وتلك العصور التى نتحدث فيها ونتناول مَا تضمه من أحداث وأشخاص، قد يصعب عَلَى الباحث أن يحدد عَلَى وجه الدقة تواريخ الأحداث، وتواريخ الأشخاص؛ وما ذلك إلا لأن أهل هَذِهِ العصور لم يتفقوا عَلَى اتخاذ حدث معين يرونه جديرًا بالاعتبار، وخليقًا بأن يتخذوه لهم بداية لتأريخ أحداثهم.

ومن أجل ذلك فإنا نرى المؤرخين حين تحدثوا عن ميلاد عبد الله اتخذوا بعض القرائن الكبرى التى عاصرت ميلاد عبد الله، أو وقعت بعده.

ومن هَذِهِ الحوادث التى اعتبروها وقاسوا إليها تحديد زمن ميلاد عبد الله مَا كان خارج حدود شبه جزيرة العرب، ومنها مَا كان داخل هَذِهِ الحدود واتفق الناس عَلَى اتخاذه بداية لتأريخهم.

وهذه الطريقة التى حدثتك عنها ربما تبدو أمامك نظرية تحتاج إِلَى أمثلة تطبيقية.

ولكى أوضح أمامك مَا ذكرته لك بالمثال، فإنى سأخلى بينك وبين الطبرى شيخ المؤرخين، ليحدثك عن وقت ميلاد عبد الله بن عبد المطلب.

قال أبو جعفر نقلاً عن هشام كلامًا لعل فيه شيئًا من الوهم.

[وملك « كسرى أنو شروان » ثمانيًا وأربعين سنة، وكان مولد النبى ﷺ فِى آخر ملك أنو شروان.

قال هشام: وكان ملك أنو شروان سبعًا وأربعين سنة، قال: وَفِى زمانه ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ، فِى سنة اثنتين وأربعين من سلطانه] [1].

ثم قال أبو جعفر وهو يتحدث عن ميلاد رسول الله ﷺ نقلاً عن هشام: [.. وحدثت

---

(١) تاريخ الرسل والملوك الشهير بتاريخ الطبرى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط / ٢ ط دار المعارف بمصر بدون جـ٢ صـ١٠٣.

عن هشام بن محمد، قال: ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ لأربع وعشـرين مضت من سلطان كسرى أنو شروان، وولد رسول الله ﷺ فِى سنة اثنتين وأربعـين مـن سلطانه] (١).

وهذه الرواية الثانية هى الأضبط والأقرب ولعل الرواية الأولى قد وقع فيها سـهو أو وهم.

وغير الطبرى من بعض الكاتبين ربما حاول أن يحدد وقت ميلاد الفتى باعتبار حدث الهجرة، الذى اعتبره المسلمون فِى عهد عمر بداية التاريخ الرسمى للأمة الإسلامية.

قال صاحب الأعلام [عبد الله الذبيح

[٨١ ق هـ - ٥٣ ق هـ = ٥٤٤ - ٥٧١ م »] (٢).

وهذا الميلاد الميمون قد وقع عَلَى أرض مكة ليشهد بداية عهد من الأحداث كثير منها قد غير وجه التاريخ، وجلها ليس له نظير بين الأمم.

وأنا لاَ أريد أن أبرح هَذِهِ المنطقة من الحديث، حتى ألفـت نظـرك إِلَـى أن كـلام الطبرى فِى تحديد تاريخ ميلاد عبد الله ووفاته، ربما يكون أقرب إِلَى كلام المؤرخين مما جزم به صاحب كتاب الأعلام.

فعند صاحب كتاب الأعلام أن عبد الله عاش سبعة وعشرين عامًا وشيئًا من العام.

أما الطبرى فعنده أن عبد الله قد عاش ثمانية عشر عامًا وشىء من العام، والطبـرى قد تابعه عَلَى رأيه بعض المؤرخين.

أما صاحب كتاب الأعلام فربما لم يكن أحد قد تابعه عَلَى رأيه الذى قـال بـه فيمـا أعلم.

وهذه المسألة ربما يكون لها نصيب من الحديث حين نحدثك عن وفاة الفتى.

---

(١) نفس المرجع جـ ٢ صـ ١٥٥.

(٢) الأعلام للزركلى - ترجمة عبد الله بن عبد المطلب - جـ ٤ - ص١٠ - ط. دار العلم بيروت ط / ٦ نوفمبر ١٩٨٤م.

الاسْمُ وَالْكُنْيَةُ وَاللَّقَبُ:

لقد شاء الله عز وجل أن تتسع اللغة العربية فِى ذاتها وَفِى نطاقها بحيث تشتمل عَلَى عدد من المفردات يثريها إثراءً لاَ يحوجها إِلَى شىء زائد يعبر عن المعانى التى يريد الناس منها أن تعبر عنها بمفرداتها.

وهذا الاتساع وذلك الشمول يجعلنا نزهو بهذه اللغة التى هى لغتنا والتى هى لغة الكتاب العزيز الذى كُلفنا بقراءته وفهمه والعمل بمقتضاه.

ونظرًا لاتساع هَذِهِ اللغة وكثرة مفرداتها تجدها وأجدها معك تتيح للفرد الواحد من الأسماء ثلاثة مستويات، أو ثلاثة أدرب، أو ثلاثة أنواع كلها تعبر عن جوانب شخصية الفرد، بحيث يستقل كل واحد منها بالإعراب عن جانب من جوانب هَذِهِ الشخصية.

فأنت ترى الفرد من بنى آدم أول مَا يستقبل عهده بالحياة يختار له أبواه اسمًا يكون علمًا عليه، بحيث إذا نودى به أجاب، وبحيث يكون هو الوسيلة التى يتعرف بها الناس عليه حين تختلط الأشخاص، وحين تزدحم الذوات.

فإذا مَا شب هذا الفرد ونما، وتحمل مسئولياته فِى هَذِهِ الحياة وأصبح لأفعاله وأقواله قيمة تحسب له أو عليه فِى ميزان التقدير، يضيف الناس إِلَى اسمه العلم اسمًا آخر يشعر برفعته أو خسته، ويصير هذا الاسم لقبًا له.

وحين يشب هذا الفرد ويبلغ مبلغ الرجال أو النساء، ويتزوج وينجب فإنه يحلو لبعض الناس أن ينادوه بوصف الأبوة إن كان رجلاً، أو وصف الأمومة إن كانت إمرأة، يضيفون إِلَى الأمومة أو الأبوة اسم الثمرة التى أثمرها الزواج، فيقولون: أبو على، أو أبو فاطمة، ويقولون: أم البراء، أو أم عاتكة.

ما أجمل هَذِهِ اللغة وما أروعها حين تتعهد بتلبية جميع الرغبات، وتستجيب للتعبير عن جميع المعانى.

والفتى الذى معنا لم تمنعه اللغة نصيبه من الأسماء عَلَى جميع مستوياتها.

وبيان ذلك أن الفتى حين استقبل الحياة لأول عهده بالدنيَا لم يختلف عَلَى اسمه اللائق به أبواه، بل اتفق عبد المطلب بن هاشم أبو الفتى وفاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية

أم الفتى عَلَى تسميته بِ « عبد الله ».

فصار اسمه لذلك عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ... إِلَى آخر النسب الشريف.

وإن تعجب فعجب لاَ ينقطع أثره أن يسمى أبو النبى ﷺ بهذا الاسم، ويختص به من بين إخوتِه أعمام رسول الله ﷺ.

فجل أعمامه أسماؤهم مفردة: الحمزة، والعباس، والزبير، وضرار، والمقوم، والحارث، والغيداق.

وليس من أعمام النبى ﷺ من له اسم مركب تركيبًا إضافيًا سوى: أبى طالب حيث إن اسمه عبد مناف، وأبى لهب حيث إن اسمه: عبد العزى.

ولعلك عَلَى ذكر مما ذكرناه قبل من أن أبَا طالب « عبد مناف » هو أخ شقيق لعبد الله، أبوهما عبد المطلب وأمهما فاطمة.

وأبو لهب أخ غير شقيق لعبد الله، فأبوهما عبد المطلب، وأم أبى لهب « عبد العزى » - لبنى - وهى إمرأة من خزاعة، لم يعقب منها عبد المطلب سوى أبى لهب وحده.

وإنا لنعجب غاية العجب أن يختص عبد الله بهذا الاسم المركب من بين إخوته عَلَى هذا النحو المشرف، فلم ينتسب إِلَى صنم كَمَا انتسب عبد العزى، ولم ينتسب إِلَى جبل أو شىء آخر لم يتفق الرواة عَلَى تحديده عَلَى وجه صارم، كَمَا انتسب عبد مناف.

وأنت إذا حللت الاسم المركب من مضاف ومضاف إليه، لترآى لك مثير العجب عندى وعند الناس بشىء من الجلاء والوضوح.

فاسم الفتى « عبد الله » مركب من جزءين: « عبد » و« الله ».

أما المضاف الذى هو « عبد » فهو لاَ يعنى إلا الخضوع والاستسلام والطاعة عَلَى وجه مخصوص، وسمت معين.

فهى فِى الأصل صفة ترفع صاحبها درجات بعدها درجات بقدر مَا يتحقق معناها فيه إذا كانت مضافة إِلَى هذا الاسم الكريم « الله ».

والأصل فِى كلمة العبد أنها تطلق عَلَى المملوك من العقلاء، وتكون صفة ملازمة له إِلَى أن يسترد حريته، وهى مشتقة من التعبد وهو التذلل.

قال ابن الأنبارى رحمه الله تعالى: العبد الخاضع لله، من قولهم: طريق مُعَبَّدٌ إذا كان وطئها الناس.

والعبودية: أشرف أوصاف العبد، وبها نعت الله تعالى نبيه ﷺ فِى أعلى مقاماته وهو الإسراء.

هذا هو شرف المضاف.

أما المضاف إليه فهو « الله »

وأنت خبير ولا شك أن هذا الاسم لم يطلق فِى التاريخ عَلَى موجود سوى الله عز وجل.

وأنت تعلم ذلك عَلَى وجه اليقين لو أنك استقرأت المجتمعات الناطقة بالضاد.

وأنت تعلم ذلك عَلَى وجه اليقين لو أنك استقرأت أو استقرأ لك مجتمع من المجتمعات الناطقة بغير الضاد.

وعند ذلك يخلص لى ولك مدلول قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٦٥].

ومدلول هَذِهِ الآية عَلَى هذا الاسم « الله » يكمن فِى قوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ﴾ ؛ إذ المعبود المستحق للعبادة دون سواه يطلق عليه كلمة « الله ».

وكلمة « الله » فِى أشهر الأقوال معناها أنه هو المستحق للعبادة وحده.

وكثير من أهل العلم يؤكدون أن كلمة « الله » هى الاسم الأعظم الذى إذا سئل به ربنا أجاب، وإذا استُعْطِىَ به أعطى، وإذا استُغِيث به أغاث.

وليس من الضرورة أن نتعرض هنا إِلَى الحديث عن كلمة « الله » من حيث إنها اسم جامد أو مشتق أو مَا يشبه ذلك من الأبحاث المتعلقة بهذا الاسم، لأن مَا نحن بصدده من القول لاَ يحتمل أمثال هَذِهِ الأبحاث.

الآن وقد انتهيت معك إِلَى بيان مفردات الاسم المركب تركيبًا إضافيًّا وهو « عبد الله» وشرحنا مفردات هذا المركب بكلمات مختصرة فِى بيان كل واحد من جزءى هذا

المركب.

فإذا مَا أردت أن أحدثك عن هذا الاسم عَلَى مَا هو عليه من التركيب الإضافى، فإنى أقول لك: إن هذا الاسم العلم منقول من الصفة التى يمكن أن يتصف بها كل عابد لربـــه، فتضفى عليه لونًا من الشرف لاَ يناله غيره، إلا من كان عَلَى مثل حالته أو يزيد.

ثم انتقل هذا الاسم المركب من الوصفية إِلَى العلمية، فأصبح علمًا هنا عَلَى الفتـــى لاَ يعرف بعلم سواه.

والأمر الذى ينبغى أن ألفتك إليه، هو أن الفتى قد نجا هنا من دنس علم من الأعـــلام يطلق عليه، كَ « عبد العزى، أو مَا يشبهه من الأعلام التى تلقى بظلال الشرك عَلَى من تدل عليهم، وَعَلَى من يرتضونها علمًا لهم ويعجبون بها.

ولحب أن تتمسك بهذه اللفتة التى ألفتك إليها الآن، لأنها ربما تفيد فِى النجـــاة الثالثـــة للفتى حين نصل إليها من هذا البحث.

وأنت لاَ تظن أن نجاة الفتى باسمه من ظلال كئيبة لم ينجُ منها كثيرون غيره شـــىء هين، وإنما هَذِهِ النجاة نوع من التوفيقات القدرية التى يهيئ الله لها من يريد مـــن عبـــاده، فينجيهم من ظلال لاَ تليق بمكانتهم الاجتماعية، ومنزلتهم الدينية.

ولو أنك التفت إِلَى أن الله قد نجى الفتى من اسم قد يجلب له، ويجر عليه شـــيئًا مـــن المتاعب التى يسببها غبار يثيره من لم يرعَ لله إلاً ولا ذمة، فيطلق لسانه بالتشويش عَلَـــى الآخرين، لهان عليك أن يشكك فِى هَذِهِ المنظومة المبتدعة فِى هذا الزمان، ويقف وراءها رجال وصبيان يبدعونها بأن التوحيد هو إفراد الله بالربوبية والألوهية ووحدة الصفات؛ ثم يفرعون عَلَى ذلك أمورًا كقولهم: إن توحيد الربوبية فطرى عند الفرد والجماعة، فمن لـــم يكن موحدًا للربوبية قبل البعثة فهو كافر كفرًا صراحًا، يخالفون بذلك القرآن الكريم الـــذى اشتملت آياته عَلَى أن أهل الفترة ناجون حيث لم يأت إليهم رسول.

ثم يفرعون تفريعات أخرى عَلَى مَا اعتبروه أصلاً وهو وهم طنطنوا لها ودقوا لهـــا الطبول، وهى لاَ تعدوا أن تكون نوعًا من الشقشقات الفارغة التى لاَ تفيدنا معنى جديـــدًا، ولا تشتمل هى عَلَى حقيقة من الحقائق سوى هَذِهِ الأصوات التى تصـــم الآذان، وتـــزعج الهادئين، وتسيئ إِلَى المطمئنين إِلَى دينهم ومعتقداتهم.

وليس هنا مجال تفصيل القول معهم فيما اعتبروه أصلاً وهو فِي الحقيقة غير سديد.

ونعود إِلَى تأكيد مَا قلناه من نجاة الفتى مِن علم كئيب، يُلقى بظـلال الشـرك عَلَـى صاحبه، إِلَى علم مركب تركيبًا إضافيًا عَلَى جانب من الرفعة، يبتغيها كل إنسان سـوى، ويسعى إليها كل صاحب طبع مستقيم.

هذا هو علم الفتى عبد الله، فما عسى أن تكون كنيته ؟

وإذا كان الحديث عن كنية الفتى، فإن التاريخ يفاجئنا بأن للفتى كنية قَدِ اشتهر بهـا، حيث كان يقال له: « أبو قُثَم »

والقُثَم: بضم القاف وفتح الثاء إنما تقال للرجل الذى تجتمع فيه صفات الخير.

وعليه فإن كل رجل جموع لصفات الخير يقال له « قُثَم » و« قَثُوم ».

وقد تطلق « القُثَم » عَلَى الرجل الذى اجتمعت له خصال الشر ولكن عَلَى ندرة [1].

وذهب بعضهم إِلَى أن كلمة « قُثَم » هى أحد أسماء رسول الله ﷺ.

وعلى هذا فإن هَذِهِ الكنية تكون قد أطلقت عَلَى « عبد الله » بعد ميلاد رسول الله ﷺ، وظهور خصال الخير التى اجمعت فيه.

أما إذا قلنا: إن هَذِهِ الكنية إنما تشير إِلَى اجتماع خصال الخير فِي هذا الفتـى نفسـه، فهى تكون قد أطلقت عليه فِي حال حياته وقبل ميلاد رسول الله ﷺ، وهو مَا أراه وأميـل إليه.

أما الكنية التى لحقته بعد مماته بيقين فهى « أبو محمد » عَلَى مَا ذهب إليـه كتـاب السير [2].

وبالإضافة إِلَى العلم والكنية، فإن للفتى لقبه الذى اشتهر به وأشار إليه النبى الكـريم ﷺ فيما بعد وهو: « الذبيح ».

ولقب « الذبيح » إنما يطلق عل الفتى ليشير إِلَى حادثة رجف لها المجتمـع المكـى

---

(١) راجع لسان العرب لابن منظور - مادة: قثم ح ٥ صد ٣٥٣٤ - ط- دار المعارف بدون.

(٢) راجع نحو سبل الهدى والرشاد ح ١ - صد ٢٨٧.

رجفه شديدة، حيث لم يتعودها الناس، ولم يشهدوا لها نظيرًا.

وهذا اللقب يطلق عَلَى الفتى ليشير إِلَى بعض السجايا التى توفرت لــه ولــم تتــوافر لسواه فِى علاقاته بأبيه، وطاعته المطلقة له تأدبًا وتدينا.

وهذا اللقب يطلق عَلَى الفتى ليشير إِلَى بعض الوظائف التى جاء الفتــى مــن أجــل أدائها، وهى ربط حاضر العرب الدينى بماضيهم الذى أوشك أن يطويه النسيان، ويــذهب فِى تلافيف ظلمات التاريخ، فيغيب عن أعين الناس ويحتجب عن بصائرهم.

وهكذا يجتمع للفتى من الاسم والكنية واللقب أمور حسان، لم يجتمع مثلها لغيره مــن الناس من غير الأنبياء والمرسلين.

فِى غَيَاهِبِ الزَّمَنِ:

وكان من الممكن أن يتأتى لَنَا أن نقف عَلَى حقائق كثيرة تتصل بالفتى، فتعبــر عــن جوانب كثيرة من شخصيته منذ أيام الصبى، حتى تتكامل بيننا حلقات نموه وتطور تكامله، لولا عيب التاريخ المتأصل فيه والذى لاَ يكاد يفارقه.

وعيب التاريخ أنه يلتفت إِلَى الأصوات العالية، والأضواء الساطعة والجلبة التى تملأ الفضاء.

إن عيب التاريخ أنه يلتفت إِلَى هَذِهِ الأشياء وأمثالها ونظائرها، فتأخذ هَــذِهِ الأشــياء بألباب المؤرخين فيهتمون بأحداث الجلبة والوقائع التى يحيط بها الصخب، والأفعال التــى تقع تحت الأضواء، فيسجلونها بغثها وثمينها، ويهتمون بها اهتمامًا يجعلهم يكتبون عظيمها وحقيرها، ويحتفظون بما هو موثوق به وبما تعوزه الوثائق عَلَى السواء.

أما المناطق الهادئة والأماكن المستقرة، فلا يكاد يلتفت إليها التاريخ ولا يكــاد ينظــر إليها المؤرخون إلا إذا رأى الواحد منهم نفسه وقد أصبح بلا عمل يشغله، فيــذهب إِلَــى المجتمعات بغير تفريق، ويسجل مَا يجده فيها حيثما اتفق.

وقد تصادفه فِى حالته تلك وقائع قد مضى زمانها، أو أشخاص عظماء قــد مضــى شطر من عمرهم وهو منصرف عنهم، فيحاول أن يبحث عن شيء من هَذِهِ الأحــداث، أو عن شيء من هَذِهِ الأحوال التى أحاطت بتلك الشخصية فِى الماضى يريد أن يلتقطه ولــو

عَلَى غير نظام، فلا يجد من ذلك كله إلا العجز الذى يحيط به، والعوز الذى لاَ يجد معــه مَا يلبى حاجته.

وهذا عيب التاريخ الذى لاَ ينفك عنه

وهذا عيب التاريخ الذى يترتب عليه كثير من ضياع الأحداث والأحوال التى يمضى زمانها فِى تلافيف الماضى، فيبحث الناس بعد عن هَذِهِ الأشياء فلا يجدون إِلَى الوصــول إليها سبيلا.

وبعد أن أو قفتك عَلَى هذا العيب أقول: إننا هنا نعانى من آثار هذا العيــب ووطــأة ثقله.

فلقد شئنا أن نتعرف عَلَى الفتى لنقف عَلَى شىء من أخباره فِى سنواته الأولى.

ولقد شئنا أن نتعرف عَلَى أحوال الفتى منذ نعومة أظفاره، فنتتبع مثلا تصرفاته فِــى صباه، وعلاقته بالأشياء من حوله، وبالمحيطين به من الأحياء وغير الأحياء.

أردنا أن نتعرف عَلَى ذلك لعلمنا أن هَذِهِ التصرفات التلقائية يكون لها من الــدلالات الأولية عَلَى المكونات النفسية عند الشخص، ويكون لها من الدلالات الأكيدة عَلَى العناصر الأولية التى تبنى منها شخصية الإنسان التى تتكامل معه يومًا بعد يوم، القدر العظيم الذى يفيد الباحث فِى التعرف عَلَى جوانب كثيرة تتصل بالشخصية موضع بحثه.

لقد شئنا أن نتعرف عَلَى الفتى وأحواله منذ نعومة أظفار لتكتمل مسيرتنا فِى البحــث عنه، فلم نجد عند التاريخ شيئا من ذلك، ولم نجد عند المؤرخين من هــذا كلــه فتــيلاً أو قطميرًا.

ولم ينفعنا بعد ذلك ازورار التاريخ عنا، يحافظ بهذا الازورار عَلَى ماء وجهه.

ولم ينفعنا بعد ذلك اعتذار التاريخ والمؤرخين بانشــغالهم بهــذا الضــجيج المحــيط بالدولتين العظميين الفرس والروم.

إنه لم يفعنا هذا ولم ينفعنا ذاك، حيث إن الواقع الأليم، يملى علينا أن الفتى لم يســجل التاريخ له شطرًا كبيرًا من الأحداث التى ألمت بفترة عظيمة من تاريخه، والتــى تشــتمل عَلَى فترتى الصبى والتمييز، وهما فترتان لاَ غنى للباحث عنهما.

وليس لَنَا أن نقول: إلا أننا نشعر بالأسى والأسف لغياب أحـداث وأحـوال هـاتين الفترتين في لفائف الماضي، دون أن تجد ذاكرة التاريخ من ذلك شيئًا ترويه لنا، قل هـذا الشيء أو كثر.

وإذا كانت لفائف الماضي قد ضمت فِي ظلماتها حقبة من تاريخ الفتى، عجز التاريخ وعجز المؤرخون أن يستنقذوا أحوال الفتى وأحداثه من بين براثن هَذِهِ اللفائف المظلمة، فإن التاريخ وإن المؤرخين قد وعى كل منْهُمَا الدرس، واستيقظوا للفتى يرقبون أحواله والأحداث التي تحيط به، لاَ يفوتهم بعد ذلك منها شئ، خاصة وأن هذا الفتى النابه قد علاه من البهاء والجلال مَا ينبئ بأنه يتعلق به شيء غير قليل من عظائم الأمور.

ولقد وعى التاريخ والمؤرخون أن أمثال هذا الفتى النابه الذين يتعلق بهم الأحداث العظام، لاَ يُفسح لهم فِي آجالهم، ولا يُنسألهم فِي أعمارهم إلا بمقدار مَا يؤدوا الوظائف التي تناط بهم.

ظل الفتى إذا فِي لحظ التاريخ، وَفِي إطار مراقبته له، لاَ ينفك عنه غاديًا، ولا ينفك عنه رائحًا، ولا يتركه فِي يقظة أو منام.

ولم يكن التاريخ ولا المؤرخون بقادرين عَلَى أن يتنبئوا بما سيحيط بالفتى من أحداث عظام، فِي زمان قد طلع فجره وانفجر نوره.

تَجْدِيدُ حَفْرِ زَمْزَمَ:

ومع أن الفتى لم يشهد غياب زمزم التي فجرها الله لأبيه إسماعيل وردمها جرهم، إلا أن الأحداث والمقادير ربطاه بها فَشَدَا الوثاق.

ومع أن هَذِهِ القصة التي سأقفك عليها ظاهرة غاية الظهور، إلا أنني لم أرَ من بأس أن أذكرك فِي هَذِهِ الأيام بطرف منها، لعل فِي هَذِهِ الذكرى إحياءً للقلوب فيستيقظ الناس، ويفتحون أعينهم عَلَى ذلك التشرذم الذي نعيش فيه فنعاني آثاره ونتجرع مرارته، ويلتفتون إِلَى اللامزية الموجودة فِي علاقة الفتى بهذه البئر، والتي مؤداها أن الله أراد أن يجعل لأهل مكة رابطًا من الماضي يرجع بآخرهم إِلَى أولهم، ، ويضفي من شرف أولهم عَلَى آخرهم فتدركهم الحمية، ويلتفتون إِلَى أماكن عزهم وشرفهم فيدفعون عنهما غائلة كل عدوان.مع أن قصة زمزم واضحة كل الوضوح، فإني لاَ أرى من بأس فِي أن أضع بين يدي الناس طرفًا منها فِي ذكرى ميلاد رسول الله ﷺ، لعلهم يدركون منها أمرًا أو أمورًا

تتقذهم من هَذِهِ الوهدة، وترفع عنهم آلام الفرقة.

إنه حين عز الماء عَلَى مدركات هاجر ورأت أسباب الموت تحيط بها وبوليدها، وانقطعت بها أسباب النجاة، تفجرت هَذِهِ البئر تحت عقب إسماعيل عليه السلام، من غير أن يعالج أمرها واحد من أنس أو جان، ومن غير مجهود يبذل، لاَ ولا حتى من هاجر أم إسماعيل.

ولقد رأى بعض العلماء أن فِي نبع الماء من تحت عقب إسماعيل إشارة لاَ تخطئ النظر إليها، وهى أن هَذِهِ العين وتلك البئر ليست مؤقتة لمعالجة ظرف بعينه، وإنما هى باقية فِي عقب إسماعيل إِلَى أن تقوم الساعة.

والذى يبدو لى أن هذا الملحظ الذى لاحظه بعض العلماء قد يكون مستوحًا من قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٨].

[قال السهلى: وكانت زمزم كَمَا تقدم سُقيَا إسماعيل ﷺ فخفرها له روح القدس بعقبه.

وَفِى تحفيره إياها بالعقب دون أن يحفرها باليد أو غيره: إشارة إِلَى أنها لعقبه وراثة وهو محمد ﷺ وأمته، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ أى فِى أمة محمد ﷺ][1].

وظلت زمزم هكذا ظاهرة يتفجر منها الماء، فيشرب منها الأحياء من الطير والإنسان والحيوان، وهى تكفيهم جميعًا، حياه إسماعيل عليه السلام، ثم آلت إِلَى أولاده من بعده ومعهم أخوالهم من جرهم.

ولم يمض وقت طويل عَلَى وفاة إسماعيل عليه السلام، حتى حاولت جرهم أن تستقل بالسيادة والرياسة فِي مكة، وولد إسماعيل عليه السلام لاَ يجدون عليهم، ولا يغضبون من تصرفهم.

أما أولاً: فلأنهم أخوالهم وللخؤولة حق يفرضه الخلق كَمَا تفرضه القرابة.

وأما ثانيًا: وهو الأهم – فلأن مقامهم جميعًا حول البيت الحرام، وللبيت الحرام حرمة

---

(١) الروض الأنف ج ١ صـ ٩٧.

لاَ تنكر.

ولكن جرهم لم يراعوا للبيت حرمة، ولم يراعوا لزائريه ذمة، فاعتدوا عَلَى حرمة البيت واستولوا عَلَى ممتلكاته، وأخذوا مخصصاته مما كان يجلب إليه وقفًا عليه من هدايَا نفيسة.

ومما زاد الأمر تعقيدًا أنهم قَد استغلوا مكانتهم إِلَى جوار البيت العتيق، فظلموا الذين يأتون آمين البيت الحرام يقصدون إِلَى النسك من حج أو عمرة.

وهذا السلوك لم يكن ليبقى طويلاً، حيث أراد الله دائمًا أن يكون البيت الحرام حرمًا آمنا، يأتى إليه الناس فلا يخشون عَلَى نفس أو مال أو عرض.

ورتب الله لذلك الأسباب، فغضب من فعل جرهم أقوام من العرب هم من بنى بكر بن عبد مناة من كنانة، ومن غبشان الذين هم من خزاعة.

ولم يقفوا عند حدود الغضب، ولكنهم قرروا قتالهم وإخراجهم من مكة.

وما كان إلا أن آذنوهم بالحرب، وأعلنوهم بالقتال.

وانتصر فِى هَذِهِ المعركة بنو بكر وغُبْشان، ولم يسع جرهم إلا أن يخرجوا من مكة ومعهم زعيمهم عمرو بن الحارث بن مضاض.

ولكنه لم يخرج من مكة حتى دخل الكعبة وأتى بغزالين من ذهب كانا بها وأشياء أخرى، وألقى بها فِى بئر زمزم ثم هال عليها التراب فردم البئر.

وظلت هكذا زمزم تتوالى عليها السنون، وهى عَلَى حالها التى تركها عليها عمرو بن الحارث.

وتوالى الزمان له أثره فِى المعارف، كَمَا أن له أثره فِى الأشياء، فحين توالى الزمان عَلَى زمزم وهى عَلَى هَذِهِ الحال، جاءت أجيال متعاقبة لاَ عهد لها بزمزم، وليس لها بها صلة، فنسى الناس مكان البئر، كَمَا أوشكوا أن ينسوا تلك العظمة التى قارنت نبع الماء منه إِلَى أن جاء عصر عبد المطلب فهيأها الله له؛ وقام بالكشف عنها وجدد حفرها.

وقصة هذا التجديد قدرواها ابن إسحاق عن عَلَى بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه.

والبيهقى عن الزهرى.

وخلاصة مَا روى فِي ذلك أن الله عز وجل حين أراد أن يعيد ماء زمزم إِلَى الجريان، ربط شرف ذلك بـ « عبد المطلب » جد النبى ﷺ.

وتقص الروايات أن الله قد حث عبد المطلب فِي نومه عَلَى أن ينشط لتجديد حفر زمزم وإعادة مائها إِلَى الجريان.

ولم يكن عبد المطلب عَلَى علم قليل أو كثير باسم زمزم ولا بمكانها سوى مَا يتوارثه الناس من الروايات عن ارتباط زمزم بإسماعيل جدهم الأعلى عليه السلام.

ولكن الله قد شاء - عَلَى مَا تحكيه الروايات - أن يتعرف عبد المطلب عَلَى مكان زمزم بعلامات لاَ تخطئه.فلما أصبح عَلَى يقين من ذلك أعلم قريشا وانتدبهم إِلَى أن يشاركوه فِي هذا العمل الجليل.

ولكنهم قد تقاعسوا عن هَذِهِ المشاركة لما ينتاب بعضهم من نقص الهمة، ولأن البعض الآخر عندهم ماؤهم الذى يقع قريبًا أو بعيدًا من مكان سكناهم، وهو مع قربه أو بعده يجد أصحابه لهم فيه بعض الغنية.

ونشط عبد المطلب وحده ومعه ولده الحارث الذى لم يكن له من الذكور سواه.

وأخذ يعالج تربة الأرض فِي المكانِ الذى بدت له العلامات فيه، وقريش ينظرونه مترقبين أو غير عابئين بما يفعل.وبعد طول الممارسة ومتابعة العمل صادف عبد المطلب تربة مبللة بالماء، وهى تعد أمارة وقرينة تشبه الدليل القطعى عَلَى صدق مَا رآه فِي نومه، وَعَلَى أن ماء زمزم وشيك الانفجار.

وعلم سادة قريش أن الأمر جد وليس بالهزل، وأنه عما قريب سيكون عبد المطلب صاحب ماء فِي الحرم شديد القرب من البيت الحرام، لاَ يكلف صاحبه مؤنة فِي نقله إِلَى الجيج فِي موسم الحج، ولا فِي الاستفادة منه عَلَى مدار العام.علم سادة قريش أن الأمر جد وليس بالهزل، وأن عبد المطلب وشيك الظفر بهذا الشرف الذى يمكنه من سقيَا الحجيج بغير مؤنة تذكر، والذى يربطه بأوائل التاريخ حيث إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام.

والذى زاد الأمر علوًا ورفعة فِي نظر القوم، أن عبد المطلب قد وجد كنوز الكعبة التى دفنها عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى الذى سبقت الإشارة إليه آنفا.

لقد وجد عبد المطلب الغزالتين والسيوف القلعية والأدرع واستخرجها جميعًا، فأصبحت تتراءى للعيون، كَمَا يتراءى للعيون تدفق الماء من زمزم.

فاختلف عليه سادة قريش وقالوا له: إن هذا الماء وتلك الكنوز شركة بيننا وبينك، لأنك تعلم ويعلم الناس أن هَذِهِ آثار أبينا إسماعيل عليه السلام، ولنا فيها حظ كَمَا لك فيها من حظ.

وكانت حجة عبد المطلب فِي الاستقلال بهذا الأثر العظيم أن رب الكعبة قد أطلعه عليه وحده دون غيره من القرشيين.

وكان لاَ بد من الاحتكام إِلَى الغير، أو إِلَى الأشياء.

وانتهى بهم المطاف إِلَى أن سلموا له بالماء.

أما كنوز الكعبة فرأوا أنه لاَ بد من ضرب القداح عليها فِي نوع من القرعة يرتضون نتيجته ويرتضيها.

وضربوا بالقداح عَلَى الغزالتين والسيوف والدروع.

فخرجت نتيجة القرعة لتقول: إن للكعبة الغزالين، وإن السيوف والدروع لعبد المطلب، ولا شيء لسادات قرش.

فقام عبد المطلب إِلَى السيوف وصنع منها إطارًا لباب الكعبة، وثبت الغزالين فِي منتصفه.

وكان فعل عبد الطلب هذا هو أول مَا صنعه الناس من اتخاذ الذهب حلية لباب الكعبة.

أما الماء فقد خلص لعبد الطلب لاَ ينازعه فيه غيره.

فلما أصبح الماء خالصًا لعبد المطلب قام إليه وبنى إِلَى جوار البئر حوضًا يملؤه بالماء فيشرب منه الحجيج أيام النسك، ويشرب منه الناس عَلَى مدار العام.

ولم يخلص له هذا البناء من حسد النفوس، حيث كان الشانئون عليه يعمدون إِلَى الحوض ليلاً فيخربونه، ويقوم إليه فِي الصباح فيصلح من شأنه بصبر ودأب عَلَى تحمل الأذى ومواصلة الإصلاح.فلما خلص له الماء واستقام له بناء الحوض، وهدأت النفوس

الشائنة، قام إلى الناس يعلن بينهم أنه لاَ يحل هذا الماء للاستحمام فيه أو نيله بالأذى، وهو فيما دون ذلك حل وبل.

قال ابن إسحاق في مروياته: فلما حفر عبد المطلب زمزم ودله الله تعالى عليها، وخصه الله بها زاده الله بها شرفا وخطرًا في قومه، وعطلت كل سقاية كانت بمكة حين ظهرت، وأقبل الناس عليها التماس بركتها ومعرفة فضلها، لمكانها من البيت وأنها سقاية الله عز وجل لإسماعيل ﷺ [1].

وحين خلصت زمزم وشرفها لعبد المطلب، ضمه بنى عبد مناف إلى سائر مآثرهم وتفاخروا بها ضمن مَا تفاخروا بها من المآثر.

ولا ضير عليهم في ذلك حيث إن بنى عبد مناف أهل بيت واحد شرف بعضهم لبعض شرف وفضل بعضهم لبعض فضل.

فقال قائلهم شعرًا:

وَرِثْنَـا الْمَجْدَ مِنْ آبَـا ∴ ئِنَـا فَنَمَى بِنَا صَعَدَا

أَلَم نَسْقِ الْحَجِيجَ وَنَنْـ ∴ حَرَ الدَّلاَّقَةَ الرُّفْدَا [2]

وَنُلْقَى عِنْدَ تَصْرِيفِ الْـ ∴ مَنَايَـا شُدَدًا رُفْدَا [3]

فَإِنْ نَهْـلِكْ فَلَمْ نُمْـلَكْ ∴ وَمَـنْ ذَا خَالِدًا أَبَدَا

وَزَمْزَمُ فِي أَرُومَتِنَـا ∴ وَنَفْقَأُ عَيْـنَ مَنْ حَسَدَا

وهذه الأبيات من قصيدة لـ « مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد مناف ».

وفي أبيات أخرى لـ « حذيفة بن غانم أخي بنى عدى بن كعب بن لؤى » قال:

وَسَاقِي الْحَجِيجِ ثُمَّ لِلْخُبْزِ هَاشِمٌ ∴ وَعَبْدُ مَنَاف ذَلِكَ السَّيِّدُ الْفِهْرِى

طَوَى زَمْزَمَ عِنْدَ الْمَقَامِ فَأَصْبَحَتْ ∴ سِقَايَتُهُ فَخْرًا عَلَى كُلِّ ذِى فَخْرِ

---

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ ١ صـ ١٣٩.

(٢) الرفد: جمع رفود من الرفد، وهى التى تملأ إناءين عند الحلب

(٣) جمع رفود أيضًا من الرفد وهو: العون.

وهو يقصد إِلَى عبد المطلب بن هاشم الذى ارتبط إعادة حفر زمزم باسمه.

وهكذا ترى وأرى معك مَا كان لتجديد حفر زمزم من أثــر عَلَــى قــريش وَعَلَــى القرشيين، حيث ربطهم بماضيهم البعيد، ورسم أمامهم طريقا مهاذا إِلَى مســتقبل قريــب يكون من عقب عبد المطلب الذى سيشهده بعينيه قبل أن يشاء الله أن يوارى التراب.

مَوْقِفٌ عَصِيبٌ وَنَذْرٌ غَرِيبٌ:

وأنت ينبغى أن لاَ تظن أن حادث تجديد حفر زمزم مر هكــذا فِــى التــاريخ بغيــر منغصات أو مكدرات؛ فما من عمل جليل ولا شخصية عظيمة إلا وتحيط بها الصــعوبات من كل جانب، كأنها المعادن النفيسة لاَ تخلص لها نفاستها إلا بعرضها عَلَى النار القاسية.

هل يمكن أن نقول: إن هَذِهِ إرادة الله فِى خلقه من الأشخاص والأشياء، أم أنها ســنة الله فِى هَذِهِ الأشياء وهؤلاء الأشخاص ؟.

أما أنها إرادة الله فِى الأشياء والأشخاص، فهذا أمر عقدى مستقر فِى نفوس المؤمنين به، إذ إنه هو صاحب الإدارة المطلقة التى لها من العموم بحيث لاَ يقع فِى ملْك الله إلا مَا يريد.

أما أن تكون هى سنة لاَ تتخلف، فإن القارئ للتاريخ يوشك أن يسلم بذلك، لولا بعض الاستثناءات الفردية التى ليس منها مَا نحن بصدده الآن من الحديث.

وأعود إِلَى مَا كنت أنهاك عنه من أنه لاَ يجوز لك أن تظن أن حادثة تجديــد حفــر زمزم مرت فِى التاريخ بغير منغصات، أو مرت فِى الواقع بغير مظهر من مظاهر الألــم النفسى الذى وقع عَلَى عبد المطلب حين أتيح لشرف إعادة حفر زمزم أن يرتبط به.

فما عسى أن تكون هَذِهِ المنغصات التى شهدها واقع إعادة حفر زمزم.

حين هم عبد المطلب أن يحفر زمزم لم يذهب إليها دون أن يعرض الأمر عَلَى قومه، فلما خذلوه وقعدوا بأنفسهم وبشبابهم عن أن يعاونوه، أخذ ولده الوحيد حينئذ معــه وهــو الحارث بن عبد المطلب، واصطحبَا معهما أدوات الحفر ومعالجة التربة الصــلبة، ونقــل التربة بعيدًا عن مكان الحفر.

وتركته قريش أول الأمر كَمَا علمت، فلما أوشكت متابعة العمل أن تــؤتى ثمارهــا،

وظهرت بوادر هَذِهِ الثمرة، كبر عبد المطلب مدفوعًا بانفعال الفرح الذى يجده الرجل حين يبدو له بوادر الثمرة.

حينئذٍ اجتمعت إليه قريش، وطلبت إليه أن يكونوا له شركاء فيما هو مقبل عليه من الشرف، فهو لاَ يجوز له أن يستقل به، فما هو إلا أثر من آثار إسماعيل عليه السلام، وهو جدهم جميعًا، لاَ يجوز أن ينفرد بآثاره واحد دون الآخرين.

ورفض عبد المطلب هذا المنطق، إذ إن هذا الشرف مرتبط بأمرين اختص الله بهما عبد المطلب دون سواه.

أما أحدهما: فهو قدرى، حيث شاء الله عز وجل أن يُطلع عبد المطلب وحده عَلَى مكان زمزم، ويوضحه له بالعلامات التى أُرِيَها فِى منامه، وكلفه إِذا مَا تعرف عَلَى مكان زمزم أن يعالج أمرها، ويزيل المعوقات الطبيعية عن أسباب جريانها.

وأما ثانيهما: فهو راجع لهذا الجهد المبذول الذى لم يشاركه فيه أحد سوى ولده الوحيد « الحارث بن عبد المطلب » الذى لم يرزقه الله بغيره من الذكور إِلَى هذا التاريخ.

وهذان الأمران من وجهة نظر عبد المطلب كفيلان بأن يختص هو وحده دون سواه بماء زمزم، كَمَا يختص هو وحده بما وجده فِى بئر زمزم من كنوز ومقتنيات.

ثم هو يرى أنه حين تخلص له هَذِهِ الملكية وهذا الاختصاص يكون فيهما جميعًا عَلَى رأس أمره، بحيث يقضى فيهما بقضائه بما يشاء وَعَلَى نحو مَا يريد.

واحتم الخلاف كَمَا رأينا آنفًا لاَ مجال فيه عندى إِلَى إضافة، ولا مجال فيه عندى إِلَى زيادة مقال.

لكن الذى أريد أن أقوله هنا هو حديث عَلَى غير لياقة الأحاديث، صدر عن بعض القرشيين بعبارة خشنة غليظة تعير عبد المطلب بما ليس له فيه حيلة.

وأقبح الأقوال التى تصدر عن الناس مَا تكون مشتملة عَلَى مَا يحرج المشاعر بالإشارة إِلَى أشياء موجودة فِى الآخرين، أو مشتملة عليها شخصياتهم دون أن يكون لهم فِى دفعها حيلة، ودون أن يكون لهم فِى تحقيقها شأن كثير أو قليل.

إن الذى أريد أن أضيفة هنا هو هذا القول الصادر عن بعض الشانئين من قريش، فِى

حلبة النقاش وَعَلَى رءوس الأشياء يعير عبد المطلب بما لاَ حيلة له فِى دفعه.

وسوف أخلى بينك وبين هذا الشانئ الذى لم يتوفر له قدر من اللياقة فِى القول، أو الأدب فِى الحديث، أو الكياسة فِى الخطاب.

والرجل الذى سأحدثك الآن عنه هو: « عدى بن نوفل بن عبد مناف والد المطعم ».

قال لعبد المطلب: ياعبد المطلب أستطيل علينا وأنت فذ لاَ ولد لك ؟!

فوقعت هَذِهِ الكلمة موقعها الأليم من نفس عبد المطلب، فأنزلت به من الحزن مالم يجد لنفسه منه فكاكًا.

وأنت تستطيع أن تتصور مقدار هذا الألم، لو قد تقمصت شخصية رجل فِى مجتمع يحكمه النظام القبلى أو العائلى، بحيث يستعين الواحد فيه عَلَى الآخرين بعزوته وذويه، وهذا الألم الذى أوقعه عدى بن نوفل بالرجل قد بدَا يقطر من فمه محملاً عَلَى كلمات كأنها بقايَا النار الملتهبة التى تنفصل عن مصدرها الأم فتحرق وتؤلم مَا تمسه أو من تمسه من الأشياء أو الناس.

قال عبد المطلب: أبالقلة تُعيرنّى ؟! فو الله لئن آتانى الله عشرة من الولد ذكورًا لأنحرنَّ أحدهم عند الكعبة.

وكلمات عبد المطلب عَلَى قصدها تحتوى أمرين:

أما الأول: فهو هذا الاستفهام الإنكارى، أو التعجب من أمر غير متوقع أحدث فِى النفس حصرة وأوقع فِى الفؤاد ألما

وسبب ذلك هو مَا لفت نظرك إليه من أنه يعيره بشىء أحل به من قدر الله لم يكن هو الذى أوقعه بنفسه، ولم يكن نتيجة من نتائج تقصير فِى عمل كان ينبغى عليه أن يتمه، أو تقاعسٍ عن إرادة كان ينبغى عليه أن يتلبس بها.

أَبِالْقِلَّةِ تُعَيِّرُنِى ؟!

وأنت خبير ولا شك أن مثل هَذِهِ المواقف يكون فيها المرء تؤلمه وتجرحه دون أن يجد من نفسه حيلة لدفعها أو إقصائها عنه.

وأما الثانى: فهو لاَ يعدو أن يكون رد فعل طبيعى لهذا الانفعال المصحوب بالألم،

المظلل بالمرارة، لكنه رد فعل محسوب لاَ دلالة فيه عَلَى شرك وهو لاَ يشتمل عَلَى شىء يعاب به صاحبه، إلا أن يكون فيه شىء من مخالفة لشريعة سماوية سيأتى بها حفيده وهى لم تصله بعد.

لقد عاد بالأمر كله إِلَى خالقه رب الكعبة البيت العتيق، ورب الناس وإلههم الــذى لاَ إله لهم سواه.

قال: فوالله لئن أتانى الله عشرة من الولد ذكورًا لأنحرن أحدهم عند الكعبة.

وَمَنْ يُشَابِهْ أَبَهُ فَمَا ظَلَمْ:

وأنا أحب الآن أن أخفف عنك ثقل مَا تستشعره من ألم الموقف الذى تسبب فيه قولــة رجل لاَ يرعى للأسرة إلاًّ ولا ذمة، وذلك حين قال عدى بن نوفل مَا قالــه مــن الكــلام الجارح لعبد المطلب شيخ القوم بلا منازع.

أنا أحب أن أخفف عنك ثقل مَا تجد بشىء من الاستطراد الذى يكون بالنسبة لى ولك بمثابة ترويحة ننتقل بعدها إِلَى مواصلة الحديث.

ورأيت أن يكون هذا الاستطراد متصلاً بابن عَدى واسمه « المطْعِم » فِى مواقفه مع الرسول ﷺ بعد مَا نحن فيه بسنوات طوال.

ولله فِى خلقه شئون؛ ذلك أنه من عجائب فعله أنه قد حمل الجينات والكروموزومات صفات الآباء والأجداد تورثها من بعدهم للأبناء والأحفاد لتظهر المشــاكلة بــين الأصــل والفرع صريحة واضحة لاَ تكاد تخفى عَلَى أحد.

ونحن لم نسمع بالمطعم بن عدى فِى مواقف تحسب له أو عليه وتميزه بين الرجــال بمميزات الخير أو الشر، إلا حين اقترن اسمه باسم رسول الله ﷺ ناصرًا ومعارضًا، وإلا بعد أن جرى اسمه عَلَى لسان رسول الله ﷺ مقرًا له بمعروفه، متناسيًا له أذاه.

وهذا كلام مجمل نحتاج معه إِلَى شىء من الإيضاح ليتحقق القصد الذى أردناه منــه فِى غاية من الظهور تريحنا وتريح القارئ من العناء.

فى عودة النبى ﷺ من الطائف أقام بوادى نخلة عَلَى مشارف مكة، وبات بــه ليلتــه وقرأ القرآن ليلا فانصرفت الجن إليه، ثم انقلبوا إِلَى قومهم دعاة إِلَى الله.

وقرر النبى ﷺ دخول مكة فناقشه زيد بن حارثة - مرافقه عَلَى الطريق - فِى أمر جَلل يخشى زيد عَلَى النبى ﷺ من نتيجة فعل هم مقدمون عليه.

قال زيد فيما ذكر الأموى وابن هشام [...كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك ؟ فقال: يَا زيد إن الله جاعل لما ترى فرَجا ومخرجا وإن الله مظهر دينه وناصر نبيه.

ثم انتهى إِلَى حراء وبعث عبد الله بن أرَيْقط إِلَى الأخنس بن شريق - وأسلم بعد ذلك فيما يقال - ليجيره فقال: أنا حليف والحليف لاَ يجير عَلَى الصريح.فبعث إِلَى سهيل بن عمرو - وأسلم بعد ذلك - فقال: إن بنى عامر بن لؤى لاَ تجير عَلَى بنى كعب.

فبعث إِلَى المطعم بن عدىّ - ومات كافرًا - فأجابه إِلَى ذلك وقال: نعم قل له فليأت.فرجع إليه فأخبره فدخل رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج الطعم ابن عدى وقد لبس سلاحه هو وبنوه ستة أو سبعة.

فقالوا لرسول الله ﷺ: طف.واحتبوا بحمائل سيوفهم بالمطاف فأقبل أبو سفيان إِلَى المطعِم بن عدى فقال: أمجير أم تابع ؟ قال: بل مجير.قال: إذن لاَ تُخفَر قد أجرنا من أجرت.فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف إِلَى بيته انصرفوا معه][1].

ولقد ظل النبى ﷺ حافظا لهذا الجيل لاَ ينساه للمطعم وهو يرجو أن يجد الفرصة المناسبة ليكافئه به كعادته مع كل إنسان يصنع له معروفا.

لكن مشيئة الله فِى الناس وَفِى الأحداث لاَ تتخلف، فَلَاحَق المطعم شىء من الخلق الموروث الذى يطابق خلق أبيه، فظهر عليه فِى موقف يشبه الموقف الذى كان أبوه فيه مع عبد المطلب جد النبى ﷺ.

وذلك أن رسول الله ﷺ حين أنعم الله عليه بالإسراء والمعراج وأراد أن يعلن ذلك للقوم فلما علم أنهم سيكذبونه جلس صبيحة الإسراء إِلَى جوار الكعبة يفكر فِى حاله وحال الناس لو أنه كاشفهم بما حدث له تلك الليلة وهو لاَ بد مكاشفهم.

وجاء أبو جهل يدفعه فضوله إِلَى سؤال النبى ﷺ عما إذا كان عنده جديد يحكيه له

---

(١) الهدى والرشاد ج ٢ - صـ ٥٧٩، ٥٨٠.

فأخبره النبى ﷺ أنه قد أسرى به ليلته فوجد أبو جهل بغيته وسأله وهو يخفى تعجبه إِلَى أين ؟ ! فقال: إِلَى بيت المقدس، فلم يشأ أن يناقشه طويلاً ظنًا منه أن النبى ﷺ قد يعود فيما قال وينكر مَا صرح به إذا حضره قومه.

ونادى أبو جهل الناس فأقبلوا من ناديهم فقال للنبى: حدثهم بما حدثنى به، فقال لهم النبى ﷺ: لقد أسرى بى الليلة، فلما سألوه إِلَى أين ؟ قال: إِلَى بيت المقدس، فهاج الناس هياجًا شديدًا وصار حالهم مَا بين مصفر ومصفق، وواضع يده عَلَى رأسه تعجبًا.

وكاتب هَذِه السطور لاَ يعجب من هؤلاء الناس ولا من صنيعهم، غير أن العجب يملأ إيهابه حين يسمع كلام المطعم بن عدى بن نوفل، قال عَلَى رءوس الأشهاد والجميع يسمعون ويرضى بعضهم عن قوله، والبعض الآخر كلامه لاَ يرضيهم ،لا يجد عندهم إستحسانا

ودونك كلامه بألفاظه فتأمله إن شئت:

قال المطعم بن عدى: [كل أمرك قبل اليوم كان أَمَمًا [١] غير قولك اليوم، أنا أشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إِلَى بيت المقدس مصعدًا شهرًا ومنحدرًا شهرًا، أتدعى أنت أنك أتيته فِى ليلة ؟ واللات والعزى لاَ أصدقك.

فقال أبو بكر لمطعم: بئس مَا قلت لابن أخيك، جبهته وكذبته، أما أنا فأشهد أنه صادق] [٢].

ومع هذا الكلام الفاحش الصادر عن المعطم للنبى ﷺ عَلَى رءوس الأشهاد فِى موقف بالغ الحساسية والدقة نظيره فِى المواقف مَا قال أبوه لجد النبى ﷺ من قبل.

مع هذا الموقف السيئ المغرق فِى السوء لم ينسَ النبى ﷺ فِى يوم الفرقان أن يعبر عن شيء من الامتنان ورعاية الجميل لما فعله معه المطعم يوم عودته من الطائف.

ذلك أن النبى ﷺ حين نظر إِلَى الأسرى من قريش واستقر الرأى فيهم عَلَى نحو مَا استقر قال النبى ﷺ كلاما مَا معناه: لو كان المطعم حيًا لأطلقت الأسرى له مكافأة عَلَى

---

(١) الأَمَمَ محركة: القريب واليسير والبين من الأمر.

(٢) السابق جـ ٣ صـ ١٣٢، ١٣٣.

جواره للنبى يوم العودة من الطائف.

عَوْدَةٌ بَعْدَ الاستِطْرَادِ:

الآن وقد ظهر لك بالمثال كفاءة قانون الوراثة وأثره البالغ والأكيد فِى نقل الأخـــلاق من الآباء والأجداد إِلَى الأبناء والأحفاد.

الآن وقد بدَا لى أنك قَدِ استرحت قليلاً أو كثيرًا من عناء الرحلة التى أصحبك فيهـــا عبر كتب التاريخ، نبحث هنا وهناك فِى بيداء يعز فيها الزاد وتكثر فيها المشقة.

قد ظهر لى أنك قَدِ استرحت حين أجلستك لحظات وطلبت إليك أن تتأمل عمل قانون الوراثة بين الآباء والأبناء.

وأنا لاَ يسعنى بعد إلا أن أعود بك إِلَى مَا كُنَّا فيه من الحديث عن الفعل ورد الفعـــل اللذين ظهرَا لَنَا من موقف عدى بن نوفل من عبد المطلب بن هاشم، وغضب عبد المطلب من هذا الموقف الذى دفعه إِلَى أن يلتزم بنذر لرب الكعبة لو رزقه عشـــرة مـــن الأبنـــاء يبلغون معه مبلغ الرجال، ويصيرون له عزوة يعاونونه ويمنعونه ليـــذبحن مـــنهم واحـــدًا شكرًا وقربانا.

ياله من نذر عجيب صدر عن صاحبه فِى ساعة غضب عَلَى أنه رد فعل لموقف أليم جارح.

والمرء قد يعذر فِى مثل هَذِهِ المواقف حين يكون الدافع للنذر غضب قد أثاره ســـبب شديد لاَ يقوى الإنسان عَلَى دفع آثاره عنه.

غير أن الأحداث ستظهر لك أن عبد المطلب لم يصطنع للتحلل من نذره شيئًا من هَذِهِ المعاذير، ولم يتعلل للتخلص من التزامه بشىء من هَذِهِ التعلات.

ألا إن الإيمان إن تمكن من القلوب كبرت معه النفوس وعظمت.

وأنت خبير ولا شك أن النفوس إذا كانت كبارًا تعبت فِى مرادها الأجسام.

حَدَثٌ وَفُقَهَاءُ:

ونحن حين نتأمل هذا النذر العجيب وموضوعه الذى هو أشد عجبًا، يجب علينـــا أن نتوقف لحظات لنعلم الفرق بين الالتزام بالنذر وتحمله، وبين الوفاء به وقضائه.

ونحن حين نقارن بين الموقفين نجد أن أسهلهما وأخفهما عَلَى النفس أن يتحمل الإنسان نذره، وأن أثقلهم وأشدهما عَلَى المرء الوفاء بهذا النذر.

أما عبد المطلب فسوف نحدثك قريبًا أنه كان صادقًا الصدق كله فِي تحمله لنذره، برغم أن ملابسات الموقف ربما تحمل غيره عَلَى أن يصطنع المعاذير.

وسترى أن عبد المطلب كان صادقا الصدق كله فِي الوفاء بهذا النذر لم يصبه الوهن ولم تحمله عاطفته عَلَى أن يتردد فِي نذره.

كل هذا سوف نحدثك عنه قريبًا إن شاء الله، وسوف نبسط القول فيه شيئًا من البسط يوافق المقام ويناسب الحال.

أما مَا أريد أن أحدثك عنه الآن فهو بعض الأشباه والنظائر التى وقعت فِي صدر الإسلام، وهى قليلة لاَ تستغرق أصابع اليد الواحدة.

وهى مع ندرتها تشير إِلَى طريقة الأوائل من المسلمين فِي التفكير وحرصهم عَلَى الفتوى فِي دين الله لاَ يجاوزون بها رضى الله عز وجل، فإن غاب عنهم إدراك الصواب توقفوا، وإن أدرك الصواب من هم أقل منهم سنا، ومن هو دونهم من حيث السابقة فِي الإسلام لاَ يمنعهم صغره، ولا تحملهم سابقتهم فِي الإسلام عليه أن يزوروا عن الأخذ عنه.

وهذه حادثة أقصها بين يديك تجلى هذا الموقف الذى يحسب للأوائل من المسلمين عَلَى ميزان التقدير والترجيح.

وما سأقصه بين يديك نقلاً عن الرواة له صلة بما نحن فيه من نذر عبد المطلب من حيث التحمل والأداء، ومن حيث موضوع النذر عَلَى السواء.

ولا خلاف بين الموقفين إلا أن يكون عبد المطلب فِي عصر الفترة وما سأقصه الآن بين يديك كان فِي عصر صاحبة رسول الله ﷺ.

ولك أن تنظر وتتأمل فيما أقصه عليك الآن فقد تدرك بنفسك مالم ندركه، فإن أدركت من الصواب مَا فتح الله لك فنحن مسلمون لك إن شاء ولا نعارضك فِي شىء منه.

حدث الطبرى عن يونس بن عبد الأعلى قال: [أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنا يونس

بن يزيد، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب، أنه أخبره أن امرأة نذرت أن تنحر ابنهـا عند الكعبة فِي أمر إن فعلته، ففعلت ذلك الأمر، فقدمت المدينـة لتسـتفتي عـن نـذرها، فجاءت عبد الله بن عمر، فقال لها عبد الله بن عمر: لاَ أعلم الله أمرَ فِي النذر إلا الوفـاء به، فقالت المرأة: افأنحر ابني ؟ قال ابن عمر: قد نها كم الله أن تقتلوا أنفسكم، فلم يزدهـا عبد الله بن عمر عَلَى ذلك، فجاءت عبد الله بن عباس فاستفته، فقال أمر الله بوفاء النذر – والنذر ديْن – ونها كم أن تقتلوا أنفسكم – وقد كان عبد المطلب بن هاشم نذر إن توافى له عشرة رهط، أن ينحر أحدهم، فلما توافى له عشرة، أقرع بينهم.أيهُـم ينحـر ؟ فطـارت القرعة عَلَى عبد الله بن عبد المطلب، وكان أحبَّ الناس إِلَى عبد المطلـب، فقـال عبـد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة عَلَى المائة من الإبل – فقال ابن عباس للمرأة: فأرى أن تنحرى مائة من الإبل مكـان ابنـك.فبلـغ الحديث مروان، وهو أمير المدينة، فقال: مَا أرى ابن عمر ولا ابن عباس أصابَا الفتيا؛ إنه لاَ نذر فِي معصية الله، استغفرى الله وتوبى إِلَى الله، وتصدقى واعملى مَا استطعت مـن الخير؛ فأما أن تنحرى ابنك فقد نهاك الله عن ذلك، فسُرَّ الناس بـذلك، وأعجـبهم قـولُ مروان، ورأوا أنه قد أصاب الفتيَا، فلم يزالوا يفتون بألا نَذرَ فِي معصية الله] [١].

يَوْمُ الْوَفَاءِ:

وهكذا تبين لَنَا أن الناذر يمر بموقفين أخفهما عليه وأهونهما عَلَى نفسه هذا التحمـل للنذر.

بمعنى أن الإنسان قد لاَ يجد شيئًا من العناء يُذكر إذا هو قال: لله علىَّ نذر أن أفعـل كذَا.

ولكن التَق الحقيقى، والمحك الذى يبين الصدق من الكذب، وميزان الشـعرة الـدقيق الذى يقاس إليه إيمان المرء بربه، وحرصه عَلَى طاعته، إنما هو فِي يوم الوفاء بما التزم به أمام خالقه.

وعبد المطلب بن هاشم قد تحمل يوم تجديد حفر زمزم نذرًا مؤداه: أنه لو رزقـه الله

---

(١) الطبرى تاريخ جـ ٢ صـ ٢٣٩، ٢٤٠.

« رب البيت » بعشرة من الأبناء يبلغون عنده مبلغ الرجال، وتكون لهم القدرة عَلَى الدفاع عنه، كَمَا تكون لهم القدرة عَلَى معاونته.لو رزقه الله عز وجل بعشرة من الأبناء لهم هَذِهِ الصفات، لينحرن واحدًا منهم قربانًا لرب البيت.

ولقد دار الفلك دورته، وتوالى الزمان عَلَى مَا يريد رب البيت، ومر عَلَى تجديد حفر زمزم ثلاثون سنة قمرية.

وهذه السنون كافية لكى تنسى أمثال عبد المطلب موقفه الذى ألم به، فدفعــه إِلَــى أن يتحمل نذرًا عجيبًا، لكن عاطفة الإيمان عجيبة، وذاكرة المؤمن فِى علاقتــه بربــه أكثــر عجبًا، فهى تحتفظ بكل أمر تكليفى يقوى الصلة بين المرء وبين ربه بمقدار مَا يكون فِــى صدره من سلامة الاعتقاد.

ثلاثون سنة قد مرت عَلَى عبد المطلب تفصل بين لحظته الآنية التى يعيشها، وبــين لحظة سابقة استودعها ذمة التاريخ ومعها محتواها من تحمل النذر الذى سبق أن حــدثناك عنه.

وَفِى لحظته الأنية وبعد ثلاثين عامًا جلس يتأمل واقعة، فإذا به يجد أنه قــد أصــبح حوله من البنين عشرة كلهم قادرون عَلَى أن يدافعوا عنه، وأن يردوا أعداءه لو قد جــاءه من الأعداء من يريدون النيل من مكانته الإجتماعية وكلهــم قــادرون عَلَــى مســاعدته ومعاونته فِى كل أمر يريد أن يقوم به، وَفِى كل عمل يريد أن ينجزه، بل إنهــم لقــادرون عَلَى أن يكفوه العمل، ويتحملوا عنه أمورًا كان فِى الماضى يتحتم عليه أن يُنَفِّذها بنفسه.

لقد تأمل عبد المطلب فِى بنيه يجيل نظره فيهم، ويردده بين كبيرهم وصغيرهم، وفيما بين الكبير والصغير.واذا به يجد أن أقربهم إِلَى نفسه، وأشدهم وسامة وجمالاً هو عبد الله بن عبد المطلب بن فاطمة المخزومية.

وهو لاَ يدرى لماذا يقع حب هذا الفتى من نفسه هذا الموقع الذى لم يبلغه أحــد مــن أبنائه، لاَ. ولا حتى الحارث الذى انفتحت عين عبد المطلب عليه أول مرة يرزقه الله فيها البنين.

ولقد كان الفتى إِلَى هذا الزمان هو أصغر ولد عبد المطلب.

وأقول إِلَى هذا الزمان لأوافق الواقع والتاريخ، ولأسير مع المؤرخين وكتاب السير فِى إجماع لاَ يقبل الاستثناء.

وأقول إِلَى هذا الزمان لأدفع وهمًا اشتملت عليه عبارة الطبرى وغيره حين حصروا أبناء عبد المطلب وأصدروا حكمًا عامًا، بأن الفتى عبد الله هو أصغر أبناء عبد المطلب عَلَى الإطلاق.

قال أبو جعفر: [اسم رسول الله ﷺ محمد، وهو ابن عبد الله بن عبد المطلب وكان عبد الله أبو رسول الله أصغر ولد أبيه وكان عبد الله والزبير وعبد مناف – وهو أبو طالب – بنو عبد المطلب لأم واحدة، وأمهم جميعًا فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم؛ حدثنا بذلك ابن حميد، قال: حدثنا سلمة بن الفضل، عن ابن إسحاق] [1].

ونحن قد حدثناك سلفًا حين كُنَّا نتحدث عن مولد الفتى عبد الله أنه واحد من عشرة ذكور لعبد المطلب.

ولم نكن نعنى وقتها بأن هؤلاء الذكور هم جميع من أنجبهم عبد المطلب وإنما مَا عنيناه هناك بأن هَذِهِ الأسماء العشرة تشبه أن تكون محل إجماع بين المؤرخين.

أما عدة أولاد عبد المطلب من الذكور عَلَى الحقيقة فهى موضع خلاف.

فمنهم من قال: إنهم ثلاثة عشر رجلاً، وزاد عَلَى مَا ذكرناه.

ومنهم من نقص بالعدد فجعله اثنى عشر أو احدى عشر.

ومنهم من اقتصر عَلَى عشرة.

ومنهم من أوصل العدد إِلَى تسعة فقط.

ونحن لاَ نستطيع أن نعتمد من هَذِهِ الآراء إلا هذا الرأى القائل بأن أولاد عبد المطلب من الذكور عند يوم الوفاء بالنذر قد بلغوا عشرة

وهذا يعنى أنه لاَ يجوز أن ندخل فيهم أبناء هالة بنت أهيب وهم: حمزة، والمقوم،

---

(١) الطبرى تاريخ جـ ٢ص ٢٣٩.
وتستقيم العبارة لو قال: أصغر ولد عبد المطلب لأمه.

وحجل « واسمه المغيرة ».

والمسألة علَى كل حال محل خلاف [1].

وهو خلاف منشأه الحقيقى أن مجتمع مكة فِى هذا الزمان لم يكن هو المجتمع الـذى يحتفظ بأسماء البنين والبنات علَى وجه الدقة، خاصة من مات منهم قبـل أن يـؤدى فِـى المجتمع دورًا بارزًا، أو أن ينجب من كان لهم هذا الدور.

وأنا لاَ أشك، وأنت لاَ ينبغى لك أن ترتاب فِى أن أبناء عبد المطلب قد بلغـوا يـوم الوفاء بالنذر عشرة من الرجال، وإلا لكان له مندوحة عن الوفاء بالنذر، حيث لم يسـتوفِ النذر شرطه.

جمع عبد المطلب أبناءه العشرة إليه، وجعل يجيل النظر فيهم وكلهم يدور فِى رأسـه سؤال واحد: لأى شيء جمعنا الشيخ، وما الذى يريده منا ؟ سؤال يـدور فِـى رءوسـهم جميعًا يفرضه الواقع ولا يفرضه الاتفاق والتشاور.وكاتب هَذِهِ السطور يعلم من اسـتقرائه لبنى عبد المطلب أن كل واحد منهم لاَ يحب أن يعصى لأبيه أمرًا، وكـل واحـد مـنهم يحرص أن يكون أطوع للشيخ من بنانه.

ولم يطل صمت الشيخ حتى تحدرت من فمه كلمات هادئة كهدوء الليل، يقـول فيهـا لأبنائه: تعلمون والله أنه كان لأبيكم نذر لو رزقه الله عشرة من الأبنـاء، لينحـرن مـنهم واحدًا قربانًا إِلَى ربه، وأنتم علَى أمركم فأشيروا علىّ.

أما أنا فأكاد ألمح سباقًا بين التاريخ وبين أبناء عبد المطلب.

أما التاريخ فهو لاَ يكاد يطمع فِى أن يجيب أبناء عبد المطلـب قبـل أن يستحضـر صورة جدهم الأعلى إسماعيل مع أبيه إبراهيم عليهما السلام، حين عرض علَى ولده مَـا عرضه عليه من الرؤيَا التى رآها فِى منامه أن يذبح ولده « ورؤيَا الأنبياء حق ».

---

(١) راجع نحو: نسب قريش – للزبيرى « ١٥٦ – ٢٣٦هـ » حققه وعلق عليه أ . ليفى بروفنسال ط – دار المعارف بمصر – صـ ١٧ وما بعدها – وسبل الهدى والرشاد – جـ ١١ صـ٥٤٥ وما بعدها – ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة، وسيرة بن هشام، حاشية جـ ١ صـ ١٤٠ وما بعدها، وغير ذلك.

يريد التاريخ أن يستحضر هَذِهِ الصورة من تلافيف الماضى، ومن بحار الظلمات التى تلف ذاكرة الزمن.

والتاريخ يريد أن يستحضر هَذِهِ الصورة لأنها هى المقصودة الآن لذاتها، حيث إن الإرادة الإلهية والعناية الربانية قد أرادت أن يكون زمان، ربط الماضى بالحاضر قد أشرق نوره، وأقبلت أسبابه.

أما أبناء عبد المطلب فكان شغلهم الشاغل أن يسابقوا الزمن وأن يسبقوا التاريخ وهم يجيبون عَلَى سؤال الشيخ، حتى لاَ يسجل التاريخ عليهم أنهم ترددوا فِى الإجابة، أو تلكؤا فِى قول مَا ينبغى أن يقولوه لأبيهم.

لقد أسرع القوم جميعًا وقالوا للشيخ: أنت عَلَى رأس أمرك فافعل مَا تشاء، فأمرك مطاع وطلبك مجاب، فماذا عساك أن تفعل ؟

وسكت الشيخ قليلاً ثم قال: هى القرعة لاَ محالة، ليقم كل واحد منكم إِلَى صاحب القداح ويأتى منه بقدح، ويكتب عليه اسمه، ثم نذهب إِلَى صاحب القداح يضرب عليها فأيكم خرج قدحه كان هو محل الوفاء بالنذر.

والله بالغ أمره.

فعل الشيخ مَا فعل وأمرهم جميعًا بأمره، وذهبوا جميعًا إِلَى القداح ورغبة الشيخ المكنونة فِى صدره التى يرجو من ربه أن يحققها له أن لاَ يخرج قدح عبد الله، فإن لم يخرج قدح عبد الله فقد أشوى [1].

هذا مَا كان يهواه الشيخ ولم يبح لغير ربه بما يهواه.

لقد ذهب الأبناء جميعًا إِلَى صاحب القداح يضرب بها، وذهب الشيخ إِلَى جوف الكعبة يناجى رب البيت العتيق، فِى لحظة مهيبة يترقب الجميع فيها من الذى سيخرج سهمه، ومن الذى سيختاره رب البيت ليكون محلاً للنذر ؟

أما الشيخ فما كان يعنيه هذا الترقب إلا من حيث إنه يريد أن يشوى قدح عبد الله

---

(١) أشوى بشين معجمة: قال فِى النهاية: يقال رَمى فأشوى إذا لم يصب المقْتَل.
وقال الخشُنى: يقال أشويت من الطعام إذا أبقيت منه.

فيخطئه، فإنه عَلَى أبيه لعزيز، وإنه من قلب الشيخ لقريب.

وما كان للقدر أن يكون عَلَى مشيئة الشيخ

وما كان للقدر أن يكون عند رغبة الأب العالية والحريصة عَلَى الإبقاء عَلَى هذا الفتى الوسيم.

ضرب صاحب الأقداح بالأقداح، وجاء الأمر عَلَى غير مَا يهوى الشيخ، إذ خرج قدح الفتى وأصبح هو المرشح للوفاء بالنذر، وحُسم الأمر.

إِلَى المَذْبَح:

لقد حسم الأمر هكذا حين خرج السهم عَلَى عبد الله، وما كان أبوه راغبًا فِي أن يخرج السهم عَلَى نحو مَا خرج عليه، ولكنها المقادير لاَ يُعتَرض عليها ولا تشمئز النفس من قضائها.

وَفِي شيء من الثبات النادر الذى لم نجد له نظيرًا إلا فِي الجد الأعلى إبراهيم عليه السلام، أخذ عبد المطلب شفرته بيمينه والفتى بيساره.

وَفِي شى من الصبر نادر المثال والهدوء قليل الشبيه، والطاعة التى لم نجد لها نظيرًا إلا فِي الجد الأعلى للفتى وأبيه وهو إسماعيل عليه السلام، انطلق الفتى فِي يد أبيه لاَ تعبر أعصابه وأطرافه عن رجفة، ولا تعبر أساريره عن غضب أو خوف، ولا تعبر خطوته ومشيته إلا عن هَذِهِ الثقة التى تحلى بها أبوه إسماعيل من قبل.

سار الشيخ والفتى إِلَى جواره وإدى الخطى ثابتى الجأش لاَ يلويان عَلَى شىء وهما يقصدان إِلَى أرض المسعى بين الصفا والمروة لينبشا فِي عمق التاريخ عن طرف آخر من الماضى يرتبطان به.

وما كان للفتى ولا لأبيه أن يقصدَا إِلَى إرضاء إساف ونائلة، فعقلهما أكبر من هذا الإرضاء السخيف المرذول، وجلالة حدث الذبح للوفاء بالنذر لاَ تناسب هذا النوع من الإرضاء السخيف الذى لاَ يعبر إلا عن سفه العقول.

شاء الله أن يذهب الشيخ وفتاه إِلَى حيث شفا الماضى ليبحثَا فيه عن طرف ربما أخطأ ذكراه الكثيرون، وانصرفوا عنه إِلَى محاولة إرضاء إساف أو نائلة عَلَى مَا لهما من سمعة

فِى التاريخ تملأ وجنات العذارى بالدم الأحمر من شدة الخجل، حين تسمع الواحدة منهن مجرد اسم إساف أو نائلة.

أخذ الشيخ فتاه فِى يده وأقبل إِلَى أرض المسعى، ليربط هذا الحاضر بماضى هاجر أم إسماعيل، حيث كانت تنطلق فِى هذا المكان وتتردد بين الصفا والمروة ذهابًا وإيابًا، بحثًا عن الماء الذى هو سبب الإبقاء عَلَى الحياة فلم تجد من هَذِهِ الأسباب شيئًا، ولم تجد للاتصال بهذه الأسباب سبيلا.

هنا وَفِى هَذِهِ المنطقة بين الصفا والمروة، تأكدت هاجر أنها فقدت الأسباب إِلَى إنقاذ ولدها، وأنها عَلَى أثره بعد وقت يطول أو يقصر سيؤدى فقدها إِلَى هَذِهِ الأسباب ذاتها إِلَى القضاء عليها.

وحين تأكدت هاجر أنها فاقدة الأسباب جميعها، ليس فِى يدها منها قليل أو كثير، تدخلت السماء فوجدت هاجر وهى فِى مكانها الأسباب التى تحافظ عَلَى نفسها وَعَلَى وليدها إن شئت، أو التى تحافظ بها عَلَى وليدها وَعَلَى نفسها إن أردت.

فى هذا المكان بين الصفا والمروة شهدت هاجر فقد أسباب الحياة إِلَى حد اليقين، كَمَا شهدت الحصول عليها بعد ذلك فِى رؤيَا العين.

إِلى هذا المكان ذهب الشيخ والفتى فِى يده عَلَى غير ترتيب منه ولا قصد، ولكنه القدر يفعل بالشيخ وفتاه مَا يشاء.

وما أن وصل الشيخ والفتى إِلَى مسرى هاجر حتى أضجع الفتى فِى ثبات نادر من الشيخ، وصبر لم نعلم له بعد مَا ذكرت لك نظيرًا من الفتى.

هَيَاجُ الْعَوَاطِفِ:

وما هو إلا أن رفع الشيخ شفرته ليذبح الفتى، حتى انطلق العباس كأنه السهم إِلَى الشيخ عَلَى غير عادة الأبناء مع آبائهم فِى مجتمع مكة، فجذب الفتى إليه ينأى به عن يد أبيه القابضة عَلَى شفرة الذبح، فاصطدمت هَذِهِ الشفرة بوجه الفتى لتترك فيه أثرًا كأنه الخاتم، بقى فِى وجه عبد الله إِلَى أن مات أثر شرف يذكره به كل من رآه، ويذكر معه هذا الحدث الجليل.

وهاجت قريش هياجًا شديدًا، وكان سبب هياجها هو الحرص علَى الفتى بالدرجة الثانية.

أما حرصها الأول فهو خوفها أن يصير هذا النذر والوفاء به سنة فِى مجتمع مكة، بحيث كلما مر بالإنسان موقف يغضبه، وألجأه الغضب إلَى النذر بذبح ولده وجب عليه الوفاء، وإلا عيره الناس وسُجلت معرته فِى التاريخ.

خرجت قريش فِى هياج بالغ إلَى عبد المطلب لتقول له: ماذا تريد يَا عبد المطلب ؟ قال: أذبحه، فقالت له قريش وبنوه: والله لاَ تذبحه أبدًا حتى تُعْذِر فيه، لئن فعلتَ هذا لاَ يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه، فما بقاء الناس علَى هذا ؟!

أما أخوال الفتى فكان دافعهم إلَى الهياج وشيجة القربى، فأمه فاطمة المخزومية لها مكانتها بين القوم من قريش، ولها مكانتها بين القوم من بنى مخزوم.

ولقد أقبل إلَى عبد المطلب أحد وجهاء بنى مخزوم تصادف وجوده مع قريش فِى ناديهم وهو: المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فقال له: والله لاَ تذبحه أبدًا حتى تُعْذِر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه.

وعقبت قريش علَى كلام المغيرة بصوت واحد قائلة لعبد المطلب: لاَ تفعل.

جِلْسَةٌ حَزِينَةٌ:

ورمى الشيخ بالسكين من يده وجلس حزين الفؤاد مكلوم النفس، كأنما هو رجل قد هد جسمه ثِقَل شديد وعمل شاق مضن.

وما هو بالثقل الذى وقع علَى البدن، وما هو بالعمل المضنى الذى لاَ يطيقه الجسم، ولكنها شحنة العواطف المختلفة والمتقابلة فِى نفس الشيخ، يقاوم بعضها بعضًا، وينال بعضها بقوته بأس القوه الأخرى فِى حرب دروس، ربما لاَ يطيقها جسم الشيخ ولا تتحملها بنيته.

فعاطفة الأبوة عاطفة جياشة فِى نفس كل أب، وهى فِى نفس الشيخ أشد.

فكل أبٍ من الآباء لم يعد له فِى قوس الحياة منزع يريد أن يحافظ علَى امتداد عمره فِى أبنائه، فإذا مَا خير بين حياته وحياة ولده قال بغير تردد: إن حياتى فانية، وإن وقتى

فيها لم يعد طويلا، وقد حملت اسمى من بعدى، وقد وضعت مَا أمتلكه من تجربة وآثار فِى التاريخ عَلَى كتف أبنائى يطورونها باسمى واسمهم، ويدفعون بها إِلَى الأمام شرفًا لى ولهم.

هذه عاطفة الأبوة فِى جيشانها عَلَى نحو مَا يصوره الواقع، وَعَلَى نحو مَا يدركه علماء الاجتماع وعلماء النفس عَلَى السواء.

ويزيد فِى جيشان هَذِهِ العاطفة مَا يكون عليه الولد من صفات تزيد فِى ارتباط الوالد به، من نحو أن يكون الولد وسيمًا جميل الخِلقة يفوح نور الجمال من وجهه، ويظهر التناسق باديًا عَلَى خِلقته، ومن نحو مَا يظهر عَلَى الولد من جمال الخُلق فلا يعصى لأبيه أمرًا، ولا يسبقه بقول أو فعل، ولا يصدر عنه من الأفعال فِى مجتمعه مَا يجعل الناس يلومون أباه فِى تربيته، ومن نحو مَا يظهر عَلَى الولد من نجابة مظاهرها حسن الإدراك للمواقف والأشياء، وحسن التقدير للأحوال والمناسبات.

وما كان عبد الله بن عبد المطلب هذا الفتى الناشئ ينقصه شىء من هذا أو ذاك.

وماكان الفتى ليأخذ من هذا أو ذاك بطرف يسير.

وهذا هو الذى جعل أباه يحبه حبًا جمًا، ويتمنى لو أشواه، السهم فِى يوم الاقتراع.

عاطفة الأبوة المغلفة بعاطفة الحب الجياشة وقفت فِى جانب من جوانب نفس الشيخ، متحفزة شاهرة سلاحها وهى ترغى وتزبد، وتتهدد وتتوعد كل عاطفة أخرى تريد أن تنال من الفتى أو أن تصيبه بالأذى.

وعلى الجانب الآخر عاطفة التدين، أو إن شئت فقل: غريزة التدين وفطرته التى مَا خلق الله إنسانًا إلا وهو مفطور عليها: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠].

عاطفة التدين أو غريزته وقفت فِى جانب آخر من جوانب الشيخ، وهى عاطفة تستمد قوتها من وجود الله البارئ لكل نفس، الخالق لكل موجود.

وهذه العاطفة أو تلك الغريزة ارتباطها أولاً وأخيرًا بالله عزوجل خضوعًا له، وطاعة لأوامره، واجتنابًا لنواهيه.

والشيخ يتطلع إِلَى الماضى بعين قلبه وينظر إِلَى تجارب الناس بنور فؤاده، فيجد أنــه مَا من موقف رشيد مر بإنسان سوى إلا وكان لكلمة العاطفة الدينيــة أو غريــزة التــدين الكلمة العليَا.

فوقف الشيخ إِلَى جوار العاطفة الدينية ينصرها عَلَى عاطفة الأبوة المغلفــة بالحــب الجارفَ.

ولا تظن أن هَذِهِ معركة سهلة يحسمها قرار هزيل، لاَ. بل هى معركة شرسة تَحْدُث فِى النفس الإنسانية فتتسبب فِى هدم الجسم وإضفاء الإعياء عليه.

فى لحظة من لحظات انقسام النفس إِلَى معسكرين من العواطف فِــى حالــة حــرب ضروس، لمح الشيخ بارقة انتصار لغريزة التدين عَلَى مَا سواها فقــام إليهــا يســتثمرها استثمارًا يرفع عنه عار التقاعس فِى تلبية أمر ربه الذى لم يلزمه به، وقد ألزم هــو بــه نفسه، وجمع إليه كل قوته فِى لحظة لاَ يجوز له أن يفوتها عَلَى نفسه، ثم لاَ عليه بعد ذلك أن يلعق جراحه، أو يستسلم لحزن عميق.

وهذا مَا كان.

نشط الشيخ المكدود وَفِى يمناه شفرته، وَفِى يسراه الفتى الحبيب، ووصل هو والفتــى إِلَى ملتقى التاريخ حاضره بماضيه إِلَى أرض المسعى.

ولم تبق إلا لحظات حتى ينتهى هذا الصراع النفسى الرهيب بوفــاء الشــيخ لنــذره، وقضائه لتفثه، وانتهائه من مثيرات همه وحزنه، ثم يستقبل بعد ذلك أحداثًا من لون جديد، أو هواجس من هواجس النفس قليلة أو كثيرة تحمل إليه صورة الفتى الــذبيح مــن حــين لآخر فِى يقظة أو منام.

قام الشيخ بإضجاع الفتى، وبتنحية الموانع عن مناطق الذبح وتناول الشــفرة ليــذبح حتى يريح نفسه ويريح الفتى من عناء مَا يجد، ومن عناء مَا يجد الفتى.

ولكن الأمر لم يخلص له، حيث نزع الفتى من تحت رجل أبيه العبــاس بــن عبــد المطلب أخو الفتى لأبيه.

وأقبلت قريش، وَعَلَى رأسهم إخوة الفتى وأخواله فِى صياح وهياج شديدين.

أما الفتى فقد جلس إِلَى جوار إخوته وبين ضجيج النرم، وقد انتقع لونه لما رأى من نهاية الحياة الدنيَا ووداعه لها، وإِلى مَا رأى من استقباله الحياة الآخرة فِى أول لقاء بها.

وهو قد رأى ذلك وذاك عَلَى مذبح فِى لقاء ماضى التاريخ بحاضره.

وأما الشيخ فقد تنحى جانبًا وهو فِى حالة من الأسى والحزن عَلَى مَا فاته، وَعَلَى مَا فوته عليه الناس من لحظة ربما كانت تخلصه من مسئوليات التزام قد ألزم به نفسه بين يدى ربه منذ ثلاثين عاما.

ولكن الشيخ مع حزنه يشعر بشيء من الرجفة والخوف، فهو يخشى أنه لم يعد يتاح له هَذِهِ البارقة من النصر التى تهيأت فِى نفسه لعاطفة التدين عَلَى عاطفة الأبوة، وَفِى هَذِهِ الحال سيبقى الشيخ يئن تحت أثر الضعف الشديد الناتج من غلبة عاطفة الأبوة عَلَى عاطفة التدين.

ومع كل هذا فإن الشيخ يرى أنه ربما تلوح له بارقة أمل فيها يرضى الرب عن عبده، ويهيئ له من الأسباب مَا ينجى بها ولده، ويعفيه الرب عز وجل من تبعة نذره.

عَرْضٌ حَسَنٌ وَفِعْلٌ رَشِيدٌ:

هكذا بان لَنَا الشيخ وظهرت حالته.

وهكذا كان مجلس الفتى، وكانت سمته البادية عليه حين نجا من الذبح.

وهكذا كان حال قريش بما تضمه من انتماءات وما تقتسمه من أغراض.

والجميع مغرق فِى دهشته لاَ يدرى ماذا يفعل ؟

فإذا كان بعضهم تأخذه الآصرة وانفعالاتها المشروعة إِلَى حد من الانفعال العاطفى البالغ، فإن بعضهم الآخر يأخذه الخوف من المستقبل أن تصير سنة ذبح الأبناء عادة متبعة فِى النذور، تسيطر عَلَى المجتمع المكى دون أن يملك أفراده منها فكاكًا.

إنه لأمر جلل، وإنه لأمر عصيب.

وبينما الناس آخذون رءوسهم بأيديهم فِى حالة من الاندهاش العالى، إذ اندفع رجل منهم يقول: إن هناك عرافة فِى أرض الحجاز تقطن جهة الشمال من البلد الحرام، ولعلها الآن تقيم فِى يثرب مع أقربائها من آل يهود ولعلها تكون الآن قد ذهبت صُعُدًا قاصدة

شمال المدينة حتى يستقر بها المقام فِي فدك أو خيبر أو وادى القرى، لتلتقى هناك بالقـادة الدينيين والحكماء من اليهود من أسرة بنى الحقيق، أو من غير أسرة بنى الحقيق.

إن هناك عرافة لها تابع وهى قادرة بمساعدة تابعها عَلَى أن تفصل فِي مثل هذا الأمر المحير، فما الذى يمنعنا أن نذهب إليها ونستفتيها فِي أمر الشيخ وَفِي أمر فتاه ؟.

وما أن صافحت هَذِهِ الكلمات أذن القوم حتى قالوا لعبد المطلب شيخ مكة، يجـب أن تنصت إِلَى مَا سمعت، وأن نذهب جميعًا إِلَى هَذِهِ العرافة، وأن تعرض عليهـا مسـألتك، وتفتيك بما تشاء أو مَا يشاء تابعها، ثم أنت بعد ذلك عَلَى رأس أمرك.

وما كان أمام الشيخ المنهك القوى، المكلوم الفؤاد، المكتئب الـنفس، إلا أن يسـتجيب إِلَى مَا قاله القوم، فوقعت استجابة الشيخ من قلوب أهل مكة موقعًا حسنًا.

ثم تنادى القوم أن يهب ذوو أسنانهم بالرحيل، وأن يجمعوا معهم زاد الطريق.

وكانت الاستجابة فوق مَا يتصور القوم، حيث خرج كل من يهمه الأمر، فمن كانـت تربطه بالفتى آصرة القربى من إخوة وأخوال عزموا عَلَى الرحيل تلبية لهذه العاطفة.

ومن كان من القوم يخشى أن يصير هذا الدرب من النذر والوفاء به سـنة متبعـة، وعادة قد تتأصل فِي المجتمع القرشى، خرج مع الخارجين خوفًا عَلَى هذا المجتمع الـذى هو عضو منه، وجزء لاَ يتجزأ من تركيبه.

ومن كان عَلَى شاكلة الشيخ من القرناء والأتراب خرجوا تأخذهم العاطفة بالشيخ إِلَى حد أنهم يحزنون لحزنه ويألمون لألمه.

أما أنا فلا أكاد أتخيل مكة بعد يوم من هذا الاقتراح أو يومين، إلا وقد خلت من كثير من سكانها، حيث خرجوا يصحبون الشيخ وفتاه إِلَى هذا المقصد الذى قصـدوه جميعًـا، صاعدين إِلَى الشمال آمين يثرب، ومستدبرين البيت الحرام.

ومكة من ورائهم تصبح وتمسى غارقة فِي صمت حزين، وَفِي هدوء مترقب، وَفِـي أمل يشرئب بالأعناق إِلَى آماد قريبة فِي المستقبل، حبلى بحدث وخبر لم يقف الناس عَلَى نوعيهما بعد.

وتمضى مكة لياليها وأيامها فِي هذا السكون لاَ تفرق بين ليل ونهار، فهى لاَ تخـف

لحدث من الأحداث مفرح هذا الحدث أو مؤلم.

وذهب القوم بجملتهم حتى وصلوا إِلَى يثرب عَلَى ترقب شديد للقاء هَذِهِ الكاهنة، وَعلَى تعلق شديد بما ستقوله هَذِهِ الكاهنة.

وظن القوم أنهم سيستريحون قليلاً أو كثيرًا عَلَى أرض يثرب، وأن وصولهم إِلَى يثرب إنما هو آخر المطاف فِي رحلة شديدة العناء المادى، وشديدة العناء النفسى عَلَى السواء

وما أن وصلوا إِلَى يثرب وسألوا عن الكاهنة حتى قيل لهم إنها قَدِ ارتحلت إِلَى خيبر، ولا نعرف متى إيابها مرة أخرى إِلَى يثرب، فإن كان لكم بها حاجة فما عليكم إلا أن تواصلوا المسير إِلَى خيبر، وهو مسير ليس بالهين، فما زالت المفاز تفصل بينهم وبين أرض خيبر، وعليهم أن يعدوا لذلك العدة من جديد.

والذى يظهر أن القوم قد أخذهم هذا النبأ مأخذه، وأثر فيهم أثره الذى لاَ يخفف من وطأته إلا مَا يترقبه القوم من نبأ عظيم، يفرج كربتهم وكربة الشيخ والفتى جميعًا، فيُعِيد إِلَى مكة بَسْمتها وإلى الديار حول البيت الحرام بهجتها وسرورها.

لم يكن أمام القوم إلا أن يجّدوا فِي الرحيل، ولم يكن أمام أهل مكة القابعين فيها إلا أن يمعنوا فِي الصبر، ويطيلوا فِي قناته.

وقطع القوم المفاوز حتى انتهى بهم المسير إِلَى أرض خيبر وقالوا للشيخ: هَذِهِ هى العرافة أو الكاهنة، فقص عليها خبرك وخبر الفتى، لعلنا جميعًا نجد عندها مَا نطلبه وما نريده وما نبتغيه.

وبدأ الشيخ يقص قصة نذره، والعرافة تنصت إليه باهتمام شديد.

فلما انتهى الشيخ من عرضه قالت له ولهم: قوموا عنى الآن حتى يأتينى تابعى وأقلب رأيى وموعدى وموعدكم من الغد.

بَارِقَةُ أَمَلٍ:

وانصرف القوم عنها وأمضوا يومهم هذا وليلتهم تلك فِي انتظار وترقب شديدين.

وما أثقل النهار، وما أثقل الليل، حين يكون الليل والنهار، هما المعوق الحقيقى عن

معرفة خبر منتظر، أو أمل منشود.

أمضى القوم ليلتهم ونهارهم واستشعروا ثقل النهار والليل، ثم جاء الغد، وقصد القوم إِلَى بيت العرافة يقدّمون رجلاً ويؤخرون أخرى، فإذا مَا شدهم الأمل إِلَى خبر مفرح اندفعوا بخطى نشطة إِلَى بيت العرافة، وإذا مَا تصوروا الخبر المؤلم قعدت بهم خطاهم وتثاقلتَ بهم أرجلهم.

وسواء كانت الخطى نشطة أو متثاقلة فقد وصل الجميع إِلَى مجلس العرافة.

وابتدرتهم العرافة بالحديث قائلة: لقد جاءنى تابعى ووجدت لكم المخرج فكم الدية فيكم ؟، فأجاب القوم: عشرة من الإبل، فقالت لهم عليكم أن تأتوا بعشرة من الإبل وتقرعوا بينها وبين الفتى، فإن خرجت الأقداح عليها فاذبحوها فداء للفتى، وإلا فزيدوها عشرًا واضربوا عليها وَعَلَى الفتى بالقداح حتى يرضى ربكم وينجو فتاكم، ولا يكون ذلك إلا بخروج السهم عَلَى الإبل.

وتهلل وجه القوم وتنهد الشيخ تنهيدة ملأت صدره بالهواء الذى لم يمتلئ به صدره من أيام وليال طوال، وما ذلك إلا لأن الشيخ كان يمتلئ صدره بهموم النفس وصخب المشاعر وآثار آلام الفؤاد، أما وقد أصبح هناك بارقة أمل، فلا عَلَى الشيخ من بأس الآن أن يتنفس الهواء، وأن يملأ صدره به عله يعيد إليه شيئًا من النشاط، وعله يمنحه شيئًا من الراحة.

وودع القوم العرافة شاكرين وممتنين، وأخذت بهم وجهتهم إِلَى مكة آمين البيت الحرام.

وقطعوا المفاوز تلو المفاوز حتى أشرفوا عَلَى مكة، وجاءوها من أعلاها فاستقبلهم الناس وهم لاَ يعلمون مَا الذى جاءوا به من نبأ العرافة الذى سيتحدد عَلَى آثاره مصير الفتى.

النَّجَاةُ الثَّانِيَةُ:

وما أن وصل الناس إِلَى أرض الحرم، وما أن أشرف الناس عَلَى البيت العتيق حتى أقبل بعضهم بعشرة من الإبل وهتف بعضهم بضارب القداح ليباشر إجراء القرعة عَلَى

الفتى والإبل.

واستمهلهم الشيخ قليلاً ريثما يستعد لمناجاة ربه في جوف البيت الحرام، وطلب إلى ضارب القداح أن لا يضرب بالقداح حتى يراه قد استغرق في مناجاة ربه، وتسللت إليه كلماته وهو يهتف باسم ذاته مكررًا الاستغاثة به.

واستعد الشيخ للوقوف بين يدى الله، واستعد ضارب القداح لضرب القداح، فضرب بالقداح والشيخ يهتف بربه، فخرجت القرعة عَلَى الفتى، فزادوا الإبل عشرًا، وضرب عليها وَعَلَى الفتى والشيخ منهمك في مناجاته لربه، مستغرق في طلب العفو منه.

وظل الناس يزيدون الإبل عشرة بعد عشرة، ويقرعون بينها وبين الفتى.

وظل الشيخ يهتف بربه إِلَى أن بلغت الإبل مائة، وعندها خرجت القرعة عَلَى الإبل، فتصايح القوم بالحمد والثناء عَلَى الله عز وجل، ثم نادوا يَا عبد المطلب قد رضى ربك، ونجا ولدك.

ولو قد كان بدل عبد المطلب رجلاً آخر لتلهفت نفسه إِلَى الثمرة حين لاح بدوها.

أما عبد المطلب فهو ليس بهذا الرجل الذى هو من هذا الصنف، فهو لاَ يلتقط ثمرة الإيمان إلا إذا كانت بادية النضج، قد أخذت وقتها المتاح لها حتى أصبحت شهية الطعم، لها حلاوة في القلب، وحتى أصبحت جميلة المنظر لها حلاوة في العيون، وحتى أصبحت جميلة الرنين لها أثرها عَلَى الآذان.

يَا عبد المطلب قد رضى ربك ونجا ولدك.

قال عبد المطلب:لا والله حتى نضرب عليه وَعَلَى الإبل ثلاثًا لنتأكد يقينًا من رضى الرب ونجاة الفتى.

وكان مَا أراد الشيخ، فضربوا بالقداح ثلاثًا.

وكان مَا أراد الله فخرجت القداح عَلَى الإبل.

حينئذ تأكد عبد المطلب من نجاة الفتى ورضى الرب، فأمر بذبح الإبل وتركها في الحرم، وأمر ألا يصدوا عنها إنسانًا أو طيرًا لاَ ولا حتى السباع.

وتبادل الناس التهنئة بنجاة الفتى وفرحت مكة رجالها ونساؤها بنجاة عبد الله.

وفرح التاريخ والمؤرخون حيث ارتبط عندهم الماضى بالحاضر، وحيث اتصل الزمان أوله بآخره.

أما أنا وأنت فإنه ينبغى أن لاَ نضيع هذا الموقف، وأن لاَ نترك هَذِهِ الفرصة تمر دون أن أنبهك أن الفتى بنجاته هَذِهِ المرة من الذبح قد سجل الله له نوعين من النجاة.

فأنت خبير ولا شك أن الفتى قد نجا باسمه من ظلال الشرك عَلَى نحو مَا حدثتك سلفًا، وأنت خبير ولا شك بأن الفتى قد نجا هَذِهِ المرة بذاته من الذبح.

لكنه فِى نجاته الأولى والثانية قد علم التاريخ أن العبودية لله وحده، وقد علم التاريخ أن الزمان ينبغى أن يبقى موصولاً لاَ ينفك أوله عن آخره، ولا آخره عن أوله.

دَعْوَةٌ لِلتَّأَمُّلِ:

هذا وإنه ليجب علىّ أن أقف عَلَى رأس هَذِهِ المرحلة من حياة الفتى وقفة أسمح لنفسى فيها أن تتأمل، ولروحى فيها أن تأخذ قسطًا من الراحة والمتعة.

ولقد تأملت نجاة الفتى الثانية فوجدت أن القدر لم يشأ أن ينجى الفتى بفدية تعارف عليها الرجال، بحيث يدفعونها لمن قتل خطأ فِى جلسات الصلح والتصافى بين المتشاحنين.

لقد رأى العرب أن تكون فدية الرجل المحارب والفتى المقدام عشرة من الإبل لاَ يزيدون عليها، أما الفتى فإن الله لم يرضَ لفديته أن تكون أقل من المائة، لأن الفتى فِى أقل القليل يوزن بعشرة من قريش وهم أشراف العرب.

ولولا رحمة الله عز وجل بالشيخ وآله لكانت فدية الفتى أضعاف أضعاف مَا ذبحه الشيخ يفتدى به الفتى.

وهناك شىء آخر يلمحه العلماء ولا يغضون الطرف عنه.

وما ذلك إلا لأن الفدية بعد ذلك التاريخ قد تغيرت من عشرة إِلَى مائة.

وَفِى ذلك إن كنت تريد أن تتأمل إشارة خفية إِلَى أن الفتى سيكون منه الإنسان الكامل، الذى يرد عَلَى الإنسانية كرامتها، ويعطى أبناء آدم حقوقهم أفرادًا وجماعات.

قال الزهرى: وكان عبد المطلب أول من سن دية النفس مائة من الإبل، فجرت فِى

قريش والعرب، وأقرها رسول الله ﷺ.

ومن حقى أن أمعن فِى تأملى فِى نجاة الفتى من الذبح مَا وسعنى التأمل، لاَ يصدنى عن ذلك إنشغالى بفكرة أخرى، أو انجذابى لحدث أو شخص أو شىء من الأشياء.

وإذا كنت معى فِى تأملى فسوف تعود ولا شك بانطباع مؤداه أن الفتى بعد حادثة الذبح صار هذا الذبح له لقب شرف لاَ يفارقه، كَمَا أن لقب الذبح صار لإسماعيل لقبًا يلتصق به لاَ يفارقه.

وللفتى أن يفتخر بأنه الذبيح، ولمن تربطهم به وشيجة القربى من القرشيين أن يفتخر الواحد منهم بأنه ابن الذبيحين.

أخرج الحاكم وابن جرير والأموى عن معاوية رضى الله عنه أن أعرابيًّا قال للنبى ﷺ: يَا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه.

فقيل لمعاوية: من الذبيحان ؟ قال: إسماعيل وعبد الله [1].

---

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ٢١٧/١.

ومع صغر سن الفتى، ومع أنه لم يعش فِي هَذِهِ الدنيَا إلا قليلاً من الزمن ريثما يؤدى وظيفته التى خلقه الله من أجلها.

مع هذا كله فإن التاريخ قد وضع الفتى عَلَى مقياس الخلق، ليعلم الدرجة الحقيقية التى كان عليها الفتى، والتى يجب عَلَى الناس أن يحفظوها له.

وأول مَا يوضع الإنسان عليه فِي المجتمع المكى من مقاييس الخلق شيئان:

أحدهما: يتصل بالعفة.

وثانيهما: يتصل ببر الوالدين، ودرجة ارتباط الإنسان الفرد بقبيلته وعشيرته.

أما عبد الله فقد حظى من هذين الأمرين بقسط وافر، وفاز مِنْهُمَا بالقدح المعلى حتى تميز بين أترابه وقرنائه.

أما أنه كان بارًا بوالديه، مطيعًا لهما، فإنك لاَ تحتاج منى إِلَى دليل فوق مَا ظهر لَنَا جميعًا من طاعة الفتى لأبيه حين عرض عليه أن يذبحه وفاءً لنذره.

وأنت خبير ولا شك بأن الفتى لن يعود عليه شىء ذو بال، إذا هو قدم رقبته للذبح، سوى هَذِهِ الدرجة العالية من الأخلاق المتمثلة فِي طاعته لأبيه، وهى درجة لاَ يستهان بها عَلَى مقياس التقدير، إلا أننى أحدثك عما عساه يعود عَلَى الفتى من منفعة مادية يتطلبها سنه، أو تخلص من تبعة يمكن أن تلاحقه أو يلاحقه الناس بها إذا لم يتمكن من أدائها أو التخلص منها.

إن تقديم الفتى للذبح عائدة منفعته بالدرجة الأولى إِلَى شيخ قريش، وإلى العهدة التى لزمت ذمته بعد النذر الذى تحمله فِي ساعة غضب.

وكان من الممكن أن يتأبى الفتى عَلَى والده ويرفض الذبح، ثم لاَ عليه بعد ذلك أن يقهره الشيخ عَلَى الوفاء بالنذر، ويعينه عَلَى هذا القهر إخوته فيذبح حتف أنفه.

إننا لاَ نملك دليلاً أقوى من هذا الدليل لنقدمه بين يدى مسألة البر بالوالدين والطاعة لأوامرهما.

وأى دليل أقوى من أن يقدم الفتى نفسه وروحه فداءً لذمة أبيه التى تعلقت بنذره أن

يذبح أحد أبنائه لاَ عَلَى التعيين ؟!

وأى دليل أقوى من أن يقدم الفتى نفسه فداءً لذمة أبيه، ونيابة عن إخوته جميعًا، حيث لم يعينه للذبح إلا هَذِهِ القرعة التى يمكن مخالفتها عَلَى نحو مَا خولفت به بـرأى العرافـة قاطنة خيبر.

إنها طاعة ولا شك تحسب للفتى فتعلى من قيمته، خاصة إذا علمنا أن الفتى قد قـدم للذبح كَمَا قدم جده إسماعيل من قبل وهو فِى سن الشباب يستقبله لأول عهده به، والـدنيَا تفتح له ذراعيها، والمستقبل يدعوه إليها من هنا ومن هناك.

ولم يكن هو بالشاب الراغب عن الدنيَا لقبح فيه، أو لعجز عن العمـل أو لأن أبويـه يرغبان عنه، أو لأنه محل الزهد فيه من إخوته وأقربائه، أو من أترابه وقرنائه.

لم يكن الفتى بهذا الذى ألم به المرض النفسى فضاق بالحياة وضـاقت بـه الحيـاة، فوجدها فرصة سانحة، وطريقة مثلى يتخلص بها من حياته، بعيدًا عـن لـوم اللائمـين، واستجابة لشنآن الشانئين.

لا.بل إن الفتى قد قدم حياته فداءً لذمة أبيه ونيابة عن إخوته طاعـة للشـيخ وبـرًا بالوالد، غير مبالٍ باستقبال الحياة له، وإعجاب الناس به، وانتظار قومه لجنى الثمرة التـى ستأتى عَلَى يديه.

هذا وإنا قد حدثناك هذا الحديث ونحن نعلم أنك واجد فيما نستقبله معك من حديث مَا يؤكد هَذِهِ الطاعة للوالدين، وما يؤكد بره بأبيه خاصة.

أما إذا أردنا أن نتحدث حول عفة الفتى، فإنه يجب علينا أن نتصـور أولاً المجتمـع المكى ومدى اتساع صدره لارتكاب الفاحشة وسهولة العلاقة بين الجنسين.

والتاريخ وكتب السير ورجال الحديث يؤكدون جميعًا أن المجتمع المكى كان يتساهل فِى علاقات الرجال بالنساء إِلَى حد كبير، فلقد تعددت فيه نظم النكاح تعددًا يبين عن هـذا التساهل ويؤكد مَا ادعيناه منه.

فلقد حدثت أم المؤمنين عائشة أن المكيين كانوا يقبلـون أن يقـوم الرجـل ضـعيف الفحولة، أو ضعيف البنية، أو الذى لم يحظ بقسط وافر من الجمـال وكمـال الشخصـية،

بإرسال زوجته خلف من يرى فيه بغيته من الصفات، ويأمرها أن تستبضع منه، فإذا مَا حملت من هذا الاستبضاع وولدت الولد الذى فيه هَذِهِ الصفات التى يرغب فيها نسبه لنفسه دون غضاضة، ودون أن يأبى مجتمعه فعله وصنيعته.

والمجتمع المكى كان يتسع صدره إِلَى أن تقوم بعض النسوة برفع راية عَلَى بيتها يراها الناظرون فيعلمون أن هَذِهِ قد أباحت نفسها بالأجر لكل راغب، فإن حملت هَذِهِ المرأة أرسلت فِى طلب من دخلوا عليها وذكرتهم بدخولهم عندها الواحد بعد الواحد، ثم تلحق ولدها بأحدهم فيلحقه دون أن يقدر عَلَى رد ذلك منها.

والمجتمع المكى يتسع صدره لغير ذلك من أنواع الممارسات والعلاقات بين الجنسين دون مَا اعتراض من أحد.

ومع أن مجتمع مكة يتسع صدره لكل هذَا، إلا أنه كان يقدر غاية التقدير أهل العفاف الذين يترفعون فوق هَذِهِ الأنكحة، ويرفضون بطبعهم السليم هَذِهِ الأدرب من العلاقات.

ومجتمع هذا حاله يكون فيه الملتزم بالعفة ملتزمًا بشخصه وطبعه، لاَ يحمل عَلَى الفضيلة بالقانون، ولا يصد عن الرذيلة بالتشريع.

وإذا علمت ذلك كله سهل عَلَى وعليك أن أقدم الفتى بين يديك فِى موقف من المواقف التى يُحكم فيها للإنسان أو عليه حكما يخلص له الصدق ويتوفر له قدر غير قليل من التسليم.

قال ابن إسحاق:[...ثم انصرف عبد المطلب آخذًا بيد عبد الله، فمر به – فيما يزعمون – عَلَى امرأة من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر: وهى أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى؛ وهى عند الكعبة.فقالت له حين نظرت إِلَى وجهه: أين تذهب يَا عبد الله ؟ قال مع أبى، قالت: لك مثل الإبل التى نحرت عنك، وقعْ علىّ الآن.قال: أنا مع أبى، ولا أستطيع خلافه، ولا فراقه] [1].

ويروى أن عبد الله بن عبد المطلب حين دعته المرأة الأسدية إِلَى نفسها لما رأت فِى

(١) سيرة ابن هشام – جـ ١ – صد ١٤٣، ١٤٤.

وجهه من نور النبوة، ورجت أن تحمل بهذا النبى ﷺ، فتكون أمه دون غيرها، فقال عبد الله حينئذ فيما ذكروا:

أَمَّا الْحَــرَامُ فَالْحِمَامُ دُونَــهُ

وَالْحِلُّ لاَ حِــلَّ فَأَسْتَبِينَــهُ

فَكَيْفَ بِالأَمْرِ الَّذِى تَبْغِينَــهُ

يَحْمِى الْكَرِيمُ عِرْضَهُ وَدِينَهُ

واسم هَذِهِ المرأة: رقية بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل، تكنى: أم قتّال وبهــذه الكنيــة وقع ذكرها فِى رواية يونس عن ابن اسحاق.

أما البرقى فقد ذكر عن هشام بن الكلبى قال: مر عَلَى امرأة اسمها: فاطمة بنت مر، كانت من أجمل النساء وأعفهن، وكانت قرأت الكتب، فرأت نور النبوة فِى وجهه، فدعتــه إِلَى نكاحها، فأبى، فلما أبى قالت:

إِنِّــى رَأَيْتُ مُخَيِّلَةً لَمَعَتْ ∴ فَتَــلأْلأَتْ بِحَنَاتِــمِ[1] الْقَطْــرِ

فَلَمَأْتُــهَا نُورًا يُضِيءُ بِهِ ∴ مَــا حَــوْلَهُ كَإِضَــاءَةِ الْفَجْــرِ

وَرَأَيْتُ سُقْيَاهَا حَيَــا بَلَــدٍ وَقَعَــتْ بِــهِ وَعِمَــارَةَ الْقَفْــرِ

وَرَأَيْتُهُ شَرَفًا أَبُــوءُ بِــهِ ∴ مَــا كُــلُّ قَــادِحٍ زَنْدُهُ يُرْوِى

لِلَّهِ مَا زُهْرِيَّةٌ سَلَبَتْ مِنْــ ∴ ــكَ الَّذِى مَا اسْتَلَبَتْ وَمَا تَدْرِى

قد جاء فِى الغريب لابن قتيبة: أن التى عرضت نفسها عليه هى: ليلى العدوية.

ولقد سبق لَنَا فِى نشرة صدرت عنا تعالج مثل هذا الموضوع أن قلنا بعد ذكــر مَــا ذكرناه هنا: [... وذهب عبد الله مع أبيه بعد اعتذار مزدوج لفاطمة.

فقد اعتذر أولاً بأن مَا تدعوه إليه فاطمة إنما هو من باب الحرام الذى تأبــاه الطبــاع وتجرمه القيم.

وهو قَدِ اعتذر ثانيًا بأنه مرتبط بأبيه، يتأخر عنه قليلاً فِى مشيته، ولكنه تابع له تــأبى

(١) الحناتم: السحائب السود كَمَا فِى القاموس.

عليه نفسه أن ينفصل التابع عن المتبوع][1].

وأرانى لست فِى حاجة إِلَى الحديث فِى هذا الموضوع بأكثر مما ذكرته لك.

فمن خلال مَا ذكرناه يتبين لَنَا أن الله قد نجى الفتى للمرة الثالثة من سفاسف الأخلاق، ومن الرذيلة التى تهبط بصاحبها إِلَى درك لاَ يدانيه فيه إلا من كان عَلَى شاكلته من الرجال والنساء.

رفع الله الفتى رفعة حسب مشيئته التى أوقعها به، وحسب درجته التى خلقه ليكون عليها، وحسب وظيفته التى مَا خلق إلا لأدائها فِى الكون.

---

(١) راجع القسم الأول تحت عنوان: « فِى ساحة النبى ﷺ » و القسم الثانى أيضا تحت عنوان: « زهرة بنى زهرة » فِى هذا الكتاب.

نجا الفتى عَلَى نحو مَا نجا من كل شيء أحاط به.

فهو قد نجا باسمه من ظلال الشرك.

وهو قد نجا بذاته من الذبح.

وهو قد نجا بسلوكه من سفاسف الأخلاق.

ونظر الشيخ فِي وجه الفتى فإذا به قد تكاملت رجولته وأصبح اليوم صالحا للزواج ومتطلباته فلماذا لاَ ينشط لتزويجه ؟

واستغرق الشيخ قليلا فِي ذكرياته القريبة فإذا به يطاردة حديث قد سمعه من أحد الرهبان عَلَى أرض اليمن جنوب مكة وجنوب الجزيرة العربية جميعها.

إنها قصة عجيبة لاَ يجوز لمثل الشيخ أن يزهد فيها وأن يزهد فِي محتواها.

وسأخلي بينك وبين مصادر التاريخ والمؤرخين وكتاب السير والمحدثين يقصون عليك جميعًا هَذِهِ الرواية التى استغرق الشيخ فِي محتواها.

روى ابن سعد وابن البرقى والطبرانى والحاكم وأبو نعيم عن العباس بن عبد المطلب عن أبيه قال: قدمنا اليمن فِي رحلة الشتاء فنزلت عَلَى حبر من اليهود فقال لى رجل من أهل الزبور، يعنى الكتاب: ممن الرجل ؟ قلت من قريش – قال من أيهم ؟ قلت من بنى هاشم قال: أتأذن لى أن أنظر إِلَى بعضك ؟ قلت: نعم، مالم يكن عورة.قال: ففتح إحدى منخرى فنظر فيه ثم نظر فِي الآخر فقال: أشهد أن فِي إحدى يديك ملكًا وَفِي الأخرى نبوة وإنا نجد ذلك فِي بنى زهرة فكيف ذلك ؟! قلت: لاَ أدرى قال هل لك من شاعة [1] ؟ قلت وما الشاعة ؟ قال الزوجة.قلت، أما اليوم فلا.فقال: إذا رجعت فتزوج منهم فلما رجع عبد المطلب إِلَى مكة تزوج هالة بنت أهيب بن عبد مناف وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب

---

(١) شاعة: بشين معجمة وعين مهملة: الزوجة سميت بذلك لمتابعتها الزوج وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره.

فولدت له رسول الله ﷺ .فقالت قريش: فلج [1] عبد الله عَلَى أبيه.

هذه قصة نقلناها لك عَلَى نحو مَا رواها رواتها لم نشأ أن نحذف منها شيئًا ولم نشأ أن نضيف إليها شيئًا.

ودعك مما ذكر فِي آخرها الآن وتأمل معى من الحديث مَا استغرق الشيخ فيه وكأنى بالشيخ قد طال تأمله فيما ذكر له أثناء رحلته إِلَى اليمن.

وأخرى أن الشيخ قد أنصت إِلَى مَا أحيط به من أحاديث الرجال والنساء عن الفتى وعن وسامته وأنه تتعلق به آمال تذكرها الكتب السابقة ويقرؤها أهل العلم بها وبلغتها.

وأنت تستطيع أن تطلع بنفسك الآن عَلَى بعض مَا قيل لو أنى خليت بينك وبينه وإنى فاعل ذلك إن شاء الله.

روى البيهقى وأبو نعيم عن ابن شهاب رحمه الله تعالى قال: كان عبد الله أحسن رجل رئى قط، خرج يوما عَلَى نساء قريش فقالت امرأة منهن أيتكن تتزوج بهذا الفتى فتصطب [2] النور الذى بين عينيه فإنى أرى بين عينيه نورًا ؟ فتزوجته آمنة بنت وهب.

وروى الزبير بن بكار عن أن سودة بنت زهرة بن كلاب الكاهنة قالت يوما لبنى زهرة: إن فيكم نذيرة أو تلد نذيرًا فأعرضوا عَلَى بناتكم.

فعرضن عليها فقالت فِي كل واحدة منهن قولا ظهر بعد حين حتى عرضت عليها آمنة بنت وهب فقالت هذه: النذيرة أو تلد نذيرًا له شأن وبرهان منير، ولما سئلت عن جهنم قالت: سيخبركم عنها النذير] [3].

جلس الشيخ فِي تأملاته مستغرقا فيما قص عليه أثناء رحلته إِلَى اليمن.

وجلس الشيخ مستغرقا فِي هَذِهِ الأحاديث التى تجرى عَلَى ألسنة المكيين من بنات وبنين.

---

(١) فلج: بفتح أول وثانيه: ظفر بما طلب.

(٢) تصطب: تسكب وتدخل.

(٣) راجع سبل الهدى والرشاد جـ١ صـ٣٨٩ وما بعدها.

ولم يكد يفيق من استغراقه حتى يتأمل فتاه الذى اكتملت رجولته وتحدث الناس بهـا كمَا تحدثوا عن جماله ووسامته.

واختلط فِى ذهن الشيخ أمور كثيرة يقوى بعضها بعضًا.

فهو يراه قد نجا من الذبح ولكن بعد رجفة اجتماعية ربطـت أول الزمـان بـآخره وحادثه بماضيه فكان من نتائج هذا الربط أن ارتفعت هامة العرب بما يـذكرون ويـذكر الناس عنهم أن لهم صلة بمآثر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وهو يراه أملاً مرتجى لشرف فِى المستقبل لم يأت زمانه بعد.

حيث سيكون والد لإنسان كامل قالوا إنه نبى وملك هَذِهِ الأمة.

وما كان لشيخ مكة أن يطيل فِى تأملاته بأكثر مما أطال به تأملاته.

فهب الشيخ ونهض من مجلسه ليجلس إِلَى فتاه يحدثه عن بنى زهرة وعن آمنة بنـت وهب عَلَى الخصوص.

ولم تكن آمنة بنت وهب موضع حديث بين الفتى وقرنائه.

وأغلب الظن عندى أن آمنة بنت وهب لم تكن حديث نفس يحدث الفتـى بـه نفسـه ترغب إليه نفسه فِى أن ترتبط بزهرة بنى زهرة وأن ترتبط به زهرة بنى زهرة.

وأرانى لم أكن قد أبعدت النجعة لو قد قلت إن الشيخ لم يكن قد فكر فِى الارتباط ببنى زهرة يتزوج منهم أو يزوج منهم فتاه.

ترى لماذا لم يلفت نظر الشيخ هذا الحى من بنى زهرة برغم مَا بين بنى هاشم وبينهم من أحلاف وصلات اجتماعية تعين الشيخ عَلَى أن يلتفت إِلَى هذا الحى ليؤكد الرابطة بينه وبينهم بمؤكدات المصاهرة لتكون آصرة جديدة تضاف إِلَى آصرة النسب !

وأمر آخر يعين الشيخ عَلَى أن يلتفت إِلَى بنى زهرة لاَ يتلكأ فِى هـذا الالتفـات ولا تقعد الهمة به دونه.

وهذا الأمر هو مَا حد ثتكَ عنه من حديثِ الحاخام اليهودى إِلَى الشيخ أثناء رحلته إِلَى اليمين ينبئه فيه أنه سيكون فيه وَفِى عقبه النبوة والملك.

ومع هذا كله وكثير غيره لم نرَ الشيخ قد صدر عنه مَا ينبئ أنه يحتاج إِلَى أن يرتبط بحى بنى زهرة ارتباط المصاهرة لاَ له.ولا لأحد من بنيه.

وأنا هنا راغب فِى أن أدفع خطًا ربما يفهم من حديثى السابق المتصل بعــدم تفكيــر الشيخ فِى هذا الحى من العرب يُصهر إليهم أو يُصهرون إليه.

وهذا الخطأ الذى يمكن أن يُفهم من حديثى هذا هو: أن عبد المطلب يبدو الآن وكأنــه زاهد فِى هذا الحى لسبب من الأسباب الاجتماعية.

وهذا الفهم بالقطع ليس صحيحًا.

فنسب بنى زهرة مكافئ لنسب بنى هاشم لاَ يختلفان؛ إذ هما ينحدران من سلسلة نسب واحدة، شاء الله أن تتشعب قبل جد أو جدين، ليكتمل العلو لنسب النبــى ﷺ فِــى سلســلة واحدة هى غاية فِى الطهر وقمة فِى الرقى والشرف.

وبعد أن دفعتُ هذا الخطأ الذى يبدو أن أحدًا استنتجه من حــديثى إليــك عــن عبــد المطلب، أو فِى أقل القليل أن هذا الاستنتاج محتمل عقلاً.

بعد أن دفعتُ عنك مَا قد تحتمله من الاحتمالات الخاطئة، يبقــى الســؤال مطروحًــا حائرًا بغير جواب.

إذًا لماذا لم يفكر عبد المطلب فِى هذا الحى من بنى زهرة، يتزوج منه أو يزوج منه فتاه الذى بلغ مبلغ الرجال ؟!

ولا جواب عندى، كَمَا أنى لاَ أرى جوابًا عند المؤرخين يكافئ هذا التســاؤل، إلا أن أقول كَمَا كان ينبغى لهم أن يقولوا: إن عبد المطلب كان واعيًا بنذره، وكان واعيًا بوجوب الوفاء به.

وقد اكتمل أولاده الآن عشرة كلهم قد بلغ مبلغ الرجال، وكلهــم قــادرون عَلَــى أن يدافعوا عنه، وكلهم قادرون عَلَى أن يعاونوه إلا مَا كان من شأن الفتى الذى لم يكــن قــد خلع عنه تمائم الصبيان بعد، وهو ينتظر بلوغه مبلغ الرجال حتى يقضى مَا عليه من دين، ويؤدى مَا عليه من نذر يوجبه عليه بلوغ الفتى مبلغ الرجال.

وحالة كهذه تحيط بالشيخ لاَ تجعله يفكر فِى الارتباط بحى من أحياء العــرب يأخــذ

منهم شاعة لابنه، لاَ. ولا حتى شاعة « زوجة » لنفسه علَى نحو مَا نصح إليـه حاخـام اليهود، وحكيم بنى إسرائيل.

مُصَارَحَةٌ:

الآن وقد ذهب عنه مَا كان يجد وما كان يأخذ بلبه وفكره لاَ يتـرك فيهمـا مجـالاً لتفكير.

الآن وقد نجا الفتى من الذبح وقبل الله فيه الفداء، ولم يعد أمامه من شىء يشغله بـل قد تفرغ قلبه من كل شىء إلا من قيلة الناس وقيلة أهل الكتاب عنه وعما ينتظر الناس من عقبه.

حينئذٍ نشط الشيخ إلَى حديث يصارح به الفتى هو أسير إلَى قلبه، وحبيب إلَى فـؤاده، قد خبأه له القدر وآن الأوان أن يصارح فتاه فيه.

لقد نظر إلَى الفتى ووجهه ممتلىء ضياءً ووجه الفتى يتحدر منه نور ثم قال للفتى يَا بنى مَا رأيك فِى أن ترتبط بزوجة تعينك علَى شئون الحياة ويرزقك الله منها العقب ؟

وسكت الفتى لم يحُر جوابًا وعلته تلك الحمرة التى تعلو وجنات العذارى إذا تحـدث إليهم آباؤهم فِى مثل هذا الأمر.

وأطرق الفتى لم ينبس ببنت شفة.

واستطرد الشيخ كأنه يحدث نفسه قائلاً: وأنت تعلم أيها الفتى أنه لـيس لـى اليـوم زوجة، ولا بأس أن أرتبط بفتاة من هذا الحى الذين هم لَنَا من أبناء العمومة.

لقد اخترت وقدرت بعد اختيار الله وتقديره ومشيئة ربنا خير، أن أرتبط بهالـه بنـت أهيب، وأن أزوجك ابنة عمها آمنة بنت وهب.

ثم قال للفتى يداعبه، لقد اخترت لك أفضل الاثنتين خلقًا ووضاءة وإن كانا يشـتركان فِى طيب الأصل ورفعة النسب.

وأحب أن أقول لك: إن هذا الحى فوق أنه كريم بنسبه، فأنا قد نصحْتُ ؟ أن نرتبط به لعلنا نحظى بشرف العقب الذى يَشْرُفُ به آباؤه وأجداده، كَمَا يَشْرُفُ به أبناؤه وتابعوه.

فِى الطَّرِيقِ إِلَى زُهْرَةَ:

كل هذا والفتى لاَ يجيب موافقًا ولا يجيب معترضًا كأنه يترك للشيخ أن يتخذ قـراره بنفسه عَلَى الوجه الذى يريده.

ولم يكن أمام الشيخ إلا أن يتخذ قراره هو دون أن ينتظر جوابًا من فتاه.

وكان عَلَى الشيخ أن يمضى إِلَى تنفيذ قراره مصطحبًا معه فتاه.

ونهض الشيخ من مجلسه طالبًا إِلَى فتاه أن يصطحبه إِلَى بنى زهرة.

وكانت مشية الفتى دائمًا إذا صحب الشيخ كمشية إخوته مع أبيهم، لاَ تسبق أقـدامهم أقدامه، ولا يحاذونه بالمناكب، ولكنهم فِى الوقت نفسه لاَ يتأخرون عنه تأخرًا يمـنعهم أن يحول بينهم وبين تلبية ندائه إذا ناداهم، والوقوف بين يديه إذا طلبهم من غير أن يحوجـوا الشيخ إِلَى أن يجهد نفسه بالنداء، أو يجهد بصره حين يطلب إليه أن يبحـث عـنهم فِـى أماكنهم.

نهض الشيخ قاصدًا إِلَى تحقيق مراده، وطلب إِلَى الفتى أن يصحبه فسار معه عَلَـى الهيئة التى شرحت لك.

وبينما هما عَلَى الطريق دعته إحدى نساء قريش تريد أن تصطب النور الـذى بـين عينيه فتفوز بلقب أم النبى ﷺ الذى ملأت سيرته الآفاق وانحصر وجوده فِى الفتى لاَ يكاد يخطئه نظر الناظرين.

لقد دعته هَذِهِ السيدة من سادات قريش ليكون معها ساعة يقضى فيها وتـره، ومـع دعوتها الترغيب بالمال الذى يحفزه إِلَى إجابة الدعوة إذا لم تستطع الغريـزة أن تحفـزه إليها.

والفتى يرفض رفضًا قاطعًا ومبررًا.

أما الرفض فقد ساقه بعبارة مختصرة حين قال لها: « لاَ ».

وأما مبررات الرفض عند الفتى برغم هَذِهِ المغريات فهى:

أولا: أن هذا الفعل حرام فِى حكم الطباع السليمة، وَفِى حكم مَا بقى شائعًا بين الناس من آثار الأنبياء.

ولو قد أدرك المرء حرمة هذا الفعل أو غيره، واستيقن من شناعته فإنــه يــرى أن الموت والحمام أيسر عَلَى النفس تحملهما من ارتكاب هذا الفعل الحرام، عَلَــى نحــو مَــا قدمناه إليك من كلام الفتى نظمًا.

وثانيًا: أن هذا الفعل يحتاج إِلَى وقت يحمله عَلَى أن يتأخر عن أبيه الشــيخ، وهــى مسألة لاَ يقبلها الإلف ولا تقبلها العادة.

ولو قد قبلاها فإن طبع الفتى ينفر منها أشد النفور، ويستقبحها أشد الاستقباح وأعنفه.

ذهب الشيخ إِلَى وجهته لاَ يلوى عَلَى شيء قاصدًا إِلَى هذا الحى من أحياء العرب ذى الحسب العالى، والشرف الذى لاَ يكافئ بنى هاشم سواه.

والفتى خلف الشيخ لاَ يتأخر عنه إلا بمقدار مَا تقتضيه اللياقة، وإلا بمقدار مَا يقتضيه الذوق الرفيع.

والشيخ والفتى يجدان فِي المسير، والتاريخ خلفهما يلهث مخافة أن تفوته هَذِهِ اللحظة التى يتم فيها ارتباط هذين الحيين من أحياء العرب.

وما أن وطئت قدم الشيخ حى بنى زهرة حتى تفتحت له الأبواب، واســتقبله رجــال الحى استقبالاً يناسب مكانته، ويناسب مكانة فتاه.

وأخذ الجميع يتجاذبون أطراف الحديث لاَ يعكر صفو الجو إلا مَا كان مــن ذكــرى أليمة ترفرف عَلَى الحاضرين، وتلقى بجرانها عليهم.

هذه الذكرى الأليمة هى غياب وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن قُصَّى عن المجلس.

وقد يكون الغياب محتملاً إذا كان بعد الذهاب والغياب إياب مرتقب.

أما غياب وهب فكان غيابًا من ذهاب لاَ يئوب منه الذاهبون.

ولم يكن من بد إلا أن يملأ وهيب بن عبد مناف بن زهرة أخو وهب مكانته ومكانــة أخيه عَلَى السواء.

وهذا مَا كان.

لقد قام وهيب مقام الولى لأبناء وبنات بيته وأبناء وبنات بيت أخيه.

وقطع الشيخ الوقور الصمت بكلماته الحسان التى يعبر بها عن هَذِهِ الرغبة المقدسة إن شئت، أو يعبر بها عن هَذِهِ الرغبة الاجتماعية إن أردت حيث إن الشيخ يرغب فِى أن يُصهر إِلَى بنى زهرة، وعليهم أن يقبلوا أو يرفضوا طلب عبد المطلب آمنة بنت وهب لفتاه، وهالة بنت وهيب لنفسه.

وجاء دور وهيب ليجيب الشيخ، فما كان منه إلا أن قال: إنكم يابنى هاشم لاَ يُزهد فيكم، ولا يُرغب عنكم لما لكم من رفعة النسب وحسن السيرة وفوق ذلك فإنكم لاَ تنقصكم الكفاءة التى يطلبها أولياء الفتيات لفتياتهم، فقد توفر لكم منها قدر غير يسير، وإذا كان الشيخ وفتاه لهم فِى فتياتنا رغبة فلهن فيهم مثل ذلك.

فهنيئًا لك أيها الشيخ بزواجك من هالة، وهنيئًا للفتى بزواجه من آمنة.

وفرحت مكة بهذا الزواج الميمون أيما فرح، وودعت به أيام حزنها وقلقها واضطرَا بها ساعة أن كانت ترقب المصير الذى ينتظر الشيخ وفتاه قبل أن يأذن الله بالفداء.

الْفَتَى فِى حَىِّ بَنِى زُهْرَةَ أَيَّامَ الزَّوَاجِ الأُولَى:

ولقد كانت عادة قريش أن يقيم الزوج مع زوجته أيامهما الأولى فِى بيت العروس عقب ليلة من الفرح يقيمها أهلها، ويؤمها وجهاء القوم عَلَى اختلاف انتمائهم وتباين توجهاتهم.

وأقام الفتى أيامه الأولى مع زوجه فِى حى بنى زهرة، لكنه كان يختلف بياض النهار إِلَى أبيه وذويه يطمئنهم عَلَى نفسه، ويطمئن هو عليهم ويتجاذبون معًا أطراف الحديث.

إِلَى بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ:

ثم قرر الزوجان بعد ذلك أن ينتقلا إِلَى بيت الزوجية الدائم فِى حى بنى هاشم، وقد أعد الشيخ للفتى دارًا قريبة من الحرم ليقيم فيها مع زوجه.

وهو بيت عَلَى مَا وصفه الواصفون:- كان ذا درج حجرى يوصل إِلَى باب يفتح من الشمال، ويدخل منه إِلَى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر مترًا فِى عرض ستة أمتار - وَفِى جداره الأيمن باب يدخل منه إِلَى قبه فِى وسطها - بميل إِلَى الحائط الغربى - مقصورة من الخشب.

أعد الشيخ للفتى وزوجه هذا البيت الذى وصفته لك.

وسبق الفتى زوجه بعد فترة مقام فِى بنى زهرة إِلَى بيت الزوجية.

وأقبلت زهرة بنى زهرة فِى حشد من نسائها تودع حيًا قديمًا وتستقبل حيًّــا جديــدًا، يسبقها ويسبقهن رجال إِلَى دار الفتى.

واستقبل الفتى ضيوفه وحياهم بما ينبغى أن يحييهم به فتى مثله فِى المكانة والشرف.

وانحرفت النسوة بزهرة بنى زهرة بعد أن دخلنَ من الباب إِلَى القسم الغربــى مــن البيت، حيث حجرة الزوجية وغرفه استقبال عظيم الساحة.

وخلا الزوج إِلَى زوجه بعد انصراف الضــيوف والمجــاملين، وبعــد وداع الفتــى للضيوف والمجاملين.

وتبادل العروسان أطراف الحديث، ولم يكن لهما من موضوع يفرض نفسه عليهمــا إلا مَا يتحدث به الناس، وتتحدث به الكتب السابقة عن عظيم أقبل زمانه، وأشرق نــوره، وأصبح وشيك الظهور فِى الساحة ساحة التاريخ.

وتمنى الفتى وتمنت الزهرة آمنة بنت وهب أن يكونا أبَــوى العظــيم ليفــوزا بهــذا الشرف، وتقر عيناهما به عَلَى نحو مَا تقربه أعين الأكوان وآنات الزمان.

وقضى الفتى مع زوجه أيامًا سعيدة فِى هذا البيت برباط زواج سعيد.

وشاء الله لهذا الزواج أن يكون فِى حدود مَا رسم له من وظائف.

وشاء الله للزوجين ألا يكون بقاؤها بأكثر مما تقتضيه وظائف وجودهما.

ولقد حار المؤرخون والمحدثون فِى الفترة القائمة وتحديدها، وما بقى للفتـى عَلَـى الدنيَا منها، وما ذلك إلا لشدة الدهشة التى أخذت الناس بهذا الحدث الذى سنستقبله بعـد قليل.

فأنت خبير ولا شك بأن أهل مكة فِى أيام عرس الفتى وارتباطه بآمنة قد وصلت إِلَى ذروة فرحها؛ ولم لاَ وهى التى بمشورتها قَدِ استطاعت أن تنجى الفتى مِـن الـذبح، وأن تنجى المجتمع المكى كله من آثار عادة نذر ذبح الأبناء، وهى عادة لـو تأصـلت لتعـود الناس غلظ الأكباد حين يمسون ويصبحون وهم يشهدون آباءً يذبحون أبناءهم، لاَ لشـىء إلا لأنهم قد تحملوا نذورًا بذلك مدفوعًا هذا التحمل بلحظات انفعال عارضـة، لاَ يسـعهم بعدها إلا الوفاء بما تحملوه.

إن مكة الآن تعيش أحلى أيامها وأزهاها، حيث قَدِ انتصرت بواسطة رأيهـا الحكـيم عَلَى عادة كانت أحداثها الأولى وشيكة الوقوع.

ثم إن هَذِهِ الثمرة التى أثمرتها أفكارهم قد تمثلت فِى هذا الفتى الوسيم وقد أصبح الآن يمشى عَلَى الأرض رائحًا وغاديًا، يسر رواحه وإيابه الناظرين.

وهذا الفتى الذى تعتز به قريش قد أصبح الآن عَلَى رأس أسرة صـغيرة تنـاط بهـا وظائف اجتماعية، وتناط بها وظائف أخرى ربما يكون من أهمها أنها ستكون محضـنًا لعظيم ساحة التاريخ الذى تسامع به المكيون رجالهم ونساؤهم، وشيوخهم وصبيانهم عَلَـى السواء.

لقد فرحت مكة فِى أيام زواج الفتى بزهرة بنى زهرة، واشـرأبت تطـاول السـماء برقبتها، وتكاد تلمس سدرة المنتهى بها منها.

فرحت مكة وفرح المكيون، وفرح بفرحهما التاريخ والمؤرخون.

وللفرح انفعالاته التى قد تجعل الفرِحَ يعيش فِى فترة ذهول عما حوله ومن حوله من

الناس والأشياء.

ومن أجل هذا لم نجد جوابًا متفقًا عليه بين المؤرخين ليسد حاجة هذا السؤال الحائر وهو: كم كان فِي التاريخ عمر هذا الزواج الميمون ؟.

دعني هنا أحدثك عن حادثة الفجاءة التي فاجأت الناس فنقلتهم فجأة من أقصى اليمين إِلَى أقصى اليسار علَى الخط نفسه.

لقد جذب الفرح والانفعال به نفوس الناس إِلَى أقصى اليمين تحت أضواء الفرح وصخبه وبقوا علَى ذلك أيامًا معدودة هي أسرع من البرق الخاطف؛ فأنت عليم أن أيام الخير تمر سراعًا.

نِدَاءٌ يَجِبُ أَنْ يُلَبَّى:

ووسط هذا الفرح الشديد جلس شيخ مكة علَى أريكته مسندًا ظهره إِلَى البيت العتيق، ودونه فِي المجلس أبناؤه وذووه، فطرحوا موضوعًا للبحث والدراسة، ألا وهو موضوع العير والتجارة إِلَى بلاد الشام.

ويبدو أن الشيخ قد قسى علَى قلبه حين اتخذ قرارًا بخروج الفتى مع التجارة إِلَى بلاد الشام.

ودافعه إِلَى هذا القرار هو هَذِهِ الجرعة من الدربة التي يريد الشيخ أن يعطيها لفتاه، وليس من الناس أحد إلا وهو يعلم أن حاضرة مكة بين العرب ومكانتها بين الناس قد أخذتها من وظيفتها الاقتصادية بالإضافة إِلَى موقعها الديني؛ فما كانت مكة بتلك المنطقة الزراعية التي تمد أهلها بما يحتاجون إليه من الزروع والثمار علَى نحو مَا كانت عليه الحاضرات الأخرى من اليمن فِي الجنوب ويثرب وخيبر وما حولها فِي الشمال.

وما كانت مكة بتلك المنطقة الصناعية التي تُجلب إليها المواد الأولية أو تستخرج من أرضها فتقوم بتصنيعها ثم تعيد تصديرها إِلَى مَا حولها من البوادي والقرى، ثم تنتفع بعائد ذلك كله.

ما كانت مكة علَى هَذِهِ الخاصية أو تلك.

وإنما حاضرة مكة قامت علَى التجارة، وساعدها علَى ذلك موقعها الديني وموقعها

الجغرافى عَلَى السواء.

ونحن قد حدثناك حديثًا مطولاً عن أهمية موقع مكة ودلالتها عَلَى قرب استقبال عظيم الساحة فِي نشرة قد صدرت لَنَا من قبل فِي مناسبة المولد الشريف من العام الماضى [1].

علِمَ الشيخ أن هذا هو حال مكة، وعلم مع ذلك أن مارسمه أبوه هاشم من نظام اقتصادى لمكة يعد رصيدًا بمثابة التكأة التى ينبغى أن يحافظ عليه أبناؤه وأحفاده مَا استطاعوا إِلَى هذا الحفاظ سبيلاً.

وما كان للشيخ أن يترك الفتى بغير دربة عَلَى هَذِهِ التجارة، وَعَلَى غير معرفة بأساس هذا النظام الاقتصادى الذى وضعه جده وعليهم أن يحافظوا عليه.

ما كان للشيخ أن يترك فتاه غرًا.

من أجل هذا لم يترك لقلبه أن ينتصر عليه، ولم يترك لعواطفه أن تغلبه عَلَى مصالح فتاه.

من أجل ذلك اتخذ قراره أن يخرج الفتى بالعير مع الخارجين.

فأرسل إليه فِي بيته أن أجب أباك.

فجلس الفتى مع الجالسين، وأخبره أبوه ببسمة وشعور غريبين، لاَ يعرف الشيخ سرهما مهما تحسسهما.

وهذان الشعوران قَدِ اجتمعا للشيخ عَلَى خلفية من انقباض النفس هو الآخر لم يعرف الشيخ له سرًا.

أخبر الشيخ الفتى بما هو مقبل عليه، ولم يعقب الفتى بشئ.

ثم صرفه الشيخ ليذهب إِلَى بيت الزوجية يصلح من شأنه ويعد عدته للرحيل.

وأخبر الفتى زوجه بما هو مقبل عليه، ثم أراد أن يصرفها عن المشاعر التى ألمت بها فسألها أن تحدثه عن نفسها وعما تجد، فرأت زهرة بنى زهرة أن تحدثه عن شىء يسر من كان فِي مثل سنه، فحدثته أنها تجد أثر حمل لاَ تشعر معه بأعراض الحاملات

---

(١) راجع « فى ساحة النبى ﷺ ».

ممن هن فِي مثل سنها وظروفها إنها لاَ تنكر شيئًا من عوائـــدها اليوميـــة ســـوى رفـــع حيضتها.

وسألها عن شيء آخر ربما تجده، فأخبرته بهذه الأشياء التى رأتها فِي منامها وكلهـــا تدور حول أنها قد حملت بهذا النبى ﷺ المرتقب، ثم هى قد رأت فيما يرى النائم أنه يجب عليها إذا أتمت حملها ووضعت ابنها أن تعيذه بالواحد الأحد من شر حاسد إذا حسد.

وفرح الفتى وفرحت زوجه وأنساهما الله مشاعرهما التى يجدها كل مفارق لخليله.

دَعْوَةٌ لِلْخُرُوجِ:

وبينما هما عَلَى انفعال السرور والفرح إذ نادى المنادى أيها الفتى.

يأمرك الشيخ أن تخرج إِلَى الرحيل فِي رفقة أهلك وذويك إِلَى بلاد الشام.

نظر الفتى إِلَى زوجه وهو هَذِهِ المرة قَدِ اجتمعت له مشاعر غريبة قد يدرك بعضـــها وقد لاَ يدرك البعض الآخر.

فهو قَدِ اجتمع عليه شعور المفارقة لزوج لم يُمضِ إلا أيامًا لم تبلغ الشـــهرين بعـــد، فدفعه هذا الشعور بأن ينظر إِلَى بعض أطرافها فإذا خضاب العرس مازال باقيًـــا، وقـــد اجتمع له شعور الترقب لرؤية ابنه الحبيب الذى سيكون صلاح الكون عَلَى يديه، وســـيرد الناس مردًا جميلاً إِلَى الله عز وجل واجتمع له شعور القلق حيث إنه سيترك زهرة بنـــى زهرة فِي بيت الزوجية وحدها لاَ يعرف من تنادى ومن تناجي والوحدة قاسية، وهى لـــم تتعودها حين كانت بين أهلها فِي بنى زهرة، والفتى فِي كل هذا لاَ يعلم أنه قَدِ اســـتودعها نبيًا يناجها وتناجيه، ليست فترة بقائه فِي رحم أمه تشبه فترة بقاء كل جنـــين مـــن بنـــى الإنسان.

ومع هَذِهِ المشاعر يجد الفتى محاطًا بأشياء غامضة من المشاعر تتركه فِي حالة مـــن القلق لاَ يقف لها عَلَى سر، ولا يحيط بأسبابها علما.

نظر إِلَى آمنة ونظرت إليه، وودعها وودعته مع خشية من الفتى أن تســـبقه عبرتـــه أمام زوجته، فتشعر منه زوجته بلحظة من الضعف لم يحب أن يظهر بها أمامها، فتظاهر بالعجلة، وظهر وكأنه هذا الشاب الذى يسرع فِي حمل حقائبـــه وتوابعـــه مـــن الملابـــس

والأشياء رغبة فِي إجابة الشيخ، ورغبة فِي أن يترفع عَلَى أن يلومه اللائمون.

وما هو بذلك، وإنما هو يسرع حتى لاً يلاحقه الضعف أو تسبقه العبرات.

ألقى الفتى عَلَى داره نظرة وداع، ثم ذهب إِلَى الشيخ فقبله الشيخ بين عينيه قبلة يظن بعدها أنه عما قريب سيتبعها بقبلة أخرى يوم إيابه.

واعتلى الفتى ظهر البعير يقلب النظر هنا وهناك، ومكة تستبطئ البعير كى ترى من الفتى مَا تذكره به إِلَى يوم القيامة.

إِلَى الشَّام:

وقطع الفتى مع القافلة الطريق إِلَى بلاد الشام مارًا بيثرب حيث تــزود إِلَــى بــاقى الطريق من بيت أخواله وأخوال أبيه بنى النجار.

وترصعت بلاد الشام بأقدام الفتى، وعلق الفتى فِي جيد بلاد الشام قلادة تشبه إِلَى حــد كبير تلك القلادة التى علقها فِي جيد بلاد الشام جده هاشم من قبل.

مِنَ الشَّامِ إِلَى يَثْرِبَ:

وانتهى الفتى من البيع والشراء.

وما أراد الله للفتى أن يكتسب ملكة البيع والشراء.

ولو اكتسبها الفتى فما أراد الله له أن تكون من وظيفته البيع والشراء.

عاد الفتى مع العائدين، ولكنه عاد محملاً بفيرس أو ميكروب أثقل جسمه وناءت بــه بنيته، فاجتمع القوم عَلَى رأى واحد أن يتركوه يمرض عند أخواله من بنى النجار.

الْعِيرُ إِلَى مَكَّةَ:

وانطلقت العير إِلَى مكة بعد أن خلفت فِي يثرب فلذة كبد البلد الحرام.

وما كاد أهل مكة يرون الغبار المنعقد حتى خرجوا جميعًا يستقبلونهم يخرج كــل أب بأبنائه ليستقبل ولده، وتخرج كل زوجة بصبيانها تستقبل زوجها.

وخرج الشيخ مع الخارجين إِلَى أعالى مكة، غير أن قلبه لم ير النور الذى كان يراه، ولم تجد شفتاه هَذِهِ الرطوبة ومرونة الحركة اللتان يساعدانهما عَلَى هَذِهِ القبلة التى تمنــى

أن يطبعها عَلَى جبين فتاه وهو يستقبله قبل أن يذهب به إِلَى بيت الزوجية الذى لن يبقى له حظ من رؤيته فِى هذا الزمان إِلَى منتهاه.

لم يشعر قلب الشيخ بسرور استقبال العير.

وما هى إلا لحظات حتى أقبلوا عليه فسأل عن الفتى، فقالوا له خجلين، أو مشفقين لقد تركناه فِى هذا الحى من بنى النجار فِى يثرب حيث يمرضه أخواله.

وهنا أرعد الشيخ وهتف بأكبر أبنائه الحارث بن عبد المطلب أن اذهب إِلَى يثرب وائتنى بخبر أخيك الذى خلفته العير مريضًا عند أخواله من بنى النجار.

الْخَبَرُ الْحَزِينُ:

وانطلق الحارث يطوى الأرض طيًّا، أو تطوى له الأرض طيًّا إِلَى أن وصل إِلَى أخواله فِى يثرب، فسألهم عن الفتى، فقالوا له: أما يجوز لك أن تجلس أولاً لتمس من ماء أو طعام أو تذهب عنك وحشاء السفر قال: لاَ حتى أعلم خبر الفتى، فأخذوه من يده وذهبوا به إِلَى دار النابغة وهى الدار الصغرى إذا دخلت الدار عَلَى يسارك فِى البيت [1].

وكأنى بالحارث عندما دخل يسأل أخواله: أين الفتى ؟

وكأنى بأخواله يقولون له: هو هذا الذى يحول بينك وبينه صمت القبور.

لقد توفى الفتى هنا ودفناه فِى هذا المدرج وَفِى هذا الحى الذى شهد مسقط رأس أبيه عبد المطلب.

وما كان للحارث أن يعقب بشئ، فهو حدث لاَ معقب عليه.

الْحَارِثُ أَمَامَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ:

وعاد الحارث أدراجه، خطاه متثاقلة يباعد ثقلها بين الحارث وبين أبيه، أو تنفرج الأرض فتتسع المسافة بين مكة والمدينة فِى نفس الحارث عَلَى الأقل، حيث إنه يشفق عَلَى نفسه وَعَلَى أبيه من لحظة اللقاء ووقع الخبر.

وما من بد من اللقاء، وما من بد من الخبر.

---

(١) راجع الطبرى تاريخ جـ ٢ صـ ١٦٥.

والتقى الحارث بعبد المطلب، ولم يحتج الشيخ إلى سؤال، ولم يحتج الحارث إلى أن يجهد نفسه في إجابة سؤال طالما تضرع إلى ربه أن يكفيه مؤنة الإجابة عنه.

حُزْنٌ أَلَمَّ بِمَكَّةَ:

وأفاقت مكة فإذا بها لا تجد الفتى، وأفاق أصحابها وسكانها فإذا بهم لم تعد تتكحل عيونهم بمنظر عبد الله فتى قريش وأكثر فتيانها حسناً ووضاءة.

وانكسر كبرياء أهل مكة، فأيديهم مازالت تؤلمهم من التصفيق فرحاً واعتزازاً برأيهم الذي نجى بسببه فتاهم الوضيء، فإذا بهم اليوم يجدون أن الفتى قد ذهب ولا قدرة لأحد عَلَى منعه من الذهاب.

وما كان أمام مكة إلا أن تتشح بالسواد حداداً عَلَى الفتى، وحزناً لمفارقته.

رِثَاءٌ مُخْلِصٌ مِنْ زَوْجَةٍ مُخَضَّبَةٍ بِخِضَابِ الْعُرْسِ:

أما آمنة فقد وقع منها الخبر موقعه، فسالت عَلَى شفتيها كلمات الحزن في رثاء منظوم.

ذكر ابن إسحاق في المبتدأ وابن سعد في الطبقات رحمهما الله تعالى أن آمنة أم رسول الله ﷺ قالت في رثاء زوجها:

عَفَا جَانِبُ الْبَطْحَاءِ مِنَ ابْنِ هَاشِمٍ ∴ وَجَاوَرَ لَحْدًا خَارِجًا فِي الْغَمَاغِمِ
دَعَتْهُ الْمَنَايَا بَغْتَةً فَأَجَابَهَا ∴ وَمَا تَرَكَتْ فِي النَّاسِ مِثْلَ ابْنِ هَاشِمِ
عَشِيَّةَ رَاحُوا يَحْمِلُونَ سَرِيرَهُ ∴ يُعَاوِرُهُ أَصْحَابُهُ فِي التَّزَاحُمِ
فَإِنْ يَكُ غَالَتْهُ الْمَنَايَا وَرَيْبُهَا ∴ فَقَدْ كَانَ مِعْطَاءً كَثِيرَ التَّرَاحُمِ

وفي مرويات القاسم الوزيري المغربي رحمه الله تعالى ورضي عنه أن آمنة قالت في رثاء زوجها عبد الله:

أَضْحَى ابْنُ هَاشِمٍ فِي مَهْمَاءَ مُظْلِمَةٍ ∴ فِي حُفْرَةٍ بَيْنَ أَحْجَارٍ لَدَى الْحَصَرِ
سَقَى جَوَانِبَ قَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ ∴ غَيْثٌ أَحَمُّ الذُّرَى مَلْآنُ ذُو دُرَرِ

عُمْرُ الْفَتَى وَعُمْرُ الزَّوَاجِ الْمَيْمُونِ:

قلت فيما قلت إن أهل مكة قد شغلوا بنشوة الفوز بنجاة الفتى من الذبح.

وشغل أهل مكة بصدمة الخبر حين وقع الفتى أسيرًا فِى حبال الموت.

شغل أهل مكة بذلك وشغل به المؤرخون.

ثم أضف إِلَى ذلك قلة الوثائق وبدائية التوثيق.

من أجل هذا كله لم نجد إجماعًا عَلَى عمر الفتى.

وأرجح الآراء أن الفتى قَدِ انتقل إِلَى جوار ربه فِى الخامسة والعشرين من عمره.

ولم يكن فترة الزواج الميمون بأقل حرجًا من تحديد سن الفتى الذى مات عنده.

وأرجح الآراء فيما نعلم أنِ الفتى قَدِ انتقل إِلَى رحاب ربه والنبى ﷺ جنين فِى رحم أمه.

قال صاحب سبل الهدى والرشاد فِى كلام يحكى رحلة الفتى إِلَى بلاد الشام وعودته منها إِلَى أن قال: [... فوجد عليه « عبد الله » عبد المطلب وعماته وإخوته وأخواته وجدًا شديدًا ورسول الله ﷺ حمل، ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفى خمس وعشرون سنة.

قال الواقدى: وهذا أثبت الأقاويل فِى وفاة عبد الله وسنه] [1].

أَبْنَاءُ الْفَتَى:

لقد أجمع المؤرخون قاطبة، وكتاب السير والمحدثون عَلَى أن الفتى لم ينجب أحدًا سوى رسول الله ﷺ وكان يكنى به حيث كان يقال له بعد وفاته: أبو أحمد وأبو محمد بالإضافة إِلَى مَا ذكرناه.

وما من كنية نعرفها للفتى إلا وهى متصلة بأبوته لرسول الله ﷺ حتى أبى قُثم.

فأنت خبير ولا شك أن من بين معانى القثم أنه الجامع لأضرب الخير والفضائل، وَهَذِهِ من أسماء رسول الله ﷺ عَلَى مَا عليه أهل العلم.

ومن هنا يتبين أن عبد الله أبَا النبى ﷺ لم ينجب أحدًا غير رسول الله ﷺ ولم يتزوج بغير آمنة بنت وهب.

---

(١) راجع: سبل الهدى والرشاد « مرجع سبق ذكره ».

وعلى سبيل الاستطراد اللازم أقول: إن آمنة هى الأخرى لم تتزوج بغير عبــد الله، وليس لها من ولد شهده الواقع أو سجّله التاريخ سوى فتاه الذى هو محمد بن عبد الله.

وَظِيفَةٌ شَرِيفَةٌ:

وإننا لنتساءل ويتساءل معنا الناس عن المهمة التى جاء الفتى لإنفاذهــا فِــى الكــون ووضع لمساتها فِى الوجود.

وهو سؤال يؤكد الحاجة إِلَى إجابة عنه مَا شهدناه من آثار آبائه من قبل.

فقصى بن كلاب هو الذى جمع هذا الحى من العرب من أبناء إسماعيل ورد علــيهم حقوقهم ورد لهم كرامتهم.

وعبد مناف هو الذى قسم السلطات وفصل بينها فِى شىء من التمايز، وأســند كــل وظيفة إِلَى ابن من أبنائه يتوارثها من بعده بنوه.

وهاشم هو الذى استطاع أن يجد النظام العملى لحل جميع المشاكل الاقتصادية، وإنقاذ مكة من قحط محقق وربكة اقتصادية كادت تلقى بأبنائها تحت أطباق الثرى.

وعبد المطلب هو ذاك الرجل الذى ارتبطت به أحداث جسام من نحو أنــه قــد أكــد الصلة بين مكة ويثرب ومن نحو أنه قد أثار فِى مكة رجفة عادت بهم إِلَى جدهم إسماعيل وجدهم إبراهيم عليهما السلام.

وهو الذى وقعت فِى زمانه حادثة الفيل، فجنب قومه فناء محققًا أمام قوة غاشمة، لكنه لم يطلب إليهم أن يخفضوا الرءوس أو يذلوا فتسقط بهم المعايير الاجتماعيــة وإنمــا قــد علمهم أن المرء يقوى بدينه ويعلو بسجوده لربه ويعز بالعبودية والخضوع لإلهــه الــذى يعبده وهو إله البيت الحرام الذى يعرفه كل العرب ومن جاورهم عَلَى أنه هو إله الكــون كله.

هذا هو تاريخ آباء الفتى وأجداده.

وأنا لاَ أجد نفسى فِى حاجة إِلَى الإطالة هنا.

ولا مناص من أن أحيلك إِلَى النشرة التى صدرت عنا فِى مناسبة المولد الشريف من العام الماضى تحت عنوان: « فِى ساحة النبى ﷺ ».

وأنا أنصح إليك أن تنشط إلَى قراءة هَذِهِ النشرة وأن تنشط إلَى قراءة المراجع التـــى اعتمدت عليها فلن تعدم الفائدة فِى هذا أو ذاك.

فى وسط هذا الخضم، أرى هذا التساؤل الذى طرحناه قَد ازداد إلحاحًا، وقد عظمــت ملاحقته لَنَا ولغيرنا طالبًا الجواب.

ترى مَا عسى أن يكون الجواب ؟

أما كاتب هَذِهِ السطور، فإنه لن يجد جوابًا لهذا السؤال إلا أن يقول: لقــد انحصــرت وظيفة الفتى فِى الكون فِى أمرين لاَ يرى صاحب هَذِهِ السطور لهما ثالثًا.

أما أحدهما: فهو أنه قد أراد الله له أن يكون هو محل الربط بين ماضى هَــذِهِ الأمــة وحاضرها فِى زمانه.

وإلا فقل لى بربك مَا الذى جعل العناية الإلهية تختاره هو من بين إخوته ليكون محلاً للوفاء بنذر أبيه ؟

وقل لى بربك مَا الذى جعل الشيخ يذهب بالفتى فِى لحظة مهيبة إلَى أرض المســعى حيث مَا زال التاريخ يذكر نشاط هاجر وهى تبحث عن أسباب الحياة لها ولإســماعيل إن شئت أو لإسماعيل ولها إن أردت.

ولا أراك تصدق كَمَا لاَ أحب لنفسى أن أصدق مَا قاله البعض من أن عبد المطلــب إنما ذهب بولده إلَى أرض المسعى يذبحه عَلَى مرأى ومسمع من إساف ونائلة.

فياخيبة المسعى حينئذ، وياسخافة المقصد، وياضآلة الغاية.

إن الذى أعرفه ويعرفه التاريخ ويناسب مكانة الفتى والشيخ أن هَــذِهِ الوقــائع كلهــا ليست سوى مثيرات رجفة فِى صورة حية ومتحركة تزيل الغبار الذى تراكم عَلَى قصــة إبراهيم وإسماعيل.

ولولا نبل المقصد عَلَى هذا النحو لما قال النبى ﷺ مفتخرًا: « أنا ابن الذبيحين ».

ولما ابتسم حين قال له بعض الناس يناديه بلقب هو من أحب الأسماء إليه:« يَا ابــن الذبيحين ».

ليس عندى من شك والحالة هَذِهِ فِى أن الفتى إنما جاء ليربط الماضــى بالحاضــر،

وليزيل التراب المتراكم عَلَى تاريخ هَذِهِ الأمة والذى أو شك أن يطمس جانبًا هامًا من جوانب حياتها تتفاخر به عَلَى بطون بنى إسرائيل جميعًا.

وأما ثانيهما: فهو أنه قد أراد الله له أن يكون هو دون غيره هو الذى سينتقل منه النبى ﷺ مباشرة إِلَى رحم آمنة ليخرج بعد ذلك إِلَى الوجود يضئ الكون ويخرج الله الناس عَلَى يديه من الظلمات إِلَى النور.

لقد كان النبى ﷺ ينتقل منذ آدم عليه السلام من الأصلاب إِلَى الأرحام، الطفرة بعد الطفرة إِلَى أن جاء عصر عبد الله، فكان هو العصر الذى أراد الله فيه أن تستعلن شريعته من جبال فاران بمكة.

وما كان لبشر أن يتطلب من المشيئة الإلهية شيئًا بعد رضى الله عز وجل فوق مَا أتاحه الله لعبد الله من أبوته لهذا النبى الخاتم ﷺ.

إنه شرف يتيه به الزمان الذى ولد فيه عَلَى الأزمنة السابقة وَعَلَى الأزمنة اللاحقة عَلَى حد سواء، إذ ليس هناك من زمان شهد حياة أبى النبى ﷺ غير هذا الزمان الذى وجد فيه.

وعبد الله عَلَى كل حال قرن سبقه أمثاله من الآباء والأجداد، غير أن هذا القرن الذى هو عبد الله يتميز عن غيره من القرون الذين هم آباؤه وأجداده بأنه هو دون سواه الذى كان آخر رجل انتقل النبى ﷺ إِلَى صلبه ومنه إِلَى الوجود التاريخى مرورًا برحم آمنة بنت وهب.

وهما وظيفتان لعبد الله لاَ يجد كانت هَذِهِ الصفحات لهما وظيفة ثالثة تضاف إليهما.

وأراك مَا زلت عَلَى وعى كامل من أن عبد المطلب حين أراد لولده هَذِهِ الدّربة عَلَى أساليب التجارة ليستقبل بها حياته الاقتصادية، وليثرى بها موروثات الآباء والأجداد.

لم يشأ الله عز وجل له أن ينتفع بهذه الدّربة إذ ليست التجارة ولا غيرها من إحدى مهماته فِي الحياة.

وإن مهمته الأساسية التى لاَ مهمة له فوقها إنما هى هَذِهِ المهمة المزدوجة.

ربط الماضى بالحاضر.

وانتقال النبى ﷺ من خلاله إِلَى واقع التاريخ.

حزنت مكة حزنًا شديدًا علَى فتى عبد المطلب.

واتشحت أجواؤها بالسواد حزنًا علَى الفتى الراحل.

وتوالت الأيام والليالى والناس يقدرون الفتى لوظيفته التى قرنها الله بحياته، ولأنه قبل ذلك وبعده والد لهذا النبى ﷺ الذى يشرف به الآباء والأجداد كَمَا شرف به من بعد الأبناء والأحفاد.

مر الأمر علَى مَا مر عليه والناس يرتبطون عاطفيًا بالنبى ﷺ، ويرتبطون عاطفيًــا بآبائه وأجداده.

ويدفعهم إِلَى هذا الارتباط طبيعتهم وفطرتهم التى خلقهم الله عليها، كَمَا يــدفعهم إِلَــى هذا الارتباط بعض مَا سمعوه من رسول الله ﷺ له صلة بآبائه وأجداده علَى وجه العموم.

ومنه مَا أخرجه البخارى وغيره واللفظ للبخارى قال:[حدثنا قتيبة بن ســعيد حــدثنا يعقوب ابن عبد الرحمن عن عمرو بن سعيد المقُبرى عن أبى هريرة رضى الله عنــه أن رسول الله ﷺ قال: [بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القــرن الــذى كنت منه] (١).

وكلمة: « القرن » التى استعملها النبى ﷺ كلمة عربية.

وهى تطلق علَى المتميز من الأشياء والمكان والزمان والناس مجتمعين أو أفذاذًا.

ولذا كان من الطبيعى أن يلاحظ الناس الذين لهم بصر باللغة العربية أن من معــانى كلمة « القرن » السيد المتميز وآباء الرجل (٢).

ومنه [مَا أخرجه الترمذى وصححه عن واثلة بن الأسقع قال.قال رسولالله صلى الله

---

(١) فتح البارى علَى صحيح البخارى «٦١» كتاب المناقب – «٢٣» باب صفة النبى ﷺ ح رقم ٣٥٥٧ – ط السلفية جـ ٦ – صـ ٥٦٦.

(١) راجع لسان العرب مادة قَرَنَ، وشرح ابن حجر لهذا الحديث فِى فتح البارى، وانظر المنهل العذب المورود شرح سنن أبى داود– لسماحة الشيخ محمود خطاب السبكى رحمه الله جـ ٩ صـ ٩٤ ط الاستقامة القاهرة الطبعة الأولى ١٣٥٣هـ.

تعالى عليه وَعَلَى آله وسلم: « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من بنى قريش بنــى هاشــم واصطفانى من بنى هاشم ».

ولقد اطمأن الناس إِلَى هذا الحديث كَمَا اطمأنوا إِلَى أشباهه من نحو حديث البخـــارى المشار إليه قبل.

وأنا لاَ أفهم والناس لاَ يفهمون من الاصطفاء إلا هَذِهِ التنقية والترقية وإلا هَذِهِ التخلية والتحلية لطريق مرور النبى ﷺ من الأصلاب والأرحام.

وقد تكون من المجازفات الكبرى أن نرد التصفية إِلَى معنى هزيل، ثم نبقـــى عَلَـــى الكفر المستوجب للنار فِى آباء رسول الله ﷺ.

لقد بقى الناس إِذًا عَلَى علاقاتهم بالنبى ﷺ وآباء يحملهم عَلَى ذلك فطرتهم المستقيمة، ويحملهم عَلَى ذلك هَذِهِ النصوص العامة قطعية الثبوت وقطعية الدلالة.

وساعد الناس عَلَى هَذِهِ العلاقة الممتازة بالنبى ﷺ وآبائه مَا علموه عقلاً من أوليـــات الفكر حيث يعلم الناس أنه لاَ جريمة إلا بنص، وأنه لاَ عقوبة إلا بمخالفة لهذا النص.

والكفر والشرك من أكبر الجرائم، بل هو أكبرها عَلَى الإطلاق: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

وهذه الجريمة لاَ يجوز إلصاقها بصاحبها إلا بعد التأكد من أمرين:

أولا: أنه قد بلغته الدعوة الصحيحة وعُرضت عليه العرض الذى يريده الله ورسوله.

وثانيًا: أن نتأكد أن هذا الإنسان أو ذاك قد عاند، ورد النصوص صحيحة النسبة إِلَـــى الله، ورفض الانصياع إِلَى أمره ونهيه.

عندئذ فقط نسمهُ بالكفر، وننسبه إِلَى الشرك، أو بعبارة مختصرة نجرمه لأنه قد بلغه النص التكليفى، وأنه قد خرج عَلَى هذا النص وخالف فيه.

ولقد أجمع العلماء قاطبة أنه إذا اختل شرط من هذين الشرطين لاَ يجوز لأحد بحـــال من الأحوال أن ينسب إِلَى الكفر من لم نتأكد من تحقق الشرطين فيه.

وهذا هو صريح القرآن الكريم ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥].

وأنت لاَ تستطيع أن تجد جملة أصرح وأبلغ فِى الدلالة عَلَى هذا الموقف مـن هَـذِهِ الجملة القرآنية.

والحديث النبوى الشريف حين يتعرض لوجوب تحقق هذين الشرطين لجأت ألفاظـه إِلَى التهديد الشديد لمن يقذف أخاه بالكفر دون أن يكون متأكدًا من تحقق الشرطين فيه.

وأى تهديد أشد من أن يقول النبى ﷺ لمن رمى أخاه بالكفر مَا خلاصته:- من قـال لأخيه يَا كافر فقد باء بها أحدهما -[1].

وأظننى سأكون معك فِى فكرك حين أقول: إن عبد الله وأمثاله لم تبلغه دعـوة نبـى صحيحة ولا مكتملة، ولم يكن فِى زمانه دعوة دينية، ولا رسالة نبوية لم تمـد إليهـا يـد التحريف، ولم يؤثر فيها بُعد المسافة بين الأنبيـاء والأمـم مـع نقـص الأدوات ونـدرة التسجيل.

من أجل هذا كله وكثير غيره اطمأن الناس لعلاقاتهم برسول الله ﷺ وبحـبهم لآبائـه وأمهاته الذين مر النبى ﷺ فِى أصلابهم وأرحامهم.

الشَّانِئُونَ:

ثم جاءت أيام وليالى وأقبلت جميعها عَلَى الأمة الإسلامية، وقد شهدت أناسًا رأوا أن فِى وجود الدين الذى جاء به هذا النبى ﷺ، وَفِى انتماء الناس لشخصه خطرًا شديدًا عَلَـى مكانتهم الاجتماعية، وَعَلَى مَا يحققونه من ملء الجيوب والبطون، فأخذوا يكيدون للنبـى وآله كيدًا.

وكان من شأنهم أنهم قد تقسموا الأدوار وتوزعوا المهمات.

فمنهن من يقول: إن النبى ﷺ لاَ سيادة له ولا تميز، ومن أضفى عليه لقب السيادة أو التميز أو حتى صفة العظمة كان مشركًا.

---

(١) فتح البارى عَلَى صحيح البخارى - ٧٨ كتاب الأدب - ٧٣ باب: من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كَمَا قال - ح رقم ٦١٠٣ جـ ١٠ - صـ ٥١٤.

وقد لخصوا موقفهم ذلك فِى قولهم:- إن احترام النبى ﷺ شرك - ومنهم من رشق سنة النبى ﷺ بالأحجار وحذفها بالحصى، لاَ لشىء إلا لأن العلماء قد أدركوا نصيحة غالية وجهت إليهم من القرن الأول خلاصتها: أن من جادلكم بالقرآن فأفحموه بالسنة.

ومنهم من تخصص فِى الهجوم عَلَى الشريعة.

ومنهم من تخصص فِى الهجوم عَلَى العصر الأول...إلى غير ذلك من أدوارهم التى توزعتهم وقسموها عَلَى أنفسهم.

ومن بين هَذِهِ الأدوار مَا قامت به بعض الهيئات التى تزعم أنها تدافع عن النبى ﷺ وسنته من عمل شائن، يخالف القرآن ويخالف السنة، ويخالف العقل الرشيد، وهو قولهم: إن أبوى النبى ﷺ فِى النار مع العصاة والأشرار، ومع المنافقين والمعاندين، ومع كل من أبت مزابل التاريخ أن تضمهم إليها لما يحيط بهم من معرة.

وأنا أكاد أجزم أن هؤلاء يقولون كلامًا لاَ يقتنعون به، ويحاولون أن ينشروا بين الناس آراءً يعلمون قبل غيرهم أنها مخالفة للسنة وللقرآن ولاستقامة العقل الرشيد.

وكبراء القوم قد تبين أنهم يعملون لحساب جهات أخرى غير إسلامية.

أما صغارهم فهم يدورون فِى هذا الفلك، يدفعهم إليه إما البغضاء التى تظهر من أفواههم حصرة عَلَى مواقفهم ونقص أدواتهم، وتخلفهم عن الركب لسنوات، واستمرار هذا التخلف دون أن يروا لمدته آخرًا، وإما الرغبة فِى أن يستجلبهم أرباب المال إِلَى أماكن الثراء فيغترفون منها مالاً حتى يعوضوا مَا فاتهم من تحصيل المراكز العلمية بهذا التميز الاجتماعى عن طريق الغنى والثراء.

ولا بأس بعد ذلك عندهم أن يخالفوا القرآن.

ولا بأس بعد ذلك عندهم أن يخالفوا السنة.

ولا بأس بعد ذلك عندهم أن يخالفوا العقل الرشيد والفكر المستقيم.

وهم قادرون لاَ شك مقدرة فائقة متميزة عَلَى الشتائم، وإلصاق التهم بمن خالفهم الرأى أو بمن خالفوه.

فإذا كان كبراء هَذِهِ الطوائف يقولون: إن أبوى النبى ﷺ فِى النار دون غيرهم، بقصد

إرضاء جهات أجنبية فلا بأس أن يقوم صغارهم بمحاولة إيجاد المواقف التبريرية، مصطنعين لذلك الكذب والحيل، ومصطنعين لذلك التدليس والتعمية عَلَى الناس.

حُجَجٌ دَاحِضَةٌ:

أما الحجج التى يريد صغار القوم أن يبرروا بها آراء كبرائهم تزلفًا لهم بقصد ملء الجيوب والبطون، فمنها هذا الفهم المشئوم والنكد لبعض آيات القرآن الكريم.

فهم يتعلقون مثلاً بنحو قوله تعالى فِى سورة البقرة: ﴿ وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وتمامها: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

واختلقوا لفهمهم النكد لهذه الآية قصصًا من بنات أفكارهم مؤداها: أن النبى ﷺ حين سأل ربه فِى أبويه أنزل عليه هَذِهِ الآية: « وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ».

والآية هَذِهِ لها سباق ولحاق، ولا يجوز لها أن تنزع من مكانها لتفهم عَلَى انفرادها عَلَى نحو مَا تعود القوم أن يدلسوا عَلَى الناس فِى إفهامهم للقرآن الكريم.

إن هَذِهِ الآية عَلَى كل حال قد نزلت فِى سياق تصوير الله عز وجل لموقف اليهود من المسلمين، وموقف النصارى من اليهود، وموقف اليهود من النصارى، ومـا ادعاه كل فريق منهم من دعاوى كاذبة كقول اليهود: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا ﴾ وقول النصارى: « لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا، بحيث يلتئم من قولهما جميعًا - ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾.

ومع هذا القول الجامع فإن النصارى يقولون ليست اليهود عَلَى شىء

وأن اليهود يقولون: ليست النصارى عَلَى شىء.

وهم جميعا يتلون الكتاب.

وَفِى هذا الخضم العكر الذى حاول أهل الكتاب أن يخلطوا الأوراق تحت ستار منه، وأن يصطادوا من خلاله، كلٌ يلتقط مَا يحلو له.

وبعد هذا العرض الذى عرضه القرآن أمام الناس ليتعظوا، أخبر النبى ﷺ أن مهمته البلاغ، وأن كل واحد من الخارجين عن منهج الحق بعد أن بلغته كلمة الحق ستكون مسئوليته عَلَى نفسه، وأنك لن تتحمل من أوزارهم شيئا.

قل لى بربك: مَا علاقة هذا السياق بأبوى النبى ﷺ أن يكونا فِى الجنة أو فِى النار ؟

إنما هى الرغبة فِى الثراء ولو عَلَى خلاف المثل السائر بين الناس « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ».

وأهم مَا اصطنعه القوم فِى هذا المجال هذا الحديث الذى رأوه رَاوِيًا للغليل، وشافيًا للعليل، وَمُخرِص للمتكلم، ومُلجم لكل متحدث، مَا رواه الإمام مسلم بن الحجاج فِى صحيحه من النص عَلَى أن أبَا النبى ﷺ فِى النار.

وهم يقولون بعد أن مزجوا قولهم بالمكاء والتصدية، وصاحَ كل واحد منهم عَلَى مثال مَا صاح أرشميدس حين اكتشف قانون الطفو « وجدتها وجدتها ».

والتطابق بين أرشميدس وآحاد هذا الفريق تطابقًا كاملاً، فلقد صرخ أرشميدس وهتف بما هتف به ونسى أنه قد خرج من البحر عريانا لاَ يستر عورته شىء من الأشياء، فلما نُبه إِلَى ذلك كأنه قال: لاَ بأس أن أخرج بين الناس بعورة مكشوفة، إنما البأس كل البأس هو أن تغيب عنهم هَذِهِ الحقيقة.

لقد وجد أرشميدس له مندوحة.

أما هؤلاء القوم فقد خرجوا من بحار العلوم عراة لاَ يجدون مَا يسترون به عورتهم، ولا يملكون بين أيديهم حقيقة يعلنونها بين الناس.

إنها المكاء وإنها التصدية.

تُرى مَا هَذِهِ الحقيقة التى وجدوها، ووجدوا فيها مندوحة فِى أن يخرجوا أمام الناس عراة ؟!

إن الحقيقة التى وجدوها واكتشفوها هى المتمثلة فِى النص الصريح المقطوع به والذى يؤكد أن أبَا النبى ﷺ فِى النار، ولا بأس أن تدخل النار آمنة مع زوجها، إذ لاَ فرق فِى هذا الحكم بين أمه وأبيه.

حَدِيثٌ وَمَوْقِفٌ:

سبق لى أن كتبت مرة فِى مناسبة المولد النبى الشريف تحت عنوان: « حديثان وموقف ».

وسبق لهذا العنوان أن تعرض للسطو عليه في مجتمع ضم أناسًا لاَ يعرفون الغث من السمين.

وأعود اليوم مرة أخرى لأكتب فقرات تحت هذا العنوان: « حديث وموقف ».

١ - أما الحديث فهو مَا أخرجه الإمام مسلم فِي صحيحه إِلَى أنس.

وهو حديث سوف أخلي بينك وبينه الآن بغير تدخل مني في البداية.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه قال: [حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس، أن رجلاً قال: يَا رسول الله أين أبي ؟ قال:« في النار » فلما قفى دعاه فقال:" إن أبي وأباك في النار] [1].

هذا هو الحديث.

وهو بظاهره وظهوره فِي مكانه من الكتب لاَ يحتاج إِلَى زهو فيه بادعاء اكتشـافه، ولا يحتاج إِلَى مكاء ولا إِلَى تصدية، فضلاً عن أن يكون اكتشافه مبررًا لأن يخرج الناس من بحار العلم عراة كعرى أرشميدس.

وما ذاك إلا لأن ألفاظ الحديث ظاهرة.

وما ذلك إلا لأن الحديث مروى فِي كتاب هو من أصح الكتب، بل هو أصحها بعـد كتاب الله وصحيح البخارى.

٢ - أقول هذا هو الحديث فما عسى أن يكون الموقف ؟

إنني سأحاول أن أجيب عَلَى هذا التساؤل للمرة الثانية برغم مَا وصل إلينا من قولهم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم.

وإنا لاَ نملك إلا أن نقول والحالة هذه: ربنا زدنا إيمانًا وعلما وزدنا محبة لك ومحبـة لرسول الله ﷺ.

أما الإمام السيوطي قله الله لقد تعرض لنيران الغضب ومدافع الحقد، لاَ لشـيء إلا

---

(١) مسلم «١» ك الإيمان «٨٨» باب بيان أن من مات عَلَى الكفر فهو فِي النار ح رقم ٣٤٧.

لأنه دافع عن قضية أثبتها القرآن وأثبتها الحديث النبوى الشريف.

وليس للرجل من جريمة نعلمها إلا أن يكون الله عز وجل قد رزقه علمًا فِى الفقة وأصوله، وَفِى التفسير وعلومه، وَفِى الحديث وما يخدم الحديث من علوم متعددة، وَفِى علم قواعِد الشريعة...إلخ.

فالرجل عَلَى كل حال هَذِهِ جريمته التى استحق بها العقوبة، وتعرض بها للتأديب عَلَى لسان أحد جهابذة العلم المحدثين، نعم عَلَى لسان أحد جهابذة العلم المحدثين.

لك الله يَا جلال الدين، ولنا الله معك.

ألا فلتعلم يَا جلال الدين وأنت فِى مرقدك أن من أحب رسول الله ﷺ فعليه أن ينتظر البلاء والاختبار والامتحان.

وأستأذنك يَا جلال الدين أن نقول معًا: حسبنا الله ونعم الوكيل، ورجاؤنا أن يرزقنا الله مَا بعدها.

أما هذا الحديث الوارد فِى صحيح مسلم فهو كَمَا ترى من رواية حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس.

وهذا الإسناد من هذا الطريق صحيح.

فماذا عسانا أن نفعل بهذا الحديث ؟

إن أمامنا فِى الإجابة عَلَى هذا السؤال طريقين:

أحدهما: أن نتناوله من حيث الرواية « أى الفقه والفهم فِى الحديث ».

وثانيهما: أن نتناوله من حيث الدراية.

وسأحدثك عنه الآن من حيث الدراية.

وأنت خبير ولا شك أن الحديث إذا كان صحيحًا وعارض القطعى [1] من نصوص القرآن الكريم فلا بد له من مخرج يحافظ عَلَى استقامة العلم الشرعى من ناحية، وَعَلَى

---

(١) القرآن كله قطعى الثبوت، وَفِى القرآن مَا يكون ظنى الدلاله، والآية التى معنا قطعية الثبوت وقطعية الدلالة عَلَى السواء " وما كُنَّا معذبين حتى نبعث رسولا ".

هيبة السنة من ناحية أخرى.

وأقرب المخارج عندى هو مَا يعتمد عَلَى تأويل الحديث وصرفه عن الدلالة الأولى التى تتبادر إِلَى الذهن بادى الرأى.

وهذا أمر سهل ميسور حيث قال العلماء: لاَ بأس أن يكون النبى ﷺ قد قصد بأبيه أحد من بلغتهم الدعوة من عمومته كأبى لهب وأبى طالب ولم يؤمنوا معه.

وهذا التخريج – لو سلمت الصدور – كان من الممكن أن يريحنا ويريح الناس، ويرفع هذا التعارض بين القرآن من جهة وهذا الحديث من جهة أخرى.

أقول – لو سلمت الصدور – لأشير إِلَى هذا الفصام النكد الكائن فِى الأمة عَلَى مستويات عدة، ليس فِى صدرى الآن متسع لتعدادها أو حتى الإشارة إليها.

وأنت عَلَى ثقة من أن النبى ﷺ حريص عَلَى مشاعر المؤمنين لاَ يجرحها.

وقصة الحديث ظاهرة لك وهى عبارة عن رجل يسأل النبى ﷺ عن مصير أبيه، والنبى ﷺ الذى لاَ ينطق عن الهوى يجيب الرجل بحقيقة الأمر، والرجل قد سخنت عليه جلدته، وحمى صدره حيث علم عَلَى رءوس الأشهاد أن أباه فِى النار.

وأنا لاَ شك عندى فِى أن أبَا الرجل قد عاصر النبى ﷺ وعرض عليه الإسلام ورفض أن يدخل فيه، فهو إذًا فِى النار.

لكن النبى ﷺ قد وجد أن الرجل قد حميت عليه جلدته، وضاق به صدره، وتصبب لذلك عرقًا من شدة الخجل، فأعاده النبى ﷺ إليه بعد أن انصرف، أو سأله الرجل قبل أن ينصرف فقال له: أين أبوك ؟.

ولكى يحافظ النبى ﷺ عَلَى مشاعر هذا الرجل لجأ إِلَى التورية، والتورية فِى مثل هَذِهِ الأمور طريقة يمكن اصطناعها لاستنقاذ نفس ربما يدفعها هذا الموقف لأن ترتكس فِى حمأة الكفر، فقال النبى ﷺ له: إن أبى وأباك فِى النار.

هذه هى التورية بعينها؛ فإن الأب يطلق بالاشتراك عَلَى الأب الحقيقى، وَعَلَى إخوة الأب الذين هم أعمام الأبناء.

وتلك طريقة فِى العرب قَدِ اتسعت لها لغتهم، ووسعتها أفئدتهم.

والسيوطى رحمه الله قد لجأ إِلَى هَذِهِ الطريقة حين أراد أن يعتمد عَلَى إنقاذ الموقف الذى وضع فيه المحدثون من طريق الدراية بالحديث ومعرفة فقهه والوقوف عَلَى حقيقة معناه من خلال تصور الموقف واحتواء الواقعة وإدراك حال الطرفين ولا لوم عَلَى السيوطى أن يفعل ذلك ألا يكون اللائم من الشانئين عليه حسدًا من عند أنفسهم.

وأمَا استنقاذ هذا الموقف الذى يبدو فِى ظاهره التعارض بين حديث صحيح، وآية قرآنية مقطوع بها من جهة الرواية، فإن ذلك يمكن أن يحدث من خلال النظر فِى الراوى، ومن خلال النظر فِى طرق الحديث.

ومن حسن الحظ ويمن الطالع أن هذا الحديث روى من طرق متعددة وعن عدة من الصحابة.

وجميع روايات الحديث تخالف من حيث ألفاظها ألفاظ الحديث الوارد من هذا الطريق.

فالحديث منقول عن سعد بن أبى وقاص، وعن عبد الله بن عمر بالإضافة إِلَى أنس، وهم جميعهم صحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

وهم جميعهم عدول بتعديل الله عز وجل لهم.

ولى أن أوقفك الآن عَلَى هَذِهِ الطريق التى انتهت إِلَى ثابت.

وثابت لم يحدث بهذا الحديث حمادًا وحده، وإنما حدث به كثيرين من بينهم معمر بن راشد.

وعمار أوثق من حماد حيث تُكلم فِى حفظ حماد، وأنه لجأ فِى آخر حياته إِلَى أن حدث من الكتب، فلما حدث أن سرقت بعض كتبه لجأ إِلَى ذاكرته يحدث منها.

وأقول تكلم فِى حفظه، وَهَذِهِ مسألة لاَ يقوى من أصابتهم نوبات الانفعال أن ينكروها.

ولو كان حماد حيًا وسئل عن مدى ثقته فِى حفظه فِى فترته المتأخرة لقال كَمَا قال غيره كبرنا ونسينا.

وضعف الذاكرة لاَ يعيب الرجل فِى دينه، وليس هناك أحد من الناس أعلمه قَد استطاع أن يطعن فِى دين حماد حقًا أو كذبا.

وفِى إحدى جلسات العلم بين أربابه ذكر حماد بما يستحقه من أسباب الزهو والفخـر، فسلم الحاضرون جميعًا بأسباب فخره وزهوه ومركزه الدينى غير أن بعضهم قـال: هـل سألتم العلماء عن حفظه ؟

الرجل إذًا عالى الرأس مرتفع الهامة فِى مكانته الدينية، غير أن الكمـال لله وحـده، والعصمة لأنبيائه، فذاكرته قد أصابها شىء من الوهن، ودليل ذلك مَا يلِى:

أنه قد روى بعض الأحاديث التى تخالف معتقده فِى الله وتخالف معتقد الأمة، لما فيها من التجسيم الغليظ فاعتبرها العلماء أو بعضهم علَى الأقل من المناكير [1].

ودونك هذا الحديث من روايته وهو منكر كمَا سترى، فقد روى [عن ثابت عن أنس: أن النبى ﷺ قرأ: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ [الأعراف:١٤٣].

قال: [أخرج طرف خنصره وضرب علَى إبهامه فساخ الجبل][2].

وأنا لاَ أعلم موقف المنفعلين الذين يفهمون العلم بعصبية، هـل بـردت الآن علـيهم جلدتهم أم لاَ ؟

ومع ذلك فأنا منصرف عنهم إلَى هذا السؤال العارض.

هل هناك من الأمة غير من حسب عليها من المجسمة والحشوية من تتحمل مشاعره هذا التجسيم الغليظ ؟

ولا إجابة عندى علَى هذا التساؤل إلا مَا يدركه القارئ بحسه ووعيه.

حماد إذًا لم يطعنه أحد فِى خلق ولا دين، أو هو لم يطعنه أحـد فِـى عدالتـه علَـى مصطلح المحدثين.

ولم يكن حماد وحده كمَا علمت هو الذى سمع هذا الحديث من ثابت عن أنس، وإنمـا

---

(١) قال الذهبى: حماد ثقة له أوهام، وله مناكير كثيرة، وكان لاَ يحفظ، فكانوا يقولون: إنها دست فِى كتبه!

(٢) هذا الحديث أخرجه أحمد والترمذى والحاكم وقال: صحيح علَى شرط مسلم.

وأورده ابن الجوزى فِى " الموضوعات " وقال: " إنه لاَ يثبت، وأنه مما دسه ربيبه عليه .

والمناكير فِى رواية حماد كثيرة، وإنما أوردت هذا الأنه بسند الحديث الذى نحن فِى تعليله.

سمعه معه غيره ومنهم معمر بن راشد.

ولم يقل معمر فيما رواه عن ثابت البنانى: إن أبى وأباك فِى النار، وإنما قال: حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار.

وكلا الرجلين « حماد ومعمر » يرويان عن راو واحد هو ثابت البنانى عن أنس بن مالك.

ولما كان معمر أثبت لم يتكلم فِى حفظه ولم يطعن فِى عدالته، ولم يروِ المناكير، واتفق الشيخان عَلَى إثبات حديثه.

ولما كان حماد قد تكلم فِى حفظه وروى المناكير، واحتمل العلماء أو بعضهم عَلَى الأقل أن يكون ربيبه قد دس عليه فِى الكتب التى يقرأ منها.

لما كانت الحيثيات عَلَى هذا النحو، ترجح عندنا رواية معمر عَلَى رواية حماد.

ولا بأس أن نقول كَمَا قال غيرنا: إن حماد لعله قد روى الحادثة بالمعنى فوهم، لما سبق إليه من فهم عبارة النبى ﷺ عَلَى أنه يريد أن يخبر أن أباه فِى النار.

وكثيرون من المحدثين قد قالوا: إن هناك رجالاً ربما يسبق إليهم هذا الوهم، وَعَلَى جهابذة العلم إدراكه.

ومما يقوى رواية معمر هَذِهِ الروايات الأخرى من طرق مختلفة إِلَى عدة من الصحابة كَمَا بيناه سلفا.

روى إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب الزهرى عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه " أن أعرابيًّا قال لرسول الله ﷺ: أين أبى ؟ قال: فِى النار – قال: فأين أبوك ؟ قال: " حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار" فأسلم الأعرابى بعد فقال: لقد كلفنى رسول الله ﷺ تعبًا.ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار] (1).

---

(1) أخرجه الطبرانى فِى المعجم الكبير ١٤٥/١ « حديث ٣٢٦ »، وهو عند الهيثمى – مجمع الزوائد ١١٨/١، وقال عنه رجاله رجال الصحيح، وهو فِى كشف الأستار عن زوائد البزار ٦٥/١، وأخرجه ابن النسفى فِى عمل اليوم والليلة « باب مَا يقول: إذا مر بقبور المشركين – ح رقم ٥٩٥ – ط /مكتبة التراث الإسلامى.

وعن [إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب الزهرى عن سالم بن عبد الله بن عمر عـن أبيه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال:" جاء أعرابى إِلَى النبى ﷺ فقال: يَـا رسـول الله: إن أبى كان يصل الرحم وكان...فأين هو ؟ قال: فِى النار.

قال: فكأنه وجد من ذلك – أى حزن – فقال: يَا رسول الله فأين أبوك ؟ قال رسـول الله ﷺ: حيثما مررت بقبر مشرك فبشره بالنار.

قال: فأسلم الأعرابى بعده قال: لقد كلفنى رسول الله ﷺ تعبًا، مَا مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار] (١).

وَفِى مسند أحمد بالسند إِلَى لقيط بن عامر حيث ذهب ومعه غيره لمقابلة رسـول الله ﷺ من حديث لاَ يخلو من طول نجتزئ منه هنا مَا يناسب المقام قال:[...وأقبلـت عليـه فقلت: يَا رسول الله هل لأحد ممن مضى من خير فِى جاهليتهم ؟

قال: قال رجل من عرض قريش: والله إن أباك المنتفق – هو اسم أبيه – لفى النار.

قال: فلكأنه وقع حر بين جلدى ووجهى ولحمى مما قال لأبى عَلَـى رءوس النـاس، فهممت أن أقول وأبوك يَا رسول الله، ثم إذا الأخرى أجهل فقلت: يَا رسول الله وأهلك ؟

قال: وأهلى.

لعمر الله ما أتيت عليه من قبر عامرى أو قرشى من مشرك فقل: أرسلنى إليك محمد فأبشرك بما يسوءك تجر عَلَى وجهك وبطنك فِى النار.

قال: قلت يَا رسول الله مَا فعل بهم ذلك وقد كانوا عَلَى عمل لاَ يحسـنون إلا إيـاه، وكانوا يحسبون أنهم مصلحون ؟

قال: ذلك لأن الله عز وجل بعث فِى آخر كل سبع أمم – يعنى نبيًا – فمـن عصـى نبيه كان من الضالين ومن أطاع نبيه كان من المهتدين] (٢).

---

(٢) أخرجه ابن ماجة فِى كتاب الجنائز « باب مَا جاء فِى زيارة قبور المشركين ١/٥٠١ ط دار الفكر العربى، للطباعة والنشر والتوزيع، وانظر السبكى المنهل ج٩ ص ٩٤ مرجع سبق ذكره.

(١) مسند أحمد ج ٤ / ص١٣، ١٤ – ط. دار الفكر العربى بدون.

فَائِدَةٌ:

وأحب هنا قبل أن نستطرد أن أقف بك لنتحدث فِي أمر هام.

وهذا الأمر الذى أريد أن أحدثك فيه هو: أن العوام من شباب الأمة قد يقع نظر الواحد منهم عَلَى حديث واحد، ظاهره أنه يشتمل عَلَى حكم فِي العقيدة أو فِي الفروع، وقد يكون هذا الحكم مخالفًا لما عليه الأمة، فلا يكلف نفسه شيئًا من البحث عن نصوص أخرى لها علاقة بالموضوع نفسه.

والذى يصرفه عن البحث وعن الرغبة فيه إما أن يكون كسله ومحبته الشديدة فِي النوم والراحة وهذا الاحتمال قليل لاَ يوجد إلا فِي بعض الأفراد.

وهناك احتمال آخر هو الأقرب عندى والأقوى، وهو أن الواحد من هؤلاء حين يقع عَلَى حديث فِي ظاهره حكم عقدى، أو حكم فِي فرع من الفروع يخالف مَا تعارفت عليه الأمة ينتشى بهذا الحكم إنتشاءً عجيبًا، ويخرج عَلَى الناس مخالفًا لهم ولأئمتهم بفتاواه التى يبعثرها هنا وهناك وَعَلَى وجهه ابتسامة السخرية من الجميع، والحط من شأن الأمة وعلمائها.

وأنا قد ورد عَلَى ذهنى الآن مثال من كلام بعضهم - وهو ظاهر بينهم - وَفِي هذا الكلام الذى ورد عَلَى ذهنى الآن سب ولعن العلماء الأمة كلهم بأسلوب أستحى من أن أذكره وهو ضمن قصيدة نونية مشهورة.

ومع ذلك فإنى سأصرف نفسى عن هذا المثال لكثرة الأمثلة التى تملأ المساحة.

ومنها: مَا ذكروه من أن الزكاة فِي عروض التجارة بدعة، والقائل بوجوبها معتز برأيه مخالف للمسلمين ولنبى الإسلام.

ومنها: أن من اعتكف فِي مسجد أو جامع فإن اعتكافه بدعة منكرة مخالفة للكتاب والسنة والسلف الصالح إلا أن يكون الاعتكاف فِي المساجد الثلاثة.

ومنها: أن صيام السبت حرام كصيام يوم العيدين بل أشد، ولا يجبر هَذِهِ الحرمة عندهم صيام يوم قبله أو يوم بعده.

ولما خجلوا من بعض النصوص الصريحة التى ووجهوا بها تراجعوا قليلاً وقالوا:

يجوز صيام يوم السبت لو سبقه صيام يوم الجمعة.

وأشياء كثيرة أخرى ثقلت بها الكتب وناءت بها الكواهل، وتصدع عَلَى أثرها رباط الأمة.

والسبب فِي كل هذا وكثير غيره هذا المنهج المشئوم الذى يحمل أصحابه عَلَى أن يتبعوا الغريب من الآراء، فإن لم يجدوا هذا الغريب ابتدعوه واختلقوه.

واصطنع لهم كبراؤهم المنهج الذى يقول يكفى الاعتماد عَلَى حديث واحد وغيره من الأحاديث أو آراء العلماء أو حتى آيات القرآن ينبذونها وراء ظهورهم، ويتخذوا لأنفسهم ستارًا دونها.

ولولا أن هَذِهِ الصفحات لاَ تحتمل أن أزيدك شيئًا من هذا الاتجاه النكد لفعلت.

غير أن أملى فِي الله لكبير أن يوفقنى لإتمام بحث حول الاجتهاد فِي الإسلام عَلَى منهج إسلامى، والاجتهاد عَلَى مناهج المغرضين.

والذى يعنينى هنا هو أننى قد جمعت لك روايات متعددة لحديث واحد الأمة كلها مجمعة عَلَى اتجاه فيه، وطائفة ممن حسبوا أنفسهم عَلَى هَذِهِ الأمة قد سلكوا طريقًا آخر غير مَا عليه الناس فِي فهمهم لروايات هذا الحديث الواحد.

وهؤلاء القلة قد أكلت عقولهم عبارة حفظوها عن ظهر قلب وهى: « خذ الكلام بالمعنى الأول واحمله عَلَى أول مَا يسبق إِلَى ذهنك، ثم خالف به الناس واللغة والنصوص، بل حتى التقديس لله عز وجل، فإذا سألك سائل فقل عندنا خاتم سليمان، وهو المتمثل فِي البلكفة أو بلاكيف فِي العقائد ».

هذه العبارة أكلت عقولهم أكلاً.

ومن الأمثلة التطبيقية روايات هذا الحديث معنا: لقد قالوا: إن أول مَا قرأناه فِي هذا الموضوع « أبى وأبوك فِي النار » وهو واضح الدلالة عَلَى أن أبوى النبى ﷺ فِي النار، إذ لاَ فضل لأمه عَلَى أبيه.

هذا مَا فعلوه وجمدوا عليه جمودًا أغراهم بالاستمرار فيه نكارة الموقف وغرابته.

وأنت خبير أن من يحب الزعامة يبحث عنها فِي مصادرها الشرعية فإن لم يجدها،

بحث عنها فِي الشذود.

وقد سبق أن ذكرت لك حادثة غريبة عن رجل أحب الظهور واصطنع له كل وسيلة، ولكنه لم يستطع أن يجد الوسيلة المشروعة إليه، فذهب مع الذاهبين إِلَى الحج فلما اجتمع الناس عند زمزم وقف أمامهم جميعًا وبال فِي البئر، فاجتمع الناس عليه يؤذونه بالقول والفعل، وهو يقول: اصنعوا مَا شئتم فلقد أردت أن أحقق لنفسى لونًا من الظهور بطريقة مشروعة فلم أجد، فما كان منى إلا أن فعلت هذا الفعل المنكر لأظهر بين الناس، ولأحقق التميز بين العالمين.

عَوْدَةٌ بَعْدَ الاسْتِطْرَادِ:

ونعود إِلَى الحديث وهو بمجموع رواياته يفيد:

أولا: أن السائل لم يكن من حاضرة المسلمين – مكة أو المدينة – وإنما هو من الأعراب.

ثانيًا: أن الرجل لم يكن قد أسلم بعد حتى يعصمه إسلامه من حساسيات المواقف.

ثالثًا: أن الأعراب يعتمدون عَلَى ركيزة أساسية عليها محور حياتهم جميعًا هي العصبية للعائلة والغيرة عَلَى القرابة والنسب.

رابعًا: أن الرجل حين طلب أن يقف عَلَى حقيقة مصير أبيه، أجابه النبى ﷺ بأنه فِي النار.

خامسًا: وحين سأل الرجل ولماذا فى النار وهو كان رجل حسن السيرة بفعله وقوله أجابه النبى ﷺ أن الله يبعث رسله للأمم فمن أجاب دخل الجنة ومن عارض عاقبه أو يعفو.

هذه النقاط المحددة قد أخذت من مجموع الروايات لهذا الحديث.

وهى كلها إلا رواية واحدة ليس فيها مَا ينطبق عَلَى عبد الله ولا عَلَى غيره من آباء النبى ﷺ، الأمر الذى يجعلنا لاَ نتردد إما أن نؤول رواية حماد، أو نقول: إنه وهم أو أخطأ فِي فهم الحديث فوضع عبارة من عند نفسه، أو نقول: إن حماد لضعف ذاكرته فِي الحفظ كان يحدث من كتاب، فلما سرق الكتاب أو دس عليه فيه حدث بهذا الحديث عَلَى

نحو مَا حدث بأحاديث أخرى عدها العلماء من المناكير.

وأنت خبير يَا صَاحِ بأن حماد ثقة، وأن معمر بن راشد أوثق منه.

وإذا خالف الثقة من هو أوثق منه فِي شيء عد هذا الشي شاذًا.

كلمَةٌ مُجْمَلَةٌ

أريد قبل أن أنصرف عنك أن تكون كلمة وداعي لك أن أهنئك أولاً بموعد ميلاد رسول الله ﷺ .

وأنت عَلَى رأس أمرك فِي قبولك لهذه التهنئة أو رفضها.

وأنت عَلَى رأس أمرك كذلك فِي أن تعد هَذِهِ التهنئة من باب مَا تعارف عليه الناس من المجاملات فِي المناسبات الاجتماعية، أو تعتبرها من باب هَذِهِ النوعية من العلاقات التي تربطنا برسول الله ﷺ خاصة.

وليس أمامك من موقف يمكن أن تصطنعه ردًا عَلَى هَذِهِ التحية التي حييتك بها فوق هَذِهِ الاحتمالات التي ذكرت لك.

وبعد هَذِهِ التحية أقول: لقد قضيت معك فترة تجاذبنا فيها أطراف الحديث حول الفتى الذي نجَا.

وأنا الآن أجمل لك الأمور التي نجا فيها:

فالفتى قد نجا من النسب الهابط الذي ينزل به إِلَى هَذِهِ الطبقة التي لاَ يهمها الحفاظ عَلَى أنسابها.

والفتى قد نجا من ظلال الشرك الذي يمكن أن يلاحقه من اسمه الدال عليه، فهو عبد الله وكفى.

والفتى قد نجا بأمر الله ومشيئته من الذبح بالفداء، كَمَا نجا أبوه إسماعيل من قبل فِي أعالي التاريخ.

والفتى قد نجا بخلقه من سفاسف الأمور ولو كان مجتمعه يبيح الكثير منها.

والفتى قد نجا أخيرًا من النار بنص القرآن الكريم، بل وبنصوص القرآن الكريم.

وأنا أحب أن أختم بهذه الآية الكريمة، وأقرؤها عَلَى غير قراءة حفص: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨].

ترى ماذا يقول القائل فِي قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ بفتح الفاء فِي « أنفَس » ؟

واسمح لي أن أودعك عَلَى هذا التساؤل والحمد لله أولا وآخرًا.

زَهْرَةُ بَنِى زُهْرَةَ
آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ أُمُّ النَّبِىِّ ﷺ

تمهيد

فِي القسم الأول من هَذِهِ الدراسة تناولنا أشياء كثيرة، وكان من بين مَا تناولناه آبــاء النبي ﷺ، وكيف ألقى التاريخ بالضوء عَلَى أعمالهم.

ولقد وقفنا وقفة طالت أو قصرت عند عبد الله بن عبد المطلب الــذى أخــذ بألبــاب العقلاء وقلوب المتدينين عَلَى السواء.

فما تصوره عاقل من العقلاء إلا وأخذ بتلابيبه، وأدهشته تصرفاته واندهش لمقدمــه ورحيله.

ولم يقف أمامه متدين أو عاطفى نضجت عواطفه إلا وأحبه حبًا بغير حدود، وأيقــن أن ظهوره فِي التاريخ لم يكن ظهورًا عاديًا، وإنما هو قَدْ ظهر فِي التاريخ لوظيفة يؤديها، ثم هو لم ينصرف عن حياتنا الدنيوية انصرافا عاديًا كذلك، فلم يكد ينج من الموت ذبحــا بيد أبيه حتى تلقفته حبال الموت غريبًا عن بلده وذويه.

تناونا هذا كله كمَا تناولنا غيره من الممهدات التى أدت بنا إِلَى الاعتقاد بأن صـــاحب الساحة وعظيمَها قادم لاَ محالة، وأنه قَدْ أظل زمانه، ولم يعد إلا أن ينتظــره المنتظــرون عَلَى شوق لرؤياه، ورغبةٍ فِي اتباعه، عَلَى سبب من أسباب الاتباع التى تختلف بــاختلاف النوازع والأغراض.

ولا يضر بنا ولا بالتاريخ أن يأتى منكر من المنكرين أو شانئ مــن الشــانئين هَــذِهِ الممهدات أو بعضَها، أو ينكر دلالة هَذِهِ الممهدات عَلَى قرب ظهور القادم العظيم.

إنه لاَ يضرنا ولا يضر التاريخ أن ينكر المنكرون هَذِهِ الممهدات، أو ينكروا ارتباطها بنتائجها، لأن المنكر للواضحات لاَ يجوز له من الجائزات إلا أن يحمل قلمه ويرحل بعــد أن يريق مَا عسى أن يكون فِي محبرته من بقايَا المداد عَلَى مَا كتبه من رأى شانه عَلَــى أوراق لاَ تشرف بمثل هَذِهِ الآراء، ثم لاَ يجوز له بعد رحيله أن يدعى ملكيته لأدوات العلم أو وسائل المعرفة.

ومن حسن الحظ أن الشانئين عَلَى كثرتهم لاَ تذهب صرخاتهم إلا كَمَا يذهب الصوت فِي الصحراء بغير رجع للصدى، فهم ليس لهم من مؤثرات أمام عقل العــاقلين، وإيمــان

المتبتلين.

عَلَى أننا قَدْ رأينا أن الصورة التى أردنا أن نرسمها للساحة قبـل أن يـدخلها هـذا العظيم، لاَ تكتمل إلا إذا تحدثنا عن أم النبى ﷺ باعتبارها عظيمة، وكان لها دور سـببى فِى وجود النبى ﷺ لاَ يستطيع التاريخ أن يغفله ولا يقدر الواقع أن يتنكر له.

ولقد شاء الله – ومشيئته نافذة – أن تتعرض أم النبى ﷺ كَمَا تعرض أبوه وذووه إِلَى شنآن الشانئين وحقد الحاقدين عليه وعلى، فحاولوا النيل من آمنة ومكانتها فِى الدنيَا، كَمَـا حاولوا النيل منها ومن مكانتِها فِى الآخرة.

ولما رأى هؤلاء أن سيوفَهم مفلولةٌ، وأسلحتَهم منهزمة، قالوا فِى شىء من الخبـث: اتركوا من مضى من الناس عَلَى حالهم، لكن لاَ بد أن تعلموا أن النبى ﷺ هو الذى أخبـر بسوء المصير لأبويه، وكان علينا أن نقف وقفة الغيور؛ للدفاع عن النبى ﷺ وأهلِه دفـاع من لاَ يجافى الحق ولا يعدو المنطق.

ولما طال انتظار الكون لعظيم الساحة، رأينا أن ندخل إليها منتظرين لحظـة دخـول عظيم الساحة إِلَى الساحة؛ كى نشرف بلقائه سائلين اللهَ أن يأذن لـه بالشـفاعة لنـا، وأن يسقيَنا من يده الشريفة شربة لاَ نظمأ بعدها أبدًا.

أمٌ عظيمةٌ لنبيٍ عظيمٍ

النَّسَبِ الطَّاهِر

لقد حرص العرب فيما يسجل المؤرخون لهم – عَلَى رفعه النسب وطهارة المنبـت، وتناصحوا بذلك حتى ظهر هذا النصح فيما أثر عنهم شعرًا ونثرًا.

فلقد قال قائلهم نثرًا:

« لاَ يفتننكم جمال الناس عن صراحة النسب، فإن المناكحَ الكريمة مدرجةُ الشريف».

كما قال شاعرهم:

وَأَوَّلُ خُبْثِ الْمَاءِ خُبْثُ تُرَابِهِ ∴ وَأَوَّلُ خُبْثِ الْقَوْمِ خُبْثُ الْمَنَاكِحِ

وهذا « أبو عمرو بن العلاء » ينقل عن أحدهم:

« لاَ أتزوج امرأة حتى أنظر إِلَى ولدى منها » قيل له:

« كيف ذاك ؟ قال: أنظرُ إِلَى أبيها وأمها فإنها تجر بأحدهما ».

وقال قائلهم لبنيه – يمتن عليهم –:

« قَدْ أحسنت إليكم صغارًا وكبارًا وقبل أن تولدوا ».

قالوا: « وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ ».

فأجاب: « اخترت لكم من الأمهات من لاَ تسبون بها ».

وأنشد الرياشى:

وَأَوَّلُ إِحْسَانِى إِلَيْكُمْ تَخَيُّرِى ∴ لِمَاجِدَةِ الأَعْرَاقِ بَادٍ عَفَافُهَا

وليست النساء من العرب بأقل حرصًا عَلَى مدارج الشرف، – يضعن عليها أبنـاءهن وبناتهن – من الرجال، فإذا وقعت المرأة من العربيات فِى الأسر بسبب الحروب، وصار بها الأسر إِلَى أن أصبحت زوجة لرجل عربى محظيةً عنده، فإن الحَظْوَةَ لاَ تغنيها عـن اعتزارها بالحرية، بل يبقى فِى وجدانها حرصًها عَلَى أن ترد اعتبارهـا، وترفـع عنهـا ألقاب الرق وعار الأسر.

وَدُونَكَ هذه الأمثلة التى تختلف فِى الزمان والمكان والوسيلة أحيانا، ولكنهـا جميعـا

تتحد في غاية واحدة تدل عليها وتنتهي إليها بصراحة لا لبس فيها، ووضوح لا يحيط بـه شيءٌ من غموض.

لقد قال المؤرخون فيما قالوا:

إن « فاطمة بنت الخرشب » رمت بنفسها من الهودج حين أسرت، فماتت لساعتها وهي تردد المثل:

المنية ولا الدنية ».

وربما تزوج الرجل بسبيته وأنزلها من نفسه وقومه أكرمَ منزلةً، فلم ينف ذلك عنها مرارة الأسر.

من ذلك ما رووه من أن رجلا من العرب استبى امرأة فولدت له سبعة بنين، ثم قالت له يوما: « أزرني أهلي ليذهب عني ذل السباء ».

ففعل، فأبت أن تغادرهم مع فرط تعلقها بزوجها وثنائها عليه.

وكذلك فعلت « سلمى الغفارية » زوج « عروة بن الورد العبسي » وكان شاعرًا بطلا كريما، أصاب « سلمى » يوم خرج « بنو النضير » يريدون « خيبر » بعد أن أجلاهم الرسول ﷺ عن « المدينة » وكانت « سلمى » ذات جمال فأعتقها « عروة » وتزوجها وأقامت عنده بضع عشرة سنة، ولدت له فيها أولادًا، وحلت من نفسه وقلبه أعز مكان، إذ كان شديدَ الحب لها، والحرصَ عَلَى إرضائها، لكن ذلك لم ينسها مذلة السباء، فقالت له يوما: « ألا ترى ولدك يعيرون بأمهم ويسمون بني الأخيذة ؟ ».

قال: فماذا ترين ؟ قالت: أرى أن تردني إِلَى قومي؛ حتى يكونوا هم الذين يسلمونني إليك ؟ » فاستجاب لها وهو لا يشك فِي أنها سعيدة راضية، صادقة الرغبة فِي العيش معه.

وخرج بها فحج، ثم عرج عَلَى أهلها زائرًا، فتحايلوا عليه بالخمر حتى رضى أن يخيروها بين الإقامة فيهم والعودة معه، فاختارت « سلمى » أهلها وهي تقول:

« يا عروة ! أما أني لأقول فيك - وإن فارقتك - الحق:

والله مَا أعلم امرأة من العرب ألقت سترها عَلَى بعل خير منك، وأغض طرفا، وأقل

فحشا، وأجود يدًا، وأحمى لحقيقة، لكن مَا مر علَى يوم منذ كنت عندك، إلا والموت فيه أحب إلَيَّ من الحياة بين قومك، لأنى لم أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول: قالت أَمَةُ عروة كذا وكذَا.

والله لاَ أنظر إلَى غطفانية أبدًا، فارجع راشدًا إلَى ولدك، وأحسن إليهم ».

فانصرف عنها حزينا حسيرًا، وهو يقول قصيدته التى مطلعها البيت المشهور:

سَقَوْنِى الْخَمْرَ ثُمَّ تَكَنَّفُونِى ∴ عُدَاةُ اللّهِ مِنْ كَذِبٍ وَزُورِ

ولم يضع المعروف عند أبناء الرجال والنساء من هذا المجتمع الكريم وتلك البيئة الرشيدة.

فلم يقبل الأبناء يوما عن الأمومة من النساء أن تهان أيًا كان المكان الذى تهان فيه، أو كائنا من كان هذا الإنسان الذى تهان عنده.

وما أصدق مَا يتناقله الرواة فِى الدلالة علَى صدق هَذِهِ المقولة.

روى صاحب الأغانى أن « عمرو بن هند: ملك الحيرة » قال يوما لجلسائه: « هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمه من خدمة أمى؟.

فقالوا: نعم ! « أم عمرو بن كلثوم قال: « ولِمَ ؟ » قالوا: « لأن أباها مهلهل ابن ربيعة، وعمها كليب وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو ابن كلثوم وهو سيد قومه وليث كتيبتهم ».

فأرسل « عمرو بن هند » إلَى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويسأله أن تزور أُمُّهُ أُمَّهُ، فأقبل ابن كلثوم من الجزيرة فِى جماعة من بنى تغلب، وأقبلت « ليلى » فِى ظعن منهم.

وأمر « عمرو بن هند » برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات وأرسل إلَى وجوه أهل مملكته فحضروا، ودخل « ابن كلثوم » رواق الملك وأدخلت « ليلى » إلَى « هند » فِى قبة من جانب الرواق، وكان بين الاثنتين صلة نسب.

قالوا: وقد كان عمرو بن هند أوصى أمه أن تنحى الخدم إذا دعا بالطرف، وتستخدم « ليلى » فلما فعل قالت « هند » لزائرتها بعد أن اطمان بها المجلس: ناولينى ياليلى ذلك الطبق.

فقالت « ليلى » في نفور:

لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ...

فأعادت « هند » عليها وألحت، وإذ ذاك صاحت ليلى: « وا ذلاه يالتغلب!

فسمعها ابنها فثار في وجهه وانتفض انتفاضة المحموم وقال: « لا ذل لتغلب بعد اليوم ».

ثم نظر حوله فإذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره، فوثب إليه وأطاح به رأس « ابن هند » ونادى في بني تغلب فانتهبوا ما في الرواق.

والروايات تقول إنه أنشد يومئذ معلقته المشهورة مرتجلا وفيها يصيح بالملك:

أَبَا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَا	∴	وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيَقِينَا
بِأَنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضًا	∴	وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَا
أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا	∴	فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا
بِأَيِّ مَشِيئَةٍ - عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ -	∴	تُطِيعُ بِنَا الْوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا ؟
تُهَدِّدُنَا، وَتُوعِدُنَا، رُوَيْدًا !	∴	مَتَى كُنَّا لأُمِّكَ مُقْتَوِينَا

وهو القائل أيضًا:

عَلَى آثَارِنَا بِيضٌ حِسَانٌ	∴	نُحَاذِرُ أَنْ تُقَسَّمَ أَوْ تَهُونَا
إِذَا لَمْ نَحْمِهِنَّ فَلاَ بَقِينَا		لِشَيْءٍ بَعْدَهُنَّ وَلاَ حَيِينَا

ثم لم تكتف تغلب برأس الملك ثمنا لكرامة السيدة الأم، بل قام « مرة بن كلثوم » - أخو عمرو - بعد ذلك وقتل النعمان، وأخاه، ليطفئ جذوة من الغضب هاجها تعمدُ المهانة لأمه.

وظلت « تغلب » تعظم قصيدة « عمرو » ويرويها صغارهم وكبارهم على تتابع الأجيال، كما ظل مقتل « عمرو بن هند » مفخرةً لهم يباهون بها ما عاشوا ...

وخلاصة القول: أن العرب في الجزيرة عامة، وفي مكة على الخصوص كانوا لا

يفتهم جمال الناس عن وضوح النسب، واستقامته وفضله وعراقته.

كما أنهم كانوا لاَ يفرطون فِى كرامة وعاء النسب وهو الأمهات، ويتفانون فِى الدفاع عن هَذِهِ الأوعية، ولو أكلتهم الحروب واحدًا بعد واحد.

وتجتمع صفوة النسب العربى كلها لتتمركز فِى نسب النبى ﷺ تظأر إليه وتنتشر منه حتى يأخذ منها كل شريف بطرف، ثم تعود فتظأر إِلَى أصلها فيتجمع من مركز اجتماعها محلا للقدوة، ومصدرًا للإشعاع جميعا.

ومن هذا النسب الطاهر الذى هو محل للقدوة ومصدر للإشعاع عَلَى السواء، نبـدؤك بالحديث عن بنى زهرة.

والحديث عن الأب « زهرة » يقتضينى أن ألفت نظرك إِلَى موطن سـبق أن وقفنـا فيه، وأطلنا الوقوف، حين كان الحديث عارضًا عن « كلاب بن مرة ».

« وكلاب بن مرة » هو جد النبى ﷺ لأبيه وأمه، حيث التقا فرعا النسب عنده.

ومهما اختلف الناس فِى اسم « كلاب » فالصحيح عند أشـهر النسـابين أن اسـمه «حكيم» ولا نلتفت لما وراء ذلك من الخلافات فِى اسمه.

قال أحد شعراء العرب:

حَكِيمُ بْنُ مُرَّةَ سَادَ الْوَرَى ∴ بِبَذْلِ النَّوَالِ وَكَفِّ الأَذَى

و« كلاب » لقب لـ « حكيم » استفاده من هوايته أو مهنته، حيث كان يهوى الصيد أو يمتهنه، ويتخذ لذلك مجموعة من الكلاب المعلَّمة والمدرَّبة عَلَى الصيد، فكـان النـاس إذا رأوا مجموعة الكلاب التى اختص بها « حكيم » كانوا يقولون: جاء كلاب، ثم انتقلت لقبًا لحكيمٍ اشتهر به.

وقد يعلل هذا اللقب بما ذكرناه لك من قبل من هَذِهِ العلة العامة الـواردة فِـى كـلام بعضهم.

قيل لأبى الدقيش الأعرابى: لم تسمون أبناءكم بأشر الأسماء نحـو: كـلاب وذئـب وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو: مرزوق ورباح.

فقال: إنا لنسمى أبناءنا لأعدائنا، وعبيدنا لأنفسنا، يريد أن الأبناء عدة للأعداء وسهام فِى نحورهم فاختارًا لهم هَذِهِ الأسماء.

قال ابن دحية رحمه الله تعالى: فكان الرجل إذا تشاجرمع كفوه فقال: اخرج يَا كلـب أو يَا سباع أو يَا نمر أو يَا علقمة إِلَى غير ذلك.

وقيل لدفع السوء عن أبنائهم.

أما الكنية التى اشتهر بها حكيم فهى « أبو زهرة ».

ولا خلاف بين علماء النسب فِى أن « زهرة » تنطق بضم الزاى.

لكن الخلاف الواقع بينهم – وهو خلاف لاَ يعتد به – حول مَا إذا كان زهــرة اســم رجل أو اسم امرأة.

ومن قال: إنه اسم امرأة، فقد وَهِمَ أو شذ بقوله عن إجماع النسابين.

قال فِى سبل الهدى والرشاد: « قال الحافظ: والمشهور عند أهل النسب أن زهرة اسم رجل.

وشذ ابن قتيبة فزعم أنه اسم امرأة.

وهو مردود بقول إمام أهل النسب هشام بن الكلبى: أن اسم زهرة: المغيرة.

قال السهيلى: وما قاله ابن قتيبة منكر غير معروف] [1].

و« حكيم بن مرة » قَدْ أنجب اثنين من البنين: أكبرهما « زهرة » وكان يكنى به.

وثانيهما « قصى بن كلاب »

ومن « قصى » كان نسب النبى لأبيه.

ومن « زهرة » كان نسب النبى لأمه.

فالتقيَا فِى « كلاب » الذى هو « حكيم بن مرة ».

وقد أنجب « زهرة » ولدًا سماه « عبد مناف » فصار « عبد مناف بن زهرة » كَمَا أن لِـ « قصى » ولدًا سُمِّىَ « عبد مناف » فهو سَمِىُ ابْنِ عمِّهِ.

ولقد أنجب « عبد مناف بن زهرة » فيما أُنجب « وهبًا » و« وهيبًا ».

فأما « وهب » فكان منه « آمنة » أم رسول الله ﷺ عظيم الساحة المنتظر.

أما « وهيب » فكان منه « هالة » التى تزوجها « عبد المطلب » فِى نفــس الوقــت الذى تزوج فيه ابنه عبد الله ابنة عمها آمنة.

وأبناء « زهرة بن كلاب » علَى شرفهم فِى العرب وكرامتهم بين الناس فقد كان لهم

---

(١) سبل الهدى والرشاد– جـ ١ ص ٣٢٧.

ارتباط وثيق ببني « عبد مناف بن قصي ».

وقد ظهر هذا الارتباط في مواقف عدة من أهمها:

١ – حلف المطيبين.

٢ – حلف الفضول.

فأما حلف المطيبين، فهو حلف انعقد تحت سماء حرب أوشكت أن تكون، وأن يدق طبولها بين أبناء « عبد مناف بن قصي » وأبناء « عبد الدار ».

وقصة ذلك في شيء من الإجمال أن « قصيًا » كان من أبنائه عبد الدار وهو أكبرهم ولم يكن مكترسا لشيء ولا متطلعا إلى تميز، على خلاف ما كان عليه إخوته.

فلما دق عظم « قصي » دعا « بعبد الدار » وقال له: أما إني أعلم أنك لست في الشرف على ما عليه إخوتك، ولكني سألحقك بهم فلا يدخل [رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له، ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامك، ولا تقطع قريش أمرًا من أمورها إلا في دارك، فأعطاه داره دار الندوة، التي لا تقضي قريشٌ أمرًا من أمورها إلا فيها، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة] (١).

وظلت قريش على هذا النحو يدين أبناء « عبد مناف » إلى أبناء عبد الدار بما أقطعه إليه أبوه من أسباب الشرف والرفعة.

ولم يستمر الأمر طويلا حتى رأى المطلب وعبد شمس وهاشم ونوفل أبناء عبد مناف أن الأمر هكذا لا يستقيم، ولا بد من أن تعود أسباب الشرف إليهم.

وانقسمت قريش على إثر ذلك إلى فريقين: منهم من يرى أحقية بني عبد الدار بأسباب الشرف في مكة نظرًا لفعل قصي، ومنهم من يرى أحقية بني عبد مناف نظرًا

---

(١) لقد كانت الرفادة خرجا تخرجه قريش من أموالها لإعداد طعام الضيافة للحجيج يأكله منهم من لم تكن له سعة، وهذا أمر قد استحدثه « قصي » ودفعه إلى استحداثه أن الحجيج ضيوف الرحمن، لا يجوز إهمالهم حتى يصدروا عنهم.

لمكوناتهم الشخصية والاجتماعية.

وَأطلَّتْ الفتنة برأسها، وتحالف كل فريق أعضاؤه بعضهم مع بعض.

فأما بنى عبد مناف فقد أخرجت إليهم النساء وَعَلَى رأسهن: أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وتوأم أبيه جفنة مملوءة طيبًا، فوضع الرجال أيديهم فيها ومسحوا بها الكعبة توثيقا للحلف، وتوكيدًا لتمسكهم به.

فسمى هذا الحلف لذلك حلف « المطيبين».

وتحالف بنو عبد الدار ومن وافقهم فيما بينهم، فسموا « الأحلاف ».

ولولا أن الله قيض للقوم من يحملهم عَلَى الصلح؛ لوقعت المعارك فيما بينهم.

وَفِى هذا الحلف كان بنو زهرة منحازين إِلَى بنى عبد مناف، فدخلوا معهم فيه وغمسوا أيديهم فِى الطيب مع الغامسين، ومسحوا أيديهم بالكعبة يطيبونها ويؤكدون حلفهم مع عبد مناف.

وأما حلف الفضول: فكان منزعه أخلاقيًا.

وقصته أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، وكان ذا قدر بمكة وشرف، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدى الأحلاف: عبد الدار ومخزوما وجُمَعَ وسهما وعدى بن كعب، فأبوا أن يعينوه عَلَى العاص بن وائل وزجروه، أى انتهروه، فلما رأى الزبيدى الشر، أوفى عَلَى أبى قبيس عند طلوع الشمس، وقريش فِى أنديتهم حول الكعبة فصاح بأعلى صوته:

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتُهُ ∴ بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِى الدَّارِ وَالنَّفَرِ
وَمُحْرِمٌ أَشْعَثُ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ∴ يَا لِلرِّجَالِ وَبَيْنَ الْحِجْرِ وَالْحَجَرِ
إِنَّ الْحَرَامَ لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُهُ ∴ وَلاَ حَرَامَ لِثَوْبِ الْفَاجِرِ الْغَدِرِ

فقام إليه الزبير بن عبد المطلب وقال: مَا لهذا من مترك.

وانضمت إليه هاشم وزهرة وتيم بن مرة فِى دار ابن جدعان، فأقام لهم لوازم الضيافة ثم تحالفوا: ليكونن يدًا واحدة مع المظلوم عَلَى الظالم، حتى يؤدى إليه حقه مَا بلَّ بحرٌ صُوفَةً، وما رسا حراء وثبير مكانهما، وَعَلَى التأسى فِى المعاش.

وسمت قريش هذا الحلف باسم « حلف الفضول ».

واختلف الناس في سبب التسمية.

فمنهم من قال: إن الفضول جمع فاضل، وهم الرجال الذين تحالفوا عَلَى الفضيلة في ذلك اليوم، فنسب الحلف لصفتهم البارزة فيهم يومئذ.

ومنهم من قال: إن الفضول جمع فضل، وهو الشيء الذي يظلم فيه صاحبه ويحبس عنه، ويقوم هؤلاء مجتمعين برده.

ولا بأس في أن يعود سبب التسمية إِلَى هذا أو إِلَى ذاك منفردين أو مجتمعين.

والذي لاَ يغيب عنا ولا عنك هو مَا قصدنا إليه من أن بني زهرة دخلوا هذا الحلف كذلك مع بني عبد مناف كسنتهم في علاقاتهم ببني عبد مناف.

وأقرب من هذا في الدلالة أن بني زهرة كانوا دائما يعيشون مع بني عبد مناف في جوار يقرب بين الدور، ويقرب بينهم في العلاقات الاجتماعية [1] فتقاسموا الشرف، وعاشوا تحت ظلال الفضيلة، فانتشر صيتهم في العرب وَفِي التاريخ، يقرهم عَلَى مكانتهم من تكاملت شخصيتهم كَمَا ينقسم عليها الشانئون الذين تضيق صدورهم بكل فضيلة، وتعجز صدورهم عن أن تتسع لفاضل من الفضلاء.

سَلِيلَةُ الشَّرَفِ وكَرِيمَةُ بَنِي زُهْرَةَ:

ومن هذا العرق الكريم كان « وهب بن عبد مناف بن زهرة بن قصي بن كلاب ».

وهذا الرجل العظيم في نسبه قَدْ أضاف إِلَى عراقة النسب، حسن السيرة، وطيب العشرة.

فلما بلغ مبلغ الرجال خطب إِلَى « عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي ابنته برة، وهي أم لـ زهرة بني زهرة « آمنة بنت وهب ».

وكأن الله عز وجل قَدْ أعد لآمنة طيب السلالة، كَمَا أعد لها حسن البيئة، فولدت

---

(١) راجع سيرة ابن هشام – ط شركة الطباعة الفنية المتحدة – القاهرة بدون – تقديم وتعليق طه عبد الرءوف سعد ج ١ ص ١٢٠ وما بعدها.

كريمة من كرائم العرب، وشريفة من أشرف الناس.

اللُّؤْلُؤَةُ الْمَكْنُونَةُ:

وأنت لاَ تكاد تسمع شيئا عن « آمنة بنت وهب » من يوم ميلادها إِلَى يوم أن خطبت « لعبد الله بن عبد المطلب ».

وأظنك مثلى لاَ تنظر لخفاء سيرة آمنة فِى ذلك الوقت بشىء من الغرابـــة، ففتيـــات العرب فِى مكة كن عَلَى قسمين:

قسم يعرفهن الرجال ويعرفن الرجال مع الاحتشام، بحكم أنهن كن يمارســـن بعـــض الأعمال، ويقمن بتشجيع الرجال فِى الحروب والقتال.

وهذا القصم من النساء كانت ترتفع عواطفهن وتنخفض من حين لآخر، وكان يقبـــل عَلَى خطبتهن الفتيان عن رؤية وسماع مباشر.

وهناك قسم آخر: لاَ يعرفهن الرجال، ولا يعرفن الرجال إلا من خلال الآباء وأفـــراد العوائل من الرجال والنساء.

وهذا القسم من النساء تكون الواحدة منهن مطلوبة لشرفها، ولا تكون مـــن اللـــواتى يتعرضن للرجال حتى يحملنهم عَلَى الطلب.

وهذا النوع من النساء يقبل عليهن الحمد والثناء فِى كل عصر، وتكون الواحدة منهن محل الإكبار والعزة فِى كل مجتمع، مهما كان المجتمع سافرًا ومهما كان أبناء المجتمـــع أحرارًا ينفلتون من قيود التقليد.

والفتاة من هذا الصنف لاَ شبه لها فِى عيون الناس، إلا أن تشبه بالجوهرة المصـــونة أو اللؤلؤة المكنونة لاَ يقدر أحد عَلَى أن يخدش حياءها، ولا يستطيع أحد بالغا مَا بلـــغ أن ينال من قدرها أو عفافها، فهى لم تتبدل يوما ولم تعرض نفسها عَلَى الرجال وقتًا من نهار او ساعة من ليل.

ومن هؤلاء الفتيات كانت زهرة قريش « آمنة بنت وهب ».

والتاريخ كان قَدِ احتفظ لَنَا بقصص [illegible]، لم يكن المؤرخون وحـدهم هـم الـذين ذكروها، وإنما ذكرها معهم كتاب السير والمحدثون عَلَى السواء.

ومما يرويه المؤرخون وكتاب السير والمحدثون أمورًا لفتت نظر عبد المطلب إِلَـى تزويج ابنه عبد الله من بنى زهرة، وهو متطلع إِلَى الشرف الذى قَدْ حملت به الأيام وأظل زمانه.

روى ابن سعد وابن البرقي والطبرانى والحاكم وأبو نعيم عن العباس بن عبد المطلب عن أبيه قال: قدمنا اليمن فِي رحلة الشتاء، فنزلت عَلَى حبر من اليهود فقال لى رجل من أهل الزبور، يعنى الكتاب: ممن الرجل؟ قلت من قريش.

قال: من أيهم ؟

قلت: من بنى هاشم.

قال: أتأذن لى أن أنظر إِلَى بعضك؟

قلت: نعم مَا لم يكن عورة.

قال: ففتح إحدى منخرى فنظر فيه ثم نظر فِي الآخر فقال: أشهد أن فِي إحدى يـديك ملكًا وَفِي الأخرى نبوة، وإنا نجد ذلك فِي بنى زهرة، فكيف ذلك؟

قلت: لاَ أدرى.

قال: هل لك من شاعة ؟ [١].

قال: الزوجة.

قلت: أما اليوم فلا.

فقال: إذا رجعت فتزوج منهم.

---

(١) الشاعة: بشين معجمة وعين مهملة: الزوجة، سميت بذلك لمتابعتها الزوج، وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره.

فلما رجع عبد المطلب إِلَى مكة تزوج هالة بنت أهيب بن عبد مناف، وزوج ابنه عبد الله آمنة بت هب، فولدت له رسول الله ﷺ.

فقالت قريش: فلج [1] عبد الله عَلَى أبيه.

وروى البيهقى وأبو نعيم عن ابن شهاب رحمه الله تعالى قال: كان عبد الله أحسن رجل رئى قط.

خرج يوما عَلَى نساء قريش فقالت امرأة منهن: أيتكن تتزوج بهذا الفتى فتصطب [2] النور الذى بين عينيه، فإنى أرى بين عينيه نورًا ؟

فتزوجته آمنة بنت وهب.

وروى الزبير بن بكار عن أن سودة بنت زهرة بن كلاب الكاهنة قالت يوما لبنى زهرة: إن فيكم نذيرة أو تلد نذيرًا، فاعرضوا عَلَى بناتكم.

فعرضن عليها، فقالت فِى كل واحدة منهن قولا ظهر بعد حين، حتى عرضت عليها آمنة بنت وهب.

فقالت: هَذِهِ النذيرة أو تلد نذيرًا له شأن وبرهان منير.

ولما سئلت عن جنهم قالت: سيخبركم عنها النذير.

هذه روايات قَدْ وردت فِى كتب التاريخ والسير، كَمَا تناقلها المحدثون، لاَ يتمكن أحد من إنكار العبرة من ورائها حتى ولو نازع فِى إثباتها.

وكلها يمنح العبرة لمن أراد أن يعتبر بروايات التاريخ وما يتناقه المحدثون.

وأقل مَا تدل عليه هَذِهِ الروايات، أن زواج عبد الله من آمنة كان دافعه الأول الرغبة فِى الشرف، والطمع فِى تحصيل مَا تناقله الناس من سؤدد قادم، وفتى قَدِ انتشر فِى الكون شذاه.

ودعنى أذكرك بما قلته لك قريبًا من أن العرب لم يكن يفتنهم جمال النساء عن أن

---

(١) فلج: بفتح أوله وثانيه: ظفر بما طلب.

(٢) تصطب: تسكب وتدخل.

يلتفتوا إِلَى الشرف والسؤدد من استقامة النسب، ووضوح السيرة الاجتماعية.

ومع هذا الذى نبهتك إليه، فإن عبد الله بإجماع المؤرخين قَد اجتمع له فِى الزواج المبارك جمال السيرة، وحسن الطبع والمنظر، وعراقة النسب، مَا لم يجتمع لغيره من فتيان العرب حين ارتبط بآمنة بنت وهب ولآمنة منه مثل ذلك.

الزَّوَاجُ الْمَيْمُونُ:

وعلى كل حال فلقد بقيت آمنة فِى بيتها عَلَى طبعها وخلقها اللذين حدثناك عنهما لاَ تفارق منْهُمَا شيئا.

وآمنة فِى بيتها يرغب فيها الراغبون لما لها من حسن السيرة، وعراقة النسب.

والشيء الملفت للنظر، أن عبد الله لم يتقدم إليها طالبًا يدها بين الطالبين، ولم يرغب أبوه فِى ذلك إِلَى أبيها عَلَى مَا بين الرجلين من قرابة، وَعَلَى مَا بين الأسرتين من صلات.

ونحن لاَ نعجب من هذا الإحجام كَمَا لاَ يعجب غيرنا من الذين عرفوا ظروف عبد المطلب وأحواله التى ألمت به.

فلقد كان من أحوال عبد المطلب التى ألمت به وأقساها عَلَى النفوس مَا وقع منه فِى لحظة أسى غاضبة يوم أن انتدب نفسه وابنه الوحيد « الحارث » إِلَى الكشف عن ماء زمزم، وإعادتها إِلَى العمل فِى إمداد الناس بالمياه بدافع من سبب أو أسباب دفعته إِلَى القيام بهذا العمل عن قناعة وطيب نفس، فلما عيرته قريش بقلة الذرية، وأظهرت له من الإشفاق مَا يؤلم نفس العظيم، رغب إِلَى ربه راجيًا أن يهبه من الأبناء من يمنعونه من الناس إن هم أرادوه بسوء، وإن هم أطلقوا عليه ألسنتهم، وإن هم أظهروا له من الشماته مَا يغلفونه زورًا بالأسى والإشفاق، وَفِى يومه هذا نذر نذره الشهير: إن رزقه الله عشرة من البنين يقومون عَلَى منعته ليذبحن أحدَهم، وضاع النذر من ذاكرة الناس، لكن النذر لم يضع من ذاكرة عبد المطلب، كَمَا لم يضع من ذاكرة التاريخ.

ولقد أفاقت قريش ذات يوم عَلَى حدث ضخم، ليس لقريش به عهد، وليس لقريش به طاقة، لقد اتخذ عبد المطلب قراره ليوفين بنذره بعد أن رزقه الله بعشرة من البنين، وقد أصبح صغيرهم يافعا، كَمَا أصبح جمعهم قادرًا عَلَى أن يقوم دون أبيه لاَ يناله أحد بأذى.

ونظر الناس وإذا الأقداح عند هبل يضرب بها القدّاح وعبد المطلب يدير عينيه بين بنيه لينظر من الذى سيخرج قدحه ليكون كبش الوفاء لنذر عميد قريش الذى تقادم به الزمن وأقبل يوم الوفاء به.

هذا هو حال عبد المطلب وهو حال شديد.

وهذا الحال وحده دون سواه هو الذى منع عبد المطلب من أن يتقدم لخطبة آمنة بنت وهب لتكون زوجة لفتاه.

ولسنا ندرى هل كانت آمنة بنت وهب قَدْ تعلقت بعبد الله كَمَا تعلقت به من قريش كل فتاة لاشتهار خلقه، وجماله بين قريش وتعلق الكثيرات به أم لاَ ؟

ولكن الذى ندريه ولا يخطئه التاريخ أن آمنة كسائر سكان مكة قَدْ أصابتها الرجفة، وأخذها الآسى من جميع أقطارها، حين علم الجميع أن عبد المطلب قَدْ صمم بعزم أكيد عَلَى أن يوفى بنذره تصميما لاَ يحول بينه وبينه شفقة الأبوة ولا رقة الطباع، فما هو بذاك الرجل الذى يعلن التدين ثم يختلق المعاذير لينفلت من الأمر والنهى كلما توجه إليه مقتضى التدين بأمر أو نهى.

لقد أخذت آمنة الرجفة كَمَا أخذت رجال بنى زهرة ونسائها بل أخذتها الرجفة كَمَا أخذت الرجفة جميع المكيين من رجال ونساء.

وهبَّ الجميع إِلَى ساحة المسجد الحرام يرقبون الحدث العظيم، ولم تخرج آمنة مع الخارجين والخارجات لاَ لزهد فِى المعرفة، ولا لرغبة عن استطلاع نتائج هذا الحدث العظيم، وإنما لأنها من أولئك الفتيات القليلات اللاتى فرض عليهن الطبع ألا يخرجن من بيوتهن مهما تعاظمت الأسباب الداعية إِلَى الخروج.

جلست آمنة فِى بيتها تقاسى انتظار نتيجة الحدث الأليم، ولكنها قَدْ علمت فيما علمت أن الديار قَدْ خلت من ساكنيها، وارتحل الرجال صوب الشمال من جزيرة العرب ومعهم شيخ مكة وفتاه ليستشيروا الكاهنة من خيبر يأتيها صاحبها من الجن، وهم يريدون أن يستشيروها فِى أمر الفتى عبد الله وأبيه علهم يجدون مخرجا من الذبح وفاء بالنذر، حتى لاَ يصبح الذبح عادة فِى العرب متأصلة لاَ يقوى الناس بعد ذلك عَلَى دفعها.

وبقى المسافرون قريبًا من الشهر فِى رحلة ذهاب وإياب ــ قاسى فيها كل مقيم مــن المستضعفين والنساء ومن لهم ارتباط بالحفاظ عَلَى الأموال والديار والأعراض.

وأغلب الظن عندى أن الليل إذا مَا جن وغطى مكة بظلامه، اتخذ النساء والضــعفاء من الليل سترًا، ثم ذهبوا جميعا إِلَى المسجد الحرام يتضرعون إِلَى رب البيت أن يصرف عن ابن العم مَا ألم به من الأحوال، وأن يصرف عن شيخ مكة مَا أحاط به من ثقل، ومــا وقع عَلَى قلبه من أمور.

ولا مانع عندى فِى هَذِهِ الحال أن تكون آمنة من بين المتوسلين والمتوسلات إِلَــى الله أن يصرف عن ابن عمها مَا ألم به.

وأن يصرف عن أبيه الشيخ مَا يكابده ويعانيه.

وما هى إلا أيام حتى وجد المترقبون ذات صباح غبارًا كثيفا مثارًا من جهة الشــمال مَا فتئ أن انكشف عن مجموعة كبيرة من الرجال، عرف الناس فيما بعد أنهم القــادمون من خيبر وعندهم الخبر اليقين.

ولم يشأ الرجال أن يعودوا إِلَى بيوتهم ولكنهم قَدْ أقبلوا وبينهم الشيخ وفتاه إِلَى البيــت العتيق، ثم أرسلوا فِى جمع الإبل يقدمونها عشرة عشرة ويضربون عليها بالقداح إِلَــى أن وصل العدد مائة من الإبل، فخرج القدح عَلَى الإبل، فبشروا عبد المطلب بــأن ربــه قَــدْ رضى، فليقم إِلَى ذبح الإبل ويفرح بنجاة ولده.

ولم يكن عبد المطلب بالرجل الذى يعبد الله عَلَى حرف، كَمَا أنه ليس بالرجل الــذى يتعلق بأوائل التعلات رغبة فِى الحصول عَلَى المعاذير والتخلص من ثقل التكليفات.

فلما بشر بنجاة فتاه قال: لاَ والله حتى يضرب عليه وَعَلَى الإبل ثلاث مرات.

فلما فعل القوم وخرجت القداح عَلَى الإبل، قام الشيخ يحمد لربه، ويذبح الإبــل فِــى لحظة فرح ليس لها فِى التاريخ نظير إلا مَا كان مــن جــدهم الأعلــى إبــراهيم وولــده إسماعيل.

ذبح الشيخ الإبل فداء لعبد الله وتركها لاَ يصد عنها أحدًا مــن النـــاس، لاَ ولا مــن جوارح الطير وأوابد السباع.

ولم تمر ساعات حتى كان المانع الذى يحول بين الشيخ وبين أن يطلب آمنة لفتاه قد زال من ذهنه.

ولم تمر ساعات حتى عادت أحاديث الحاخامات، والتى استمع إليها فِى اليمن من أحدهم عن المستقبل الذى ينتظره، نبيًا ملكًا، أو رجلا قد اجتمع له النبوة والملك، وأن ذلك سيكون من علاقة كائنة بين بنى هاشم وبنى زهرة.

لم تمر ساعات حتى أصبحت هَذِه الأحاديث تحتل بؤرة الشعور من ذهن الشيخ.

فاستجاب لرغبة تراوده حيث لاَ مانع يحول بينها وبينه، فأخذ فتاه فِى يده، وانطلق إِلَى حى بنى زهرة يطلب زهرتها « آمنة بنت وهب » لفتاه ويطلب ابنة عمها هالة بنت أهيب لنفسه».

وما كان لهذا الحى أن يرفض الرجل لنفسه.

وما كان لهذا الحى أن يرفض هذا الرجل فِى طلبه لفتاه.

وتم القبول، وأقيمت الأفراح عاجلة، وبقى عبد الله فِى دار آمنة ثلاثة أيام عَلَى عادة العرب، ثم عاد إِلَى داره التى بنيت له ينتظر زهرة بنى زهرة، يأتى بها أهلها إِلَى بيتها الجديد.

وبيتها الجديد هو هذا البيت الذى أعده عبد المطلب لابنه.

وهو بيت عَلَى مَا وصفه الواصفون – كان ذا درج حجرى يوصل إِلَى باب يفتح من الشمال، ويدخل منه إِلَى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر مترًا فِى عرض ستة أمتار – وَفِى جداره الأيمن باب يدخل منه إِلَى قبة فِى وسطها – يميل إِلَى الحائط الغربى– مقصورة من الخشب، أعدت لتكون مخدع العروس.

وألقت آمنة عَلَى حيها ومدرج طفولتها نظرة وداع، يكتنفها شعور الأسى عَلَى الفراق، والغبطة بحياتها الجديدة القادمة، ثم سارت مع السائرات يسبقهن السائرون يستقبلهم ويستقبلهن عبد الله فِى بيت الزوجية الجديد، وصعد الرجال عَلَى الدرج الحجرى يوصلهم إِلَى فناء الدار، كَمَا صعد النساء عَلَى نفس الدرج، ثم انحرفن يمينا إِلَى غرفة الزوجية فِى غرب البيت، وتلقى الجميع تحيتهم الواجبة الأداء عَلَى فتى قريش يقدمها إِلَى

القادمين القادمات، ثم انصرف الجميع عدَا هذين الزوجين يرتبان أمورَهما فِى بيت جديد، قَدِ انعقدت الإلهية أن يكون أول مستقر عظيم الساحة المنتظر.

بُشْرَى فِى حَمْلٍ أَوْ حَمْلٌ فِى بُشْرَى:

ولم تمض أيام علَى هذا الزواج السعيد حتَى أعلنت آمنة عما بشرت به.

وما بشرت به لم يكن غريبًا عليها ولا علَى زوجها، ولا علَى بيئتها المحيطة بها.

وإنما هذا الذى بشرت به كان خبره قَدْ تناثر فِى بيئة جزيرة العرب، وفِى غير بيئة جزيرة العرب علَى نحو مَا حدثناك به.

ولقد سبق أن علمت أن فتيات قريش كلُّهن كن يتطلعن إِلَى هذا الشرف شرف الحمل بعظيم الساحة القادم.

وقارئات الكتاب المقدس أو من سمعن به من النساء، كانت الواحدة منهن تتابع فتى قريش، وهى ترقب النور بين عينيه، وتتمنى أن تصطب منه مَا يكون سببًا فِى حملها برسول الله الذى امتلأت الدنيا بأخباره.

وما شاء الله إلا أن يكون هذا النور وذلك الشرف فِى آمنة بنت وهب.

ثم دون أن تعى أنها قَدْ حملت به، حيث لاَ تجد من الحمل مَا يجده غيرها من النساء الحوامل، جائتها البشرى، رؤيَا منام يؤكدها مَا تعلم مما ذكر لها، ولغيرها من صفات ووظائف القادم المنتظر، فبشرت بأنها قَدْ حملت بأعظم مخلوق لأكرم أمة، سيكون له شأنه المناط به، وسيكون لها ولأبيه بسببه شأن أيما شأن.

روى ابن سعد، عن يزيد بن عبد الله بن وهب بن زمعة عن عمه، والبيهقى عن ابن إسحاق رحمهما الله تعالى قال: كنَّا نسمع أن رسول الله ﷺ لما حملت به آمنة كانت تقول: مَا شعرت أنى حملت به ولا وجدت ثقله كمَا تجد النساء إلا أننى أنكرت رفع حيضتى وربما ترفع عنى وتعود، وأتانى آت وأنا بين النائم واليقظان فقال لى: هل شعرت أنك حملت ؟ فأقول: مَا أدرى فقال: إنك حملت بسيد هَذِهِ الأمة، ونبيها وذلك يوم الاثنين وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام، فإذا وضع فسميه محمدًا.

قالت: فكان ذلك مما يقَّنَ عندى الحمل، ثم أمهلنى حتى إذا دنت ولادتى أتانى ذلك

فقال قولى:

أُعِيذُهُ بِالْوَاحِـدِ ∴ مِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدِ

قالت: فكنت أقول فذكرته لنسائى فقلن، تعلقى عليك حديدًا فِى عضديك وَفِى عنقك. ففعلت فلم يكن يترك عَلَى إلا أياما فأجده قَدْ قطع فكنت لاَ أتعلقه [1].

تَرَمُّلٌ قَبْلَ زَوَالِ خِضَابِ الْعُرْسِ.

لم يمض من الليالى سوى عشر قضاهن عبد الله مع آمنة، وهن فِى الحقيقة عمر هذا الزواج السعيد، بعدهن كان الشيخ عبد المطلب قَدْ رتب أمر القافلة الذاهبة إِلَى بلاد الشـام للتجارة، وقرر الشيخ أن يكون فتاه العروس أحد أعضاء هَذِهِ القافلة، بل أحد أركانها الذى لاَ يعتمد عليه غيره ويرجع إليه من سواه.

وما كان لمثل فتى قريش أن يرد لأبيه قولا أو يقطع دونه أمرًا.

وما كان لمثل فتى قريش أن يصطنع التعلات، ويتعلق بالمعاذير ليحتال عَلَـى عـدم تنفيذ أمر لاَ يريده، أو التخاذل عن شىء لاَ يهواه.

استجاب فتى قريش لمشيئة أبيه، وجهزت بنى هاشم رواحلها وآن وقت الرحيل.

كانت ساعة من الوادع الأليم، إن أريج عطر العرس مَا زال يملأ جنبات البيت، وإن خضاب الفرح مَا زالت آثاره بادية عَلَى أطراف آمنة، وأسرار من المجهول يخـيم عَلَـى جلسة ضمت آمنة وعبد الله فِى الجانب الغربى من دارهما، ولسنا ندرى مَا الـذى جـرى بين العروسين من حديث أو أحاديث الوداع، ولكن الذى ندريه من عادة الناس أو الـوداع فِى مثل هَذِهِ الأحوال شديد لاَ يحتمل، وقلبَا أبوى النبى ﷺ فيهما من الصفاء مَا يجعلهمـا يستشرفان الغيب المجهول، وهما إن لم يرياه عَلَى التفصيل، فلا أقل من أن يستشرفاه عَلَى الجملة الخالية من كل تفصيل.

---

(1) سبل الهدى والرشاد – جـ 1 ص 393 وما بعدها.

والرواية قَدْ ذكرها ابن الجوزى فِى صفة الصفوة قال: روى يزيد ابن عبد الله بن وهب بن زمعة عن عمته قا ... ثم ساق الرواية بشىء من التغيير والحذف جـ 1 – ص 50.

قضى عبد الله مع زوجته لحظات الوداع، وخرج من بيته يعالج ضعفه أمام الموقف الشديد تودعه بنظراتها وكلماتها زوجته التي يعقب عليها عبد الله بما عساه أن يطمئن قلب العروس، وهما لاَ يدريان أن ذهاب عبد الله هو من هذا الذهاب الذى لاَ يؤوب منه الذاهبون.

خرج عبد الله وبقيت آمنة مع صويحباتها من بني زهرة وبني هاشم تقوم جاريتها بركة عَلَى خدمتها وخدمتهن، وعيناها لاَ تكاد تفارق آمنة إشفاقا عليها من الوحدة، وهى لاَ تدرى أنها تشفق عليها من المستقبل المجهول.

وقصة ذهاب عبد الله مع القافلة قَدْ شغلت المؤرخين والمحدثين وكتاب السير، فذكروها فِي كتبهم أثرًا تاريخيًّا له واقعه التاريخي، وهو أشد ثقلا عَلَى النفس من تصورات الخيال.

روى ابن سعد عن محمد بن كعب، وعن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة رحمهما الله تعالى قالا: خرج عبد الله إِلَى الشام إِلَى غزة فِي عير من عيرات قريش يحملون تجارات، فرغوا من تجاراتهم، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة وعبد الله يومئذ مريض، فقال: أتخلف عند أخوالي بني عدى ابن النجار.

فأقام عندهم مريضًا شهرًا، ومضى أصحابه فقدموا مكة فسألهم عبد المطلب عن ابنه فقالوا: خلفناه عند أخواله بني عدى ابن النجار مريضًا فبعث عبد المطلب أكبر ولده الحارث فوجده قَدْ توفي ودفن فِي دار النابغة، فرجع فأخبره فوجد عليه عبد المطلب وعماته وإخوته وأخواته وجدًا شديدًا.

ورسول الله ﷺ حمل، ولعبد الله بن عبد المطلب، يوم توفي خمس وعشرون سنة.

وهذا هو أرجح الآراء فِي عمره حين توفي.

وللعلماء آراء فِي عمر عبد الله غير هذا الرأى.

والذى يقطع به العلماء أن عبد الله لم يتزوج سوى آمنة، ولم تتزوج آمنة سواه.

ومن الأمور المقطوع بها كذلك أن عبد الله لم ينجب من آمنة ولا من غيرها سوى رسول الله ﷺ، فهو وحيد أبويه، كَمَا أنه يتيمة الدهر فِي وجوده وعظمته.

مات عبد الله ودفن تحت أطباق الثرى، فَبُحَّتْ عليه الأصوات حزنا فِي جنبات مكة، وهي تلك الأصوات التي لم تبرأ من البحة التي أصابتها وهي تهتف له يوم أن نجى من الذبح بالفداء.

عاد الحارث بن عبد المطلب بالنعي وهو الذي كان ينتظره قومه أن يعود إليهم ببشرى نجاة عبد الله من المرض الذي ألم به.

ولا حيلة للحارث، كَمَا أنه لاَ حيلة لقومه من أهل مكة، ولا لأخواله من بني النجار أمام موت محقق، لاَ يقبل فيه هَذِهِ المرة الفداء.

ونحن لاَ نستطيع أن نصور حجم الذي أصاب آمنة بنت وهب، كَمَا لم يستطع التاريخ أن يسجل مَا اعتمل فِي نفسها بعد أن علمت بفراق زوجها.

ويكفي أن نعلم وتعلم معنا أن عبد المطلب قَدْ وجد عَلَى ولده وجدًا شديدًا، لم يسبق له أن مر بمثله فِي حياته الطويلة العريضة.

ولسنا الآن بصدد الحديث عن عبد المطلب فإننا فِي شغل عنه بالحديث عن آمنة أم النبي ﷺ عظيم الساحة المنتظر.

ومن نعم الله عَلَى الإنسان أن يلجئه فِي أوقات حزنه إِلَى مَا يفرج عنه من البكاء والحديث والرثاء.

أما آمنة فقد سجل التاريخ لها أنها قَدْ قالت فِي زوجها كلاما أقل مَا يقال فيه أنه تعبير عن بعض مَا يعتمل فِي صدرها.

وسأخلي بينك وبين مَا قالته أم النبي ﷺ علك تتصور منه مَا لاَ أتصور وتدرك منه مَا لاَ أستطيع أنا أن أدركه.

قالت أم العظيم شعرًا فِي زوجها حين علمت أنه فِي ذهاب لاَ يؤوب منه الذاهبون:

عَفَا جَانِبُ الْبَطْحَاءِ مِنَ ابْنِ هَاشِمٍ ∴ وَجَاوَرَ لَحْدًا خَارِجًا فِي الْغَمَاغِمِ [1]

---

(١) الغماغم: الأغطية

دَعَتْــهُ الْمَنَايَــا بَغْتَــةً فَأَجَابَــهَا ∴ وَمَا تَرَكَتْ فِى النَّاسِ مِثْلَ ابْنِ هَاشِمِ
عَشِيَّــةَ رَاحُــوا يَحْمِلُونَ سَرِيرَهُ ∴ يُعَاوِرُهُ أَصْحَابُهُ فِى التَّزَاحُــمِ [1]
فَإِنْ يَــكُ غَالَتْهُ الْمَنَايَا وَرَيْبُهَــا ∴ فَقَــدْ كَانَ مِعْطَاءً كَثِيــرَ التَّرَاحُــمِ

ثم قالت فى أبيات أخرى أوردها القاسم الوزيرى المغربى رحمه الله تعالى ورضى عنه:

أَضْحَى ابْنُ هَاشِمٍ فِى مَهْمَاءَ [2] مُظْلِمَةٍ ∴ فِى حُفْرَةٍ بَيْنَ أَحْجَارٍ لَدَى الْحَصَــرِ

سَــقَى جَوَانِــبَ قَبْــرٍ أَنْتَ سَاكِنُــهُ ∴ غَيْثٌ أَحَمَّ [3] الذَّرَى [4] مَلآنُ ذُو دَرَرِ

تلقت آمنة الخبر وآست آمنة عَلَى زوجها بالغ الأسى.

وذهب عبد الله مع الذاهبين ذهابًا لاَ لقاء بعده إلا فِى يوم الدين.

فيَا لشباب الفتى النضير، يهتصره الموت إثر فرحة الفداء!

ويَا للَّه للعروس الشابة، تترمل هكذا سراعا، وما يزال فِى يديها خضاب العرس!

أُمُومَةٌ تَمْحُو أَلَمَ الْفِرَاقِ وَوَصْفَ التَّرَمُّلِ:

عاشت آمنة تقاسى آلام الوحدة، يشاركها أهل مكة من قريب ومن بعيد آلامها وحزنها عَلَى بعلها الذى ذهب، ولكنها تنفرد وحدها بقدر أوفى من الحزن وألم الفراق.

وتشاء العناية الإلهية أن تكون مظلة اللطف بهذه الأرملة، مرتكزة عَلَى هذا الذى تحمله بين جنبيها.

فحركته فِى أحشائها سكينة مطلقة.

---

(١) تعاوره: يتداولونه بينهم

(٢) المهماء: المفازة والجمع المهامه.

(٣) أحم الشىء: قرب ودنا

(٤) الذرى: بفتح الذال المعجمة اسم لما ذرته الريح كَمَا يقال عَلَى الدمع النازل من العين بغزارة.

وما يحيط به من أحوال تجدها آمنة فِى اليقظة والمنام، ضوء الطريق أمامها تبصر به آفاقا فِى الغيب المجهول لاَ يبصره غيرها ممن يحيطون بها من الآباء والأتراب.

فرؤاها لاَ تكاد تنقطع عنها، وهى رؤى ليست من باب هَذِهِ الرؤى المختلطة التى لاَ يستفيد منها أصحابها شيئا، ولا يدركون من مراميها قليلا أو كثيرًا، وإنما هَذِهِ الرؤى واضحة بَنفسهان دالة بذاتها عَلَى مراميها، مضيئة عَلَى مقاصدها.

وآمنة تفهم من ذلك كله مَا يجعلها تتعدى مرحلة الطمأنينة لتدخل فِى شىء غير يسير من السعادة الغامرة.

ومن الأحوال المحيطة بالعظيم الذى يسكن أحشاءها، مَا قرع سمع المكيين ذات صباح من حشد الحشود فيما قدره المؤرخون بستين ألف مقاتل ومعهم من العتاد مَا ليس للمكيين به عهد، وما يعترف المكيون معه بأنهم ليس لهم به قبل ولا طاقة.

تسامع الناس فِى مكة ذات صباح بهذا الحشد المغير عَلَى لسان النذير القادم من جهتهم، يحمل رسالة لشيخ مكة وعظيم سكان الحرم يومئذ وهو عبد المطلب جد القادم الوشيك.

جاء النذير من قِبَل أبرهة يسأل عن شيخ مكة وعميد قريش، فدلوه عَلَى عبد المطلب، فأخبره أن أبرهة مَا جاء لقتال وإنما هدفه هدم الكعبة، فإن تركوه وما أراد، فلا حاجة له فِى إراقة دمائهم، وإن هم نبذوا إليه فسينبذ إليهم عَلَى سواء، ويدخل معهم فِى معركة تحسب نتائجها للأقوياء دون الضعفاء.

وأجاب عبد المطلب: إننا لن ندخل مع أبرهة المعركة، وللبيت رب يحميه.

وانصرف الشيخ عن النذير إِلَى قومه يطلب إليهم أن يتركوا الحرم، ويخرجوا إِلَى رءوس الجبال، ولا يدخلون فِى معركة غير متكافئة فيلحقهم مع فناء الرجال عار الهزيمة إِلَى أبد الآباد، ثم انعطف الشيخ بعد ذلك إِلَى درج بيت ولده عبد الله ليوصله إِلَى داخل البيت، فيخبر آمنة أنه سيرسل إليها من يصحبها لتكون مع الصاعدين إِلَى رءوس الجبال.

والذى يظهر لى ولغيرى أن آمنة وإن اندهشت من الطلب، فإنها لم تروع من تجييش الجيوش لهدم الكعبة عَلَى يد أبرهة ومن عاونوه من الأحباش.

اطمأنت أم العظيم المنتظر، فلم يشأ الله عز وجل أن يلتاع فؤادُها بعد لحظـــة فـــراق زوجها عَلَى شيء، لاَ. ولا قلامة ظفر.

وانتظرت آمنة الرسول الذى سيصحبها وفؤادُها ينطوى عَلَى أمنية غالية، وهى أن لاَ تضع وليدها المنتظر الذى استودعها عبد الله إياه إلا فِى بيت عبد الله.

وانقضى النهار كله وأقبل الليل، ولم يأت لها من قبل عبد المطلب رسول ولا خبـــر، ولكن الدنيَا من حولها هادئة، والذين يقفون فِى ساحة الحرم، يقفون تحت مظلة من السكينة كأن عَلَى رءوسهم الطير.

ترى ماذا حدث ؟

إن الذى حدث هو أن القدر قَدْ تدخل، وأصيب الجيش الجرار بما وصف بعد ذلك فِى القرآن الكريم من الطير الأبابيل والأحجار، فتحول أفراد الجيش كلهـــم إِلَـــى مَـــا يشـــبه العصف المأكول.

وهدأت مكة، وعاد الشيخ إِلَى بيت ولده عبد الله لينظر آمنة، فوجدها هادئة مطمئنة.

فلما اطمئن الشيخ عَلَى أرملة ولده أخذته النشوة بما صرف الله عنهم من ثقـــل عـــار كان وشيك الوقوع، فردد مَا كان قَدْ ذكره أمام البيت العتيق، وهو آخذ بِحلَقِ الباب يخاطب ربه ويستغيثه:

يَارَبِّ لاَ أَرْجُو لَهُمْ سوَاكَا

يَا رَبِّ فَامْنَعْ مِنْهُمُ حِمَاكَا

إِنَّ عَدُوَّ الْبَيْتِ مَنْ عَادَاكَا

امْنَعْهُمُوا أَنْ يَخْرِبُوا فِنَاكَا.

فرددت آمنة من بعده:

يَارَبِّ لاَ أَرْجُو لَهُمْ سوَاكَا

دفع الله عن أهل مكة وعن البيت الحرام شرًا مستطيرًا.

وكان أهل مكة عَلَى عقيدتهم من أن الله قَدْ رد الأحباش ردًا مزريًا عَلَى هذا النحـــو؛

إكراما للبيت الحرام وللمحطين به؛ لعنايتهم بالقادمين إِلَى البيت الحرام حاجين ومعتمرين.

وما هى إلا أيام مضت حتى زال عن آمنة وصف أنهـا أرملـة عبـد الله، إِلَـى أن أصبحت أم العظيم بعد أن أقبل إِلَى الدنيَا ابنها الكريم محمد بن عبد الله ﷺ.

خمسون يوما مضت من هذا الحال الذى أَلَمَّ بمكة، أصبحت بعدها آمنة أماء، وأى أم ! فزاد قدوم النبى ﷺ إِلَى بيت عبد الله فِى طمأنينة آمنة بل فِى طمأنينة الجميع.

ولم يعد التاريخ بعد مقدم النبى ﷺ يتحدث عن آمنة بأنها أرملة عبد الله، وإنما تغيـر الحال فأصبحت آمنة أم محمد ﷺ.

واعتقد الناس وإلى الآن وهو اعتقاد صحيح أن حادث الفيل لم يكن إلا إرهاصًا مـن إرهاصات كثيرة، ولم يكن إلا مبشرًا من مبشرات ائتلفت كلها لتشهد لعظيم الساحة ولأمته بمجد منتظر.

أُمُومَةٌ وتَضْحِيَّةٌ:

لقد أتمت آمنة عَلَى أى حال حملها، وجاء ميعاد تشريف عظـيم السـاحة للسـاحة، فوضعته أمه فِى ظروف مهيأة تقبلها شعائر المؤمنين، وتغتبط بهـا ولا يرفضـها عقـل العاقلين؛ حيث إنها لاَ يتناقض مع العقول.

ولسنا فِى حاجة اليوم لأن نناقش هَذِهِ الظروف المحيطة بميلاد النبى ﷺ من أمه آمنة بنت وهب.

أولا: لأننا نريد أن نعفى أنفسنا من جدل عقيم.

وثانيًا: لأن هَذِهِ الظروف لها مناسبة أخرى من البحث غير هَذِهِ المناسبة.

وإذا كان البعض [1] يرضيهم أن نقول لهم: إن آمنة بنت وهب قَـدْ حملـت بعظـيم الساحة، ووضعته كَمَا تحمل كل أنثى وتضع، فإنا سنسلم لهم ذلك حتى نخلص من الجـدل إِلَى مَا نريد أن نقوله.

---

(١) راجع ر . ف . بودلى – الترجمة العربية لكتاب – الرسول حياة محمد – ترجمة محمد محمد فرج – عبد الحميد جودة السحار– الطبعة الثانية – مطابع دار الكتاب العربى مصر.

وما نريد أن نقوله هنا هو أن آمنة حين أتمت حملها ووضعت عظيم الساحة، انتقلت فجأة إِلَى رحابة الأمومة تشعر بها لأول مرة، وتنعم بأريجها الذى تتمناه كل امرأة تشبع به غريزتها التى فطرها الله عليها.

وهنا لاَ بد من القول إن ميلاد النبى ﷺ لم يكن يمثل لآمنة مجرد إشباع لغريزة الأمومة، وإنما هو مع ذلك يمثل بالنسبة إليها أملا قَدْ حملت به جميع نساء قريش، وتطلعت إِلَى تحقيقه كل عظيمة وشريفة فِى مكة، لكثرة مَا تردد عن قرب ظهور عصر نبى ينتظره الكون كله، وقد هيأت الظروف لظهوره.

وما من شىء لفت نظر آمنة فِى أيام حملها وقبلها، أكثر من حديث الناس حول هذا النور الذى كان يتلألأ فِى وجه عبد الله، إِلَى أن اصطبته آمنة منه فِى ظل عقد شرعى لاَ أثر فيه لسفاح.

وسواء أصحت هَذِهِ الأحاديث وتلك الروايات التى تؤكد انتشار هَذِهِ المعلومات حول عبد الله أو لم تصح، فإن دلالتها فِى الحالتين عَلَى المقصود من ورائها لاَ يفوت القارئ ولا يخطئ السامع.

ثم إن هَذِهِ الرؤى التى رأتها آمنة، وَهَذِهِ الأحوال التى أحاطت بها فِى حملها قَدْ أسهمت جميعا بحظ وافر فِى تنامى الأمل عندها فِى أن تكون هى أم عظيم الساحة المنتظر.

وليس بأقل من هذا كله مساهمة فِى تنامى هذا الأمل، هذا الذى رأته ورآه غيرها من أحوال قصها الناس عن النبى يوم ميلاده، بعضها يتصل به إرهاصًا بمستقبله، وبعضها يتصل بأمه وذويه يقوى عندهم الأمل فِى أن هذا القادم سيكون له هذا الشأن العظيم.

ولنا أن نضيف إِلَى مَا ذكرناه أن آمنة قَدْ رأت فِى وليدها الجديد مَا يملأ الفراغ الذى أحدثه وفاة أبيه، وما زال أريج الطيب ينضح من جسمه، وما زال وبيض مسلك العرس يلمع فِى مَفْرِقِهِ.

أمور ثلاثة أدركتها آمنة فِى لحظة الميلاد.

إِشْبَاعُ غَرِيزَةِ الأُمُومَةِ.

وتحقيق أمل عندها فِى أن تكون أما لهذا العظيم.

وملئ فراغ تركه زوجها الراحل لاَ يقدر أن يملأه سوى هذا القادم العظيم.

وهذا الميلاد بأبعاده الثلاثة يحملنا عَلَى القول: بأن مثل آمنة بنت وهب فِى حالها هذا لاَ يمكن بحال أن تفرط فِى هذا الوليد القادم الذى أسعدها وأشاع البهجة فِى من وما حولها من الناسَ والأشياء.

غير أن الله من حكمته أنه وضع مع الأمومة عنصر التضحية، وهو عنصر يحمل الأم عَلَى أن تضغط عَلَى مشاعرها ضغطا يحتاج إِلَى قوة إرادة، بقدر مَا فِى الأم من قوة، وما توفر لها من مقدرة.

ولقد علم الناس أنه من عادة العرب أن يسلموا أولادهم لناس بعيدين عن الحواضر التى تختلط فيها الألسن، وتوشك أن ترق فيها الطباع.

ويوشك التاريخ أن لاَ يجد لآمنة نظيرًا فِى أمومتها إلا فِى مثيلاتها اللاتى كان لهن شأن مع بعض أولى العزم من الرسل، من نحو مَا كان من هاجر وإسماعيل، ومن نحو مَا كان من مريم وعيسى، وقد أشاد النبى ﷺ بهما من بين من أشاد بهن من النساء.

أسلمت آمنة ابنها مع تعلقها الشديد به ليذهب مع الذاهبين إِلَى بادية بنى سعد، لتعود هى إِلَى وحدتها فِى بيت عبد الله، ليس لها من مؤنس فيه إلا طيف عبد الله زوجها، وانتظار الأمل فِى تغيير الأمة الذى سيقوم به ابنها.

والمرء لاَ يستطيع أن يتصور حجم المعاناة ومقدارها التى ألمت بآمنة طوال السنوات التى قضاها النبى ﷺ فِى بادية بنى سعد.

ولكنها الأمومة المثلى، وعظمة النفس عند آمنة يفهمها كل عظيم وعظيمة، يأخذون ويأخذن من التضحية بسبب، ومن الإيثار بطرف فِى سبيل إسعاد النفوس، ولو كان ذلك عَلَى حساب راحة كل عظيم أو عظيمة، فإنه من المعلوم أنه:

إِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا ∴ تَعِبَتْ فِى مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

قَضَى عظيم الساحة أيامه فِي بنى سعد ثم عاد إِلَى مكة، ففرحت به الـــديار وابتســـم لمقدمه أهلُه وذووه، وضمته مع أمه هَذِهِ الدار التى ضمت أمَّه وأباه من قبل، فكان يخرج منها، ويعود إليها، وأمه تأنس لخروجه وإيابه.

وأخذ عظيم الساحة يشب وينمو بسرعة غير معهودة فِي أترابه، وغير ملحوظة فِـــي قرنائه، وأمه تلاحظه، وتلاحظ فيه براعم الرجولة تنمو سريعا، ومخايل النجابة لاَ تخطئ سبيلها إليه، وما هى إلا أيامٌ تمر حتى وجدت آمنة فِي نفسها رغبة تلح عليها، وتحاصرها آناء الليل وأطراف النهار، فهى منذ مَا يقرب من سبع ســـنوات، قَـــدْ فقـــدت عبـــد الله، وصرفتها الصوارف، ووقفت دونها الموانع دون أن تذهب إِلَى قبره، تزوره وتذرف عليه من الدمع بقدر مَا يحملها الوفاء عَلَى أن تذرف من الدموع.

ولقد تعودت آمنة عَلَى مَا يبدو أن تحدث عظيم الساحة عن أبيه، وعما كـــان ينتظـــر منه، وعن قصتى الذبح والفداء، وعن السفر الذى ذهب فيه أبوه ولم يعد إِلَـــى بيتـــه مـــن سفره الذى مات فيه.

وظنى أن عظيم الساحة كان شديد الشوق إِلَى رؤية المكان الذى ضم رفـــات أبيـــه، عَلَى نحو مَا كان شوق أمه إِلَى زيارة هذا المكان.

وما أن فاتحت آمنة ابنها فِي ذلك، وأخبرته أنها راغبة فِي زيارة هذا الحى من بنـــي النجار، حتى قبل سريعا منتشيًا بهذا القبول.

وأعدت آمنة راحلتَها، واصطبحت معها جاريتها بركة تعقد العزم عَلَى أن تقطع رحلة المائتى ميل تحت وهج الشمس الذى يلهب الصخور، ويوشك أن يذيب الرمال.

والتحقت راحلتها برحلة الصيف التجارية تأتنس بهم، وتجد فِي القرب منهم شيئا مـــن الأمان.

وألقت آمنة عَلَى الدار التى ضمتها وعبد الله أولا، ثم وضعت فيها وليـــدها العظـــيم ثانيًا، وقضى فيها عظيم الساحة مع أمه هذا الشطر من حياته.

وَدَّعَتْ آمنةُ هَذِهِ الدار عَلَى نحو مَا ودعها عبد الله من قبل، ثم أغلقت الباب وشـــدت

رتاجه وهبطت عَلَى الدرج الحجرى قاصدة راحلتَها، فركبت وركب معها عظيم الساحة تصحبهما جاريتهما بركة التى تركها لهما رب الدار الراحل، وسارت الراحلة، فِى شىء من البطء يمكن آمنة من أن تلقى نظرة الوادع الممزوجة بشىء من التأمل عَلَى مكة والبيت العتيق.

وانصرفت آمنة مع السائرين حتى تراءت لها يثرب فدخلتها مع عير التجارة، فتخلفت هى فِى بنى النجار، وتزودت عير التجارة بما تحتاج إليه من ماء وطعام، وانصرف الناس إِلَى وجهتهم قاصدين الشام.

أما آمنة فقد بقيت فِى حى النجار وسط ترحيب أهل الحى وفرحهم شهرًا كاملا، كانت آمنة فيه تختلف إِلَى قبر زوجها، كلما أرادت أن تختلف إليه من ليل أو نهار، ولا أحد غير الله يعلم مَا الذى كانت تصنعه آمنة أو تقوله عَلَى قبر زوجها حين تختلف إليه، وربما كان يختلف معها عظيم الساحة أحيانا، ولكنه فِى معظم الأحايين كان يسلك أدرب يثرب، ويتعرف عَلَى كل شىء فيها، ويستقرى الوجوه، والجميع لاَ يدرى أن القدر يعده إِلَى شىء.

والجميع لاَ يدرى أن عظيم الساحة بعد أن يؤدى وظيفته المناطة به ستكون رحلة الخود التى تنتظره من هنا وقريبًا من قبر أبيه.

بقيت آمنة شهرًا هى فيه مستمتعة بلقاء الليل والنهار بوجودها إِلَى جوار زوجها، لاَ يفصله عنه إلا صمت القبور، ورهبة الموت وطبقة من تراب.

فهل تمنت آمنة اللحوق بزوجها، وأن تدفن عَلَى القرب منه ؟

وإذا كانت هَذِهِ هى أمنيتها، فهل يستجيب القدر؟

ذهبت آمنة تودع القوم عَلَى كره منها، وودع القوم معها عظيم الساحة وبركة جاريتهما.

فلما علا الركب البيداء، ظهرت عاصفة شديدة تحمل معها ما تحمل من أسباب الأذى واضطراب المناخ.

وأصيبت آمنة بشىء من الإعياء تبعه كثير من الشحوب، وظن عظيم الساحة، وظنت

بركة أن هَذِهِ بوادر وعكة لاَ تلبث أن تزول، ولكن آمنة قَدِ اشتد بها الأمـر، وعلمـت أن هذا مرض لاَ برء منه، فنادت ابنها كأنها تعهد إليه، وتذكره مَا عسى أن يكون عليه مـن بعدها، وما كان عليه أبوه من قبل فأسمعته قائلةً وهو ينصت إليها.

بَـارَكَ فِيـكَ اللّـهُ مِـنْ غُـلاَمْ

يَا ابْنَ الَّذِى مِنْ حَوْمَـةِ الْحِمَـامْ

نَجَـا بِعَـوْنِ الْمَـلِكِ الْعَـلاَّمْ

فَـوُدِى غَـدَاةَ الضَّـرْبِ بِالسِّهَامْ

بِمِئَـةٍ مِـنْ إِبِـلٍ سُـوَامْ

ولما رأت آمنة ابنها وكأنه قَدْ أخذته الدهشة من فرط مَا يرى، أنبأته أن هَـذِهِ سـنة الحياة، وعليه أن يتقبلها كَمَا تقبلتها هى من قبل حين كان يوم أبيه فقالت: له وهو يسمع:

« كل حى ميت، وكل جديد بال، وكل كبير يفنى، وأنا ميتة وذكرى باق، فقد تركـت خيرًا وولدت طهرًا ... »

سمع عظيم الساحة هَذِهِ الكلمات، وكأنها كانت آخر العهد بأمه فِـى الـدنيَا، فـذهبت بعدها كَمَا يذهب الذاهبون.

ودفنت آمنة بالأبواء وولدها ينظر وهو لاَ يملك لهـا ردًا، لأنهـا لاقـت مصـيرها المحتوم.

ذِكْرَى لاَ تَنْقَطِعْ:

وما كان النبى ﷺ بعد أن تلقى النبوة يمر بهذا المكان، إلا ويستأذن صحابته، ثم يخلو بذكرى أمه، وتعود به ذاكرته إِلَى يوم أن واراها التراب، فتجيش به نفسه فِى كـل مـرة يبكى مَا شاء الله له البكاء، ويبكى لبكائه الحاضرون.

حدثت عائشة أم المؤمنين رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: « حج بنـا رسـول الله ﷺ حجـة الوادع، فمر عَلَى قبر أمه وهو باك حزين مغتم، فبكيت لبكائه ﷺ .... ».

وما كان النبى ﷺ ليمر بهذا القبر يوما دون أن ينصرف إِلَى أمه، فيجلس إِلَى قبرهـا

مَا شاء الله له أن يجلس، ثم يعود إِلَى أصحابه، فيواصل الرحلة من ذهاب عن المدينـــة أو إياب إليها.

اللَّهُ يَعْصِمُ جُثْمَانَ آمِنَةَ مِنْ الْعَبَثِ بِهِ:

وإذا كان النبى ﷺ لاَ يقصر فِى زيارة أمه حنوا ووفاء، فإن التاريخ لاَ يقصـــر فِـــى تسجيل زيارات النبى ﷺ لهذا القبر وانفعالاته مع ساكنته.

وبزيارة النبى ﷺ وتسجيل التاريخ لها ينتشر ذكرى آمنة فِى الزمان والمكان تغلـــف الهيبة هَذِهِ الأم عَلَى طول الزمان واتساع المكان، لاَ يجرؤ أحد يحترم وجوده أن ينال من هَذِهِ الذكرى.

ولم تقتصر أسباب هيبة آمنة وذكراها عَلَى أمومتها لهذا العظيم، وتذكر هذا العظـــيم لها، وزيارته لقبرها كلما غدَا أو راحَ عَلَى مكان قبرها.

لا تقتصر أسباب الهيبة عَلَى مَا ذكرناه بل إن الله قَدْ شـــاء – ومشـــيئته خيـــر – أن يتعرض جثمان آمنة وهو تحت الثرى إِلَى فكرة شيطانية، لو أنها تحولت إِلَى واقع لكـــان لها أثر شديد عَلَى هيبة آمنة ومكانة ذكراها بين الناس، غير أن الله عز وجل قَـــدْ حفـــظ لآمنة هيبتها، وحفظ لذكراها مكانتها حتى لاَ يسيئها فِى نفسها ولا فِى ذكراها، وحتـــى لاَ يساء النبى ﷺ فِى أمه التى أراد الله عز وجل أن تكون وعاء له شهور حمله، وأن يكون صدرها أمنا لنفسه فِى أيامه الأولى.

وأنا يَا صَاحِ سأخلى بينك وبين هَذِهِ الرواية من روايات التاريخ أنقلهـــا بـــين يـــديك بألفاظها، عَلَى أمل أن يكون فيها من التأمل أكثر من قدرتى وطاقتى من التأمل فيها، ثـــم نعود بعد ذلك نسأل الله أن يحفظنا دائما فوق الأرض، وتحت أطبـــاق الثـــرى، ويـــوم أن نعرض عليه للحساب.

حدث التاريخ أن قريشا قَدْ همت بالأبواء – ذاهبة إِلَى معركة أحد – [بنبش قبر آمنة أم رسول الله ﷺ، ثم كفهم الله تعالى عن ذلك.

« روى أبو الوليد الأزرقى عن هشام بن عاصم الأسلمى قال: لما خرجت قريش إِلَى النبى ﷺ فِى غزوة أحد فنزلوا بالأبواء قالت هند بنت عتبة لأبى سفيان: أو نبشتم قبـــر أم

محمد فإنها بالأبواء، فإن أسر أحدًا منكم فديتم كل إنسان بإرب من آرابهـا، فـذكر ذلـك لقريش وقال: هذا الرأى، فقالت قريش: لاَ تفتح هذا الباب لئلا تفتح بنو بكر موتانا» [1].

أرأيت يَا صَاحِ إِلَى عصمة الله لمن يريد كيف تبلغ مبلغها، وكيف تكون الأسباب التى تسير عليها لو أراد الله تسييرها عَلَى الأسباب؟ !

أما أنت يَا آمنة فقد أراد الله بك أن تبلغى من العظمة مبلغا لم يحظ بمثله جميع نسـاء العالمين.

فلتهنئى بأمومتك للنبى ﷺ فِى الدنيَا، ولتهنئى بأمومتك للنبى ﷺ يوم الأشهاد.

---

(١) سبل الهدى والرشاد جـ ٤ – صـ ٢٧٣

لقد جاء عظيم الساحة إِلَى الساحة عَلَى مقتضى الأسباب التى اقتضت سنة الله أن يأتى عليها إِلَى الدنيَا كل حى، لأن هَذِهِ الأسباب هى سنة الله الجارية فِى الخلق، لم يخرج عنها إلا آحاد اقتضتها قضية الخلق وإبراز قدرة الله بين المخلوقين.

ولقد جاء عظيم الساحة من أبوين هما: عبد الله بن عبد المطلب، وآمنة بنت وهب.

وإذا كان المرء أحيانا يشرف بشرف أبويه، فإن الأبوين يرتفع ذكرهما بذكر أبنائهما أو بعضهم لو كان للأبناء، أو بعضهم ذكر.

فالله لم يشأ أن يقطع الآباء عن الأبناء، فخير الآباء إِلَى الأبناء نازل، ولم يشأ أن يقطع الأبناء عن الآباء، فخير الأبناء إِلَى الآباء صاعد.

وأنت تقرأ القرآن الكريم فتجد الآباء من الأنبياء والصالحين، لاَ يفتأ الواحد منهم يدعو لذريته، من رأى منهم ومن لم ير.

فإبراهيم وإسماعيل ينتهيان من أكبر عمل صالح ثم يسألان الله القبول منْهُمَا والدعاء لأنفسهما وذرياتهما: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٨].

وإبراهيم من قبل قَدْ دعا الدعوة نفسها لإسماعيل وبنيه: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم:٣٧].

وهذه امرأة عمران وضعت مريم ووهبتها لبيت الله خادمة له: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران:٣٦].

والصالح من البشر إن استقام عَلَى مقتضى فطرته تجده يقول فِى ضراعته: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف:١٥].

والله عز وجل يستجيب لهذه الضراعات فيقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١].

ويأتى رسول الله ﷺ من عبد الله وآمنة عَلَى رأس الأوفياء.

فما كان يوما يمر بقبر أمه إلا ويجلس إِلَى هذا القبر منفردًا يناجى ربه فِى شأنها بما لاَ نعلمه من المناجاة.

ثم ينصرف النبى ﷺ عن قبر أمه وآثار التأثر بادية عليه، فهو يذكر لأمه أحوالا وأياما قضتها معه.

وهو يذكر لأمه شفقتها به ورحمتها له.

وهو يذكر لأمه أن زوجها قَدْ رحل عنها وما يزال وميض المسك يلمع فِى مفرقه، وخضاب العرس لم يغادر أطراف آمنة بعد.

وهو يذكر لأمه مَا قاسته بعد فراق زوجها من الوحدة تعانى فيها ومعها أوزار الترمل الثقال.

إن النبى ﷺ ينصرف عن قبر أمه وقد ذكر من أحوالها، فيأخذه مَا يأخذ الابن إذا ذكر أحد آبائه فتجيش به نفسه، وتدمع عَلَى إثر هذا التأثر عيناه، ويبكى مَا شاء الله له أن يبكى، ويبكى صحابته لبكائه متأثرين بحال نبيهم وما يعتريه.

ولا أظن ولا أحد غيرى يظن أن النبى ﷺ سيكون من بين العالمين، هو الذى يتنكر لفضل أمه عليه لاَ يدعو لها بالرحمة، ولا يخاطب ربه فِى شأنها عَلَى نحو مَا قال ربنا فِى خطاب عام: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾.

ونحن لاَ نلتفت إِلَى مَا التفت إليه بعض الناس حين قالوا: إن النبى ﷺ قَدْ نهى عن أن يستغفر لأمه، أو يتحدث إِلَى ربه فِى شأنها.

والذين قالوا: إن النبى ﷺ قَدْ نهى عن أن يستغفر لآمنة استندوا إِلَى حديث يمكن أن نسميه بحديث الزيارة.

وإجمال هذا الحديث من جميع طرقه: أن رسول الله ﷺ قَدْ ذهب إِلَى قبر آمنة زهرة بنى زهرة وأم النبى ﷺ يزروها ثم عاد متأثرًا باكيًا فلما سئل عن ذلك قال: إنه قَدِ استأذن

ربه فِى زيارة قبر أمه فأذن الله له، ثم سأل ربه فِى الاستغفار لها فلم يـأذن الله لـه، ثـم كانت هَذه الزيارة وما ألم بها سببًا فِى نزول آية براءة وهى قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣].

وهَذا الحديث بجميع طرقه لم يرد فِى كتاب من الكتب الستة، وإنما هو قَـدْ أخرجـه الحاكم من حديث ابن مسعود، وأخرجه أحمد من حديث بريدة، كَمَا أخرجه الطبرانى مـن حديث ابن عباس.

ولقد نظر ابن حجر العسقلانى إِلَى هذا الحديث نظرة عامة تشمل جميع طرقه، ثم نبه إِلَى قاعدة عامة وهى: – أن صحة السند لاَ تستلزم صحة المتن – وعليـه فقـد اسـتنتج الرجل أن من صحيح هذا الحديث فِى أحسن أحواله، إنما ذهب إِلَى تصحيح السند فقط أما المتن فإنه لاَ يصح لمعارضته للواقع.

هذا كلام ابن حجر.

وسوف نحاول الآن معا نتتبع الحديث من طرقه المختلفة لننظر فِى سنده بعد حكم ابن حجر عَلَى متنه.

١ – فالحديث الذى ذكره ابن مسعود قَدْ أخرجه الحاكم عَلَى هذا النحو [حـدثنا أبـو العباس محمد بن يعقوب حدثنا بحر بن نصر حدثنا عبد الله بن وهب أنبأ ابن جريج عـن أيوب بن هانئ عن مسروق بن الأجدع عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ينظر فِى المقابر وخرجنا معه فأمرنا فجلسنا ثم تخطى القبور حتى انتهـى إِلَى قبر منها فناجاه طويلا ثم ارتفع نحيب رسول الله ﷺ وآله باكيًا فبكينا لبكائه ثم أقبـل إلينا فتلقاه عمر بن الخطاب فقال يَا رسول الله مَا الذى أبكاك فقد أبكانا وأفزعنـا؟ فجـاء فجلس إلينا فقال: أفزعكم بكائى ؟ فقلنا نعم يَا رسول الله.

فقال إن القبر الذى رأيتمونى أناجى فيه قبر أمى آمنة بنت وهب، وإنى استأذنت ربى فِى زيارتها فأذن لى فيه، فاستأذنته فِى الاستغفار لها فلم يأذن لى فيه ونزل علـى: ﴿ مَـا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣] حتى ختم الآية: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيـهِ إِلاَّ عَـن

مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ فأخذنى مَا يأخذ الولد لوالده من الرقة فذلك الذى أبكانى » [١].

وقد حكم الحاكم فِى مستدركه عَلَى هذا الحديث من هذا الطريق بأنه صحيح عَلَى شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وتعقبه الذهبى فِى تلخيص المستدرك قال: [(قلت): أيوب ابن هانئ ضعفه ابن معين][٢].

ونحن نعجب من الذهبى يأخذ عَلَى الحديث هنا هذا المأخذ فيضعفه بضعف أحد رواته، ثم هو ميزان الاعتدال يصحح الحديث تبعا للحاكم.

ولعله يكون قَدْ وهم حين حكم عَلَى الحديث بالصحة فِى الميزان « ويغفر الله لَنَا وله».

هذا وإن كاتب هَذِهِ السطور لعلى يقين من أن هذا الحديث، وإن كان قَدْ لاَ حقته العلة فِى السند، فإن هناك عللا أخرى تلاحقه فِى المتن.

أ – أما أحد هَذِهِ العلل فإن ظاهر الرواية يوحى أن رسول الله ﷺ قَدْ دخل المقابر يتخطاها ويتجاوزها يتفقد من بينها قبر أمه، وهذا أمر يخالف الواقع، فالمعروف أن أم النبى ﷺ مدفونة بالأبواء عَلَى الطريق بين مكة والمدينة عَلَى نحو مَا علمناه سلفا، وهذا الواقع يناقض ظاهر الحديث مما يستوجب رده.

ب – وَفِى المتن علة أخرى أو سبب آخر يستوجب رده، ذلك أن رواية الحاكم عَلَى مَا فيها تتناقض مناقضة ظاهرة مَا جاء فِى البخارى من صحيح الحديث والذى يؤكد رفض أن تكون رواية ابن مسعود سببًا لنزول آية التوبة.

حدث البخارى فِى صحيحه بالسند إِلَى سعيد بن المسيب عن أبيه قال: [لما حضرت أبَا طالب الوفاةُ دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية، فقال النبى ﷺ: أى عم قل لاَ إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله– فقال أبو جهل وعبد الله ابن أبى أمية: يَا

(١) المستدرك عَلَى الصحيحين – للحاكم النيسابورى، وبذيله التلخيص للذهبى – ط دار الكتاب العربى – بيروت – بدون ج ٢ صـ ٣٣٦ السابق–.
(٢) السابق حاشية.

أبَا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال النبى ﷺ لأستغفرن لك مَا لم أنـــه عنــك، فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (١)

والبخارى من خلال روايته تلك يفيد أن الآية مكية، والكلام لاَ يســتقيم مــع روايــة الحاكم عَن ابن مسعود السالفة الذكر إلا إذا قلنا: إن الآية مدنية.

وهكذا يظهر لَنَا بوضوح أن رواية الحاكم ضعيفة لسبب يرجع إِلَــى المــتن، وهــى ضعيفة من جهة أخرى لسبب يرجع إِلَى السند، فتأمل ذلك جيدًا يتضح لك المقام عَلَى وجه لاَ سترة به.

٢ - والحديث الذى ذكره بريدة فِى المعنى نفسه جاء بألفاظ مختلفــة ومــن طــرق متعددة سنذكر بعضها بين يديك.

فى مسند أحمد بالسند إِلَى بريدة عن أبيه قال: [كُنَّا مع النبى ﷺ ونحن فِى سفر فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقــام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال: يارسول الله مَا لك؟ قال: « إنى سألت ربى عز وجل فِى الاستغفار لأمى فلم يأذن لى فدمعت عيناى رحمة لها من النار، وإنى كنــت نهيتكم عن ثلاث ... إِلَى آخر الحديث] وَفِى قراءتنا لهذا الحديث نجد السفر الــوارد فيــه مبهم.

وقد يزول الإبهام لو اطلعنا عَلَى الحديث نفسه من رواية ابن جرير من طريق علقمة بن مرثد عن سليمان عن أبيه [أن النبى ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه فجعــل يخاطب ثم قام مستعبرًا فقلنا يارسول الله إنا رأينا مَا صنعت.

قال: إنى استأذنت ربى فِى زيارة قبر أمى فأذن لى، واستأذنته فِى الاستغفار لها، فلم يأذن لى، فما رئى باكيًا أكثر من يومئذ].

ولقد حكى السيوطى للحديث روايات متعددة، وكلها لاَ يعمل بها.

---

(١) الحديث فِى فتح البارى عَلَى صحيح البخارى – ٦٥ ك تفسير، ١٦ باب « مَا كان للنبى ...» ح ٤٦٧٥ – السلفية – جـ ٨ صـ ٣٤١.

أما أولا: فلأنها تخالف الواقع، ففيها أن قبر آمنة بمكة، وهو خطأ صريح حيث يأباه الواقع والتاريخ.

وفِى المتن علة أخرى ظاهرة تحملنا عَلَى رفضه وهى: أن هذا الحديث قَدْ سبق عَلَى أنه سبب لنزول آية: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآتيان، وهو خطأ صريح لأن سبب نزول هاتين الآتين هو: أن النبى ﷺ كان يحاول أن يستغفر لعمه أبى طالب، فنهى عن ذلك عَلَى مَا هو صريح فِى رواية الشيخين كَمَا مر بك آنفا.

٣ – أما رواية ابن عباس للحديث فقد أخرجها الطبرانى، وهى قريبة من لفظ ابن مسعود وغيره فلا نطيل بذكرها.

فالرواية قَدْ ذكرها ابن كثير وعزاها إِلَى الطبرانى، ثم قال بعد ذكر الحديث: [وهذا حديث غريب وسياق عجيب] (١).

وعبارة ابن كثير تشعر بضعف الحديث، بل هى قاطعة بذلك.

ورواية ابن عباس كسابقتيها عَلَى هذا النحو مخالفة لرواية الشيخين.

كما أنها تحملنا عَلَى الاعتقاد بأن أم النبى قَدْ دفنت بمكة، ففيها مخالفة للواقع والتاريخ.

ولقد لاحظ ذلك الإمام السيوطى فقال تعليقا عَلَى رواية ابن عباس الموجودة فِى الطبرانى بعد أن ساق لفظها: [له علتان: مخالفة الحديث الصحيح كَمَا سبق.

وإسناده ضعيف].

والشىء العجيب أن حديث الزيارة كَمَا رأيت بجميع رواياته وطرقه ومتابعاته وشواهده لاَ يقوى عَلَى الاستدلال به فِى موضوعه وبابه.

والذى يبقى محل اعتقاد المسلمين هو أن النبى ﷺ كان بارًا بأمه كَمَا هو بار بأبيه يسغفر لهما ويزور قبرهما دون أن يمنع من شىء من ذلك إلا مَا كان فِى وهم أناس لاَ يستندون إِلَى حقيقة عقلية، ولا إِلَى نص من كتاب أو سنة.

---

(١) ابن كثير – تفسير ج ٢ صـ ٧٥.

وما كان لَنَا ولا لغيرنا أن نعتقد بأن النبى ﷺ أقل وفاء بأبويه من آحاد أمته.

وما كان لَنَا ولا لغيرنا أن نعتقد بغير نص شرعى بأن الله عز وجل أرسل نبيه رحمة للعالمين ثم يسيئه فى أبويه، ويؤلمه فيهما عَلَى رءوس الأشهاد دون مَا سبب مقبول، إلا مَا عسى أن يكون من هوى جامح لدى البعض الذين يريدون أن يجففوا منابع الحب فى القلوب، وأن يفرغوا سلوك الوفاء من معانيه بادئين من القمة يتربعها رسول الله ﷺ.

إن الحديث عن آمنة أم النبى ﷺ لاَ يجوز أن يكون بمعزل عن الحديث عن أمهات الأنبياء، كَمَا أن الحديث عن النبى ﷺ نفسه، لاَ يجوز أن يكون بمعزل عن الحديث عن الأنبياء، لاَ فِى شخصياتهم ولا فِى رسالتهم، فنحن نعلم جميعا أن الله قَدْ أمر نبيه أن يعلن فِى فم الزمان أنه ليس بدعا من الرسل؛ كى يعلم الناس جميعا أن سلسلة النبوة متصلة: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف:٩].

وإذا كان الأمر عَلَى هذا النحو فإن الحديث عن آمنة أم النبى ﷺ وزهرة بنى زهرة لاَ يجوز أن يكون معبرًا عن حَالة فريدة، مقطوعة الصلة بالأشباه والنظائر.

وأشباه آمنة ونظائرها بالقطع هن أمهات الأنبياء اللائى تكون كل واحدة منهن وعاء لنبى، من جزء منها يتكون فِى بداية خلقه، وَفِى فترة بقائه وديعة عندها يأخذ كَمَا يأخذ كل مخلوق غذاءه منها، كَمَا يتم بينه وبينها نوع من العلاقة العاطفية والوجدانية المتبادلة، لاَ يجوز أن يحكم عليها أحد بالانفصام أو القطع، إلا أن يكون إنسانا لاَ بصر له بالواقع، ولا خبرة له بالتكوين الحيوى والنفسى.

ومثلى لاَ يكون مطالبًا بأن يؤكد قاعدة استقر عليها الناس واستقبلوها بالارتياح والقبول وهى: أن المكان يشرف بشرف المكين، أى الحالِّ فيه، وطبقا لهذه القاعدة فإن الإنسان لاَ يجرؤ بحال من الأحوال أن ينال من أم نبى من الأنبياء، فنزل بها عن المستوى اللائق بهذا النبى، الذى أقام وتكون عَلَى بعض منها.

هذا حكم العقل المقطوع به يدركه كل من رزق قدرًا من الوعى، ولا يأبى التسليم به إلا كل شانئ لاَ يتسع طبعه أن يحكم بالعدل، ولا يتسع خلقه أن يعطى النَّصَفَةَ ولو من نفسه.

وليس حكم العقل وحده هو الفيصل فِى هَذِهِ القضية قضية شرف أمهات الأنبياء، وإنما يجاور حكم العقل حكم النص وحكم التاريخ معا.

فالواقع والتاريخ الخاصان بالأنبياء يعضدهما النص الشرعى أمور تتعاضد وتتكافئ وتتعاون فتؤكد مَا انتهى إليه العقل من حكم فِى هَذِهِ القضية الهامة.

فلو أننا تتبعا تاريخ الأنبياء، وذكرنا منهم مَا نعرفه عنهم، لم نجد نبيًا واحدًا حكم عَلَى أمه بأنها كافرة.

وأم الأنبياء من أبناء آدم من صلبه وهى حواء عليها السلام لم يحكم أحد من النـــاس بأنها مستبعدة من رحمة الله.

ومنَ نوح إِلَى آدم فِى شجرة الأنبياء الباسقة أخبر ابن عباس عنهم أنه لاَ يوجد واحـــد منهم قَدِ انحدر من أم أو أب يميلان إِلَى شىء من الشرك.

حكى الكرمانى عن ابن عباس قال: « لم يكفر لنوح والد بينه وبين آدم ».

وهذا الأثر أخرجه ابن سعد عن ابن عباس قال: « مَا بين نوح إِلَى آدم كـــانوا عَلَـــى الإسلام ».

وأنت خبير ولا شك أن نوحا عليه السلام استغفر لأبويه ولم يمنع مـــن ذلـــك بـــنص القرآن نفسه، حيث حكى عنه قوله: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ [نوح:٢٨].

وإسحق بن إبراهيم عليه السلام أمه « سارة » وهى من هى مـــن منـــازل الشـــرف والرفعة.

أما أم إسماعيل « هاجر » فقد بلغت شهرتها فِى وسط المتدينين مبلغا لاَ يكابر فيـــه مكابر.

ولقد حكى السيوطى عن أم يعقوب وأمهات أبنائه بـــأن الآثـــار قَـــدْ وردت بـــأنهن مؤمنات.

وأما أم موسى وهارون عليهما السلام فإنها قَدْ ذكرت فِى القرآن فِى نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧] الأمر الذى حمل بعض الظاهرية كـــابن حزم إِلَى أن يرفعها عَلَى مرتبة النبوة.

وسواء خالفنا الظاهرية أو وافقناهم فيما ذهبوا إليه من ادعاء النبوة لأم موسى، فـــإن مرتبة المؤمنات أو المؤمنين هى أدون بالقطع من مرتبة النبوة، ولم ينكرها عَلَى أم موسى

وهارون أحد من الناس.

ثم حكى السيوطى صحة إيمان أمهات داود، وسليمان، وزكريا، ويحيـى وشـمويل، وشمعون، وذى الكفل.

أما مريم عليها السلام أم عيسى النبى، فقصتها فِى القرآن مدونـة، حيـث إن آيـات القرآن قَدْ خلعت عليها من الأوصاف مَا لاَ يستطيع أحد أن ينكر بعضها فهى: البتول التى اصطفاها ربها وطهرها واصطفاها عَلَى نساء العالمين، وهى التى أمرها ربها أن تقنت له وتتبتل وتركع مع الراكعين، وهى التى انتدبت منذ أول أمرها للعمل فِى معبد ربها، وهى التى كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا.

وهى التى نظر الظاهرية كابن حزم إِلَى سيرتها، فوجدوا أن الله قَـدْ أوحـى إليهـا، فظنوا أن الوحى قرين النبوة، وقطعوا بنبوته.

وكما قلت من قبل إنه ليس من مَهَمَّاتنَا الآن: البحث فِى أن تكون النبوة فِى النسـاء، وإنما قَدْ عرضنا لرأى الظاهرية لنبين أن قضية أمهات الأنبياء لم يتوقف طرحها عند حد إيمانهن، وإنما ارتقى بهذا الطرح بعض العلماء متجاوزا حد الإيمان العادى إِلَى محاولـة إدخالهن فِى دائرة الأنبياء.

وإذا كان هناك من الأنبياء من وردت النصوص بإيمان أمهاتهم، فإن الإجمـاع قـائم عَلَى أن باقى أمهات الأنبياء محكوم لهن بالإيمان حيث إنه الأصل المقبـول، ولـيس لـه معارض من دليل صحيح أو غير صحيح.

وهذا الذى ذكرته لك مفصلا قَدْ عرض إليه السيوطى عَلَى وجه الإجمـال الحاصـر فقال: [وأما الإجمال: فأخرج الحاكم فِى المستدرك، وصححه عنه ابن عباس قال: «كانت الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة: نوح، وهود وصالح، ولـوط، وشـعيب، وإبـراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب ومحمد عليه السلام ».

وبنو إسرائيل كلهم كانوا مؤمنين لم يكن فيهم كافر إِلَى أن بعث الله عيسى، فكفر بـه من كفر، فأمهات الأنبياء الذين من بنى إسرائيل كلهن مؤمنات، ولم يبعث بعد عيسى أحد فِى الأشهر.

وأما العشرة: فقد ثبت إيمان أم إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وذكر إيمـــان أم نـــوح وإبراهيم، وبقى أم هود وصالح ولوط وشعيب يحتاج إِلَى نقل أو دليل.

والظاهر إن شاء اله تعالى إيمانهن، فثبت بهذا الاستدلال إيمان الجميع، وكان الســـر فِي ذلك مَا يرينه من النور لما ورد فِي الحديث « وكذلك أمهات النبيين يرين »!!].

وإذا كان الأمر عَلَى هذا النحو الذى استوجب الحكم العام عَلَى أن أمهات الأنبياء فِي جنات النعيم.

وإذا كان هذا هو حكم العقل، كَمَا هو حكم القرآن الكريم والآثار وإجماع العلماء.

إذا كان الأمر عَلَى هذا النحو الذى رأيت، فإنه يكون من باب الفصـــام النكـــد فِـــى شخصية أناس رأوا أن تنفرد أم النبى ﷺ بحالة وحدها من دون أمهات الأنبياء، عَلَى غير دليل محقق يحكم به العقل أو يأتى به النص.

والصحيح الذى تقتضيه الأدلة، والذى يقضى به المنطق السليم أن – زهرة بنى زهرة « آمنة بنت وهب » – لاَ تختلف كثيرًا ولا قليلا عن أمهات الأنبياء السابقات عليها إن لم تتفوق عليهن باعتبارها أما لعظيم الساحة فِى دنيَا التاريخ، وآخر لبنة يشهدها الوجود فِي صرح الأنبياء عليه من الله أفضل صلاة وأتم سلام.

آمِنَةُ وَأَهْلُ الْفَتْرَةِ

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾

للعلماء حديث مطول عن أناس خلقهم الله فِى فترة بين نبيين، وتساءلوا عن هؤلاء الناس: هل هم مكلفون أم . لاَ ؟

ولقد كثر القيل والقال مع شدة وضوح المسألة، ومع عدم احتياجها لإطالة الوقوف حولها.

فالعقل السليم قاض فِى كل العصور بأنه لاَ جريمة إلا بنص، ولا عقوبة إلا بمخالفة لهذا النص.

والمكلفون من الناس إما أن يكلفوا بمعرفة الله عز وجل، وإما أن يكلفوا بما يطالبهم الله بفعله، أو بما ينهاهم الله عنه.

وقصارى القول فِى مسألة معرفة وجود الله، أن العقل قادر بنفسه عَلَى إدراك هذا الوجود.

ومع التسليم بأن العقل قادر عَلَى إدراك وجود الله، فإنه تبقى عندنا قضية هامة، وهى تكليف هذا العقل بالقيام بهذه المهمة التى يستطيعها، لأن هذا التكليف نفسه هو الذى سيتوقف عليه الثواب والعقاب، فليس كل قادر عَلَى شىء يكون مكلفا بأدائه، من غير أن يكون هناك تكليف يحمله عَلَى ذلك بمقتضى نص ملزم.

وعلى هذا فإن العقل القادر عَلَى أن يقيم الدليل لنفسه الذى يتوصل به إِلَى معرفة أن الله موجود، لاَ يكون فِى موضع المساءلة مَا لم يكن هناك نص معتمد قطعى الثبوت والدلالة يحمله عَلَى القيام بهذه المهمة.

وإذا وضح هذا الأمر هنا، فإن المسألة فيما يتعلق بمعرفة الله عَلَى التفصيل، وما يتصل به من أحكام وأسماء وصفات، وما يختص به من حق التشريع الدائر عَلَى مطلوبات الله من أمر ونهى، إِلَى غير ذلك من تفصيلات لها اتصال بكليات وجزئيات ليس للعقل قدرة عَلَى أن يستقل بإدراكها.

أقول: إن المسألة حين تتعلق بإخبار الله عن نفسه، أو إخباره عما يريده من العباد

مما تتضمنه الأوامر والنواهي، تكون قد خرجت عن نطاق العقل وقدرته عن أن يدركها بالاستقلال، أو يفهمها بغير توجيه وتشريع.

والمسألة عند هذا الحد تكون واضحة الدلالة علَى أن كل من لم تبلغه الدعوة، وكل من كان وجوده بين نبيين، نبي قد مضى وشوهت رسالته، ونبي لم يأت بعد حتى يعلمنا مَا الذي يريده الله منا، وأمثالهما من الصبيان الذين ماتوا قبل التكليف، أو المجانين الذين لاَ يملكون جوهرة العقل التي هي أساس التكليف ....

إن هؤلاء جميعا إذا مات الواحد منهم علَى حالته، يكون معذروا غير مسئول عن العقيدة والشريعة اللتين يسئل عنهما غيره ممن لاَ يكون علَى مثل حاله.

هذا حكم العقل المقطوع به.

وحكم العقل المقطوع به هنا تؤازره مجموعة من النصوص الشرعية الواردة عن الله عز وجل، والمقطوع بصحتها ودلالتها، والتي منها قوله تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥].

وقوله: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [الزمر:٧١].

وقوله: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك:٨، ٩].

وقوله: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٧].

وَفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل بلفظها ومعناها علَى المقصود منها دلالة لاَ تحتمل التأويل أو الصرف عن ظاهرها.

وعلماء الآمة المعتمدون في العلم ذاهبون إلَى مَا ذهبت إليه هَذِهِ الآيات المعضدة لحكم العقل في هَذِهِ المسألة.

قال القرطبى فِى تفسيره لآية سورة الإسراء بعد أن ذكرها [قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ أى لم نترك الخلق سدى، بل أرسلنا الرسل.

وفِى هذا دليل عَلَى أن الأحكام لاَ تثبت إلا بالشرع، خلافا للمعتزلة القائلين بأن العقل يقبح ويحسن ويبيح ويحظر.....

والجمهور علَى أن هذا فِى حكم دنيوى، أى أن الله لاَ يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار.

وقالت فرقة: هذا عام فِى الدنيَا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا ﴾.

قال ابن عطية: والذى يعطيه النظر أن بعثة آدم عليه السلام بالتوحيد، وبث المعتقدات فِى بنيه مع نصب الأدلة الدالة عَلَى الصانع مع سلامة الفطر، توجب عَلَى كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم تجدد ذلك فِى زمن نوح عليه السلام بعد غرق الكفار.

وهذه الآية أيضًا يعطى احتمال ألفاظها نحو هذا فِى الذين لم تصلهم رسالة، وهم أهل الفترات الذين قدر وجودهم بعض أهل العلم.

وأما مَا روى من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديث لم يصح، ولا يقتضى مَا تعطيه الشريعة من أن الآخرة لسيت دار تكليف.

قال المهدوى: وروى عن أبى هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولا إِلَى أهل الفترة، والأبكم والأخرس والأصم، فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه فِى الدنيَا، وتلا الآية، رواه معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة ذكره النحاس.

قلت هذا موقوف.

وسياتى مرفوعا فِى آخر سورة طه إن شاء الله تعالى.

ولا يصح.

وقد استدل قوم فِى أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا، فلا تكليف عليهم فيما مضى.

وهذا صحيح.

ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل.

والله أعلم] [1].

وليس القرطبى فِى هذا المجال نَسِيجَ وَحْدِهِ، ولا هو الذى انفرد برأى ارتآه ولكنه حكم العقل ومقتضى النص لم يستطع أن يجافيه، لاَ هو ولا غيره من علماء الأمة.

وأنا لاَ أريد أن أرشدك إِلَى العلماء الذين ساروا مع القرطبى وتابعوه فِى منهجه، لأن مجرد الإشارة إِلَى بعض هؤلاء العلماء ظلم لإخوانهم الذين لم نتمكن من ذكر أسمائهم.

لكن الذى نحب أن نرشدك إليه ولا شك، هو أن بعض بنى الإنسان فِى مواقف كثيرة، تضيق بهم دائرة الجد فلا يسعهم إلا قضاء الهزل ينطلقون فيه بغير حدود.

فهم يقولون هنا مثلا: إن أهل الفترة ومن شابههم من الصبيان والمجانين، ومن لم تبلغهم الدعوة يعذبون فِى نار جهنم ولا عذر لهم بشىء من أحوالهم.

فلا عذر لأهل الفترة أنهم ماآتاهم من نذير، ولا عذر لمجانين فِى أنهم قَدْ فقدوا العقل الذى هو أساس التكليف، ولا عذر لأهل الجزر النائية أو البوادى البعيدة، أو الأدغال المعزولة فِى أنهم لم تبلغهم الدعوة.

إى والله.

لقد وجدنا من بعض الناس هَذِهِ المواقف قَدْ كتبت عَلَى ورق مع أنها فِى قيمتها الحقيقية، لاَ تساوى هذا المداد الذى أريق عَلَى الأوراق لكى تسطر به هَذِهِ الكلمات.

فإذا قلت للواحد منهم مَا حكم الإنسان يأتى بين يدى النبى، يدعوه النبى ﷺ إِلَى الإسلام فيسلم، هل يحاسبه الله عز وجل عَلَى مَا مضى من عمره مكلفا قبل أن يدخل فِى الإسلام ؟ نظر إليك فاغرًا فاه، ساكتًا لاَ يتكلم، فلو سألته عن حقيقة مَا قال النبى ﷺ «الإسلام يجب مَا قبله » وقف أمامك ساكتًا لاَ يحير جوابًا، وإذا سألت الواحد منهم عن حقيقة مَا جاء فِى القرآن عقب بعض الأحكام التشريعية وحكمه عام فِى سائرها من نحو

---

(١) تفسير القرطبى- طبعة دار الشعب – تفسير آية ١٥ من سورة الإسراء.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء:٢٣] لوجدته يجمع بين يديه ويضعهما علَى فمه وعينيه حتى لا تقرأ في عينيه ملامح الخجل لشدة ما فاجأه من النصوص.

إننا لا بد أن نعلم أن الحق الأبلج لا ينال منه سلطان الباطل الأجوف، مهما حاول مصطنعوه أن يظهروا بمظهر الجد، أو يتكايسوا بمصطلحات العلم.

ويبقى في النهاية للنص القرآني سطانه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾.

إذا تقرر هذا فنقول: « إن آمنة بنت وهب » لم تشهد بعثه النبي ﷺ قطعا، ولم يكن في زمانها دين صحيح لم يدخله التحريف بيقين، وهي بالإضافة إلَى ذلك لم يثبت أنها كانت تسجد لصنم وإنما كانت كسائر أفراد قومها تعرف أن للبيت الحرام ربًا يخالف ما تراه أو تسمع به من الأصنام من نحو: هبل واللات، والعزى، ومناة، فلو أضفنا إلَى ذلك أنها منذ حداثة سنها كانت مشغولة بما شغل فتيات مكة ونساؤها بما تردد في جنبات مكة وجزيرة العرب علَى العموم من أن هناك نبيًا قد أظل زمانه وأصبح ظهوره وشيكًا، وأن أمه ستكون من بني زهرة.

لو أنا أدركنا هذه الأمور جميعا وكثيرًا غيرها، لعلمنا:

أولا: أن آمنة لم تكن مشركة.

وثانيًا: أن آمنة لم يكن في زمانها دين صحيح علَى الأرض خال من التحريف والبعث بنصوصه.

وثالثًا: أن سنها الصغيرة لم تكن تمنعها من البحث عن الأديان وفحصها، كَمَا فعل الشكاك في زمانها من نحو: زيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة الإيادي، وورقة ابن نوفل، مع العلم أنها ليست مكلفة بذلك ولا هؤلاء الرجال من الشكالك والمتحنفين قد رجعوا من بحثهم بطائل.

ورابعا: أن آمنة بنت وهب بحكم أنها من بني زهرة كان يستهويها مَا يستهوي الكثيرات، وتخضع مثلهن لرغبة جامحة في أن تكون أما للنبي المنتظر.

وأمور كهذه تجتمع في آمنة بنت وهب لكفيلة بأن تجعل أصحاب العقول يجزمون بأن

آمنة هى من أهل الفترة، ولا خوف عليها ولا على مستقبلها يوم يقوم الناس لرب العالمين.

يقول الإمام السيوطى رحمه الله تعالى بعد كلام كثير: [... قَدْ عرف مما ذكرناه دليلان عَلَى أن أم النبى ﷺ ليست فِى النار:

كونها متحنفة.

وإحياؤها حتى آمنت.

وينضم إِلَى ذلك دليل ثالث، وهو كونها من أهل الفترة.

والأحاديث فِى أهل الفترة معروفة مشهورة، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾.

وقد أورد صاحب« مرآة الزمان » كلام جده « ابن الجوزى » عَلَى الحديث السابق، ثم قال عقبه: وقال قوم: قَدْ قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ والدعوة لم تبلغ أباه وأمه فما ذنبهما؟ !

والذين خالفوا الجمهو فحكموا بأن أهل الفترة فِى النار كالمعتزلة وغيرهم، قَدِ اشتبه عليهم أمر من الأمور ظنوه أصلا سليما وفرعوا عليه.

وهذا الأمر الذى اشتبه عليهم كائن فِى مسألة شكر المنعم، هل هو واجب بحكم العقل، أم هو واجب بحكم الشرع؟

ولا شك عند جمهور المسلمين أن شكر المنعم واجب شرعا، إذ الشكر تكليف، ولا تكليف إلا بنص، ولا عقوبة إلا بمخالفة للنص الوارد.

هذا حكم قَدْ سبق أن حدثناك عنه، وهو مقتضى العقل، ومقتضى النص عَلَى السوء.

وقد يبقى هنا أن نقول تصريحا مَا سبق لَنَا أن ذكرناه لك بالتلميح، إن هناك بعض الناس يعترضون فيقولون: إن أهل الفترة محاسبون يوم القيامة عَلَى أساس مَا جاءهم من الرسل السابقين عليهم، وأهل مكة وجزيرة العرب فيما قبل رسول الله ﷺ كانوا قَدْ سمعوا بموسى وعيسى ابن مريم، فهم مكلفون بمقتضى هاتين الرسالتين وغيرهما.

وكثير من العلماء قد ازوروا عن هذا الاعتراض، انتقاصًا من قدره وقيمته.

غير أن بعضهم قد رأى أن الازورار عن الجواب فِي هذا الموطن، ربما لاَ يكون مفيدًا، فتصدوا للجواب عَلَى هذا الاعتراض.

ومن هؤلاء العلماء الإمام السيوطى حيث قال بعد أن ساق الاعتراض السابق الذكر.

[... دلت الأدلة عَلَى أن العرب لم يكونوا مخاطبين بها، ولا مكلفين باتباعها، ولهذا وردت الأحاديث فِي الهالك فِي « الفترة » صريحة، ولم يعول عَلَى ذلك.

ولو كان المراد بما قبل البعثة: أن لاَ يكون بعث رسول الله ﷺ فِي الدينا أصلا لاستحال وجود ذلك، إذ مَا من فترة إلا وقبلها نبى، إِلَى آدم، وهو أول الأنبياء وليس قبل آدم بشر.

والقرآن أيضًا ناطق بذلك قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [الأنعام:١٥٥، ١٥٦].

أخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فِي قوله تعالىٰ: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾

قال اليهود والنصارى: [خاف أن تقوله قريش].

ولعلنا ننتهى من هَذِهِ القضية كلها مع القوم إِلَى آخر مَا وقفوا عنده.

وآخر مَا وقفوا عنده ذكره المفسرون عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة:١١٩].

وهذه الآية لاَ تفيد من لاَ يقولون بنجاة أم النبى ﷺ « آمنة بنت وهب » شيئا.

ذلك أن الجمهور يقرأون هَذِهِ الآية بضم التاء فِى قوله تعالى: « وَلَا تُسْـَٔلُ » عَلَى أن الفعل مبنى للمجهول.

والمعنى عَلَى قراءة الجمهور أن الله أراد أن يخبر النبى أولا، والأمة عَلَى وجه العموم، بأنه لاَ مسؤلية للنبى تلزمه مترتبة عَلَى إعراض المعرضين، ذلك أن الله قَدْ أسل النبى ﷺ مبشرًا ونذيرًا، فمن أطاع فلنفسه ومن أعرض فعليها، وهو لاَ يسئل عن أصحاب الجحيم.

والقراءة عَلَى هذا النحو واضحة الدلالة، ليس فيها مَا يستوقف النظر، أو يستوجب الفكر خارج نطاق النظرة الأخلاقية.

وقد ورد عند الأقلين « وَلَا تَسْـَٔلْ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ » بفتح التاء.

وهذه القراءة عَلَى هذا النحو فيها أن الله عز وجل قَدْ نهى النبى ﷺ عن أن يسأل عن أصحاب الجحيم.

والقراءة بهذا الشكل تثير سئوالا فِى النفس مؤداه: أن يكون النبى ﷺ قَدْ سأل عن بعض الناس الذين ترآءا له أنهم فِى الجحيم.

وهنا يتطوع البعض فيقدم لَنَا نماذج من مواقف يرونها تؤيد رأيهم فِى أن أبوى النبى فِى النار.

ومما ذكروه: قول عبد الرزاق [أخبرنا الثورى عن موسى بن عبيده عن محمد ابن كعب القرظى قال، قال رسول الله ﷺ: « ليت شعرى مَا فعل أبواى ليت شعرى مَا فعل أبواى ؟ فنزلت » « وَلَا تَسْـَٔلْ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ » فما ذكرهما حتى توفاه الله عز وجل].

قال ابن كثير: [ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن وكيع عن موسى بن عبيـده – وقد تكلموا فيه – عن محمد بن كعب بمثله] (١).

وهذه الآثار لاَ تصح فِى نفسها، ولا يقوى سندها أن يبلغ بها إِلَى رسول الله ﷺ.

كما أنها من جهة أخرى لاَ تقوى عَلَى حملنا عَلَى أن نفهم هَذِهِ الآية عَلَى نحـو مَـا قرئت عند الأقلين، كَمَا يريدون لَنَا أن نفهمها، خاصة وأن القراءة بالضم – وهى قـراءة الأكثرين تبين لَنَا أن الآية قَدْ جاءت فِى سياقها الأخلاقى لتبـين أن المسـؤلية الخاصـة بانحراف البعض عن رسالة النبى ﷺ بعد مجيئها إليهم إنما تقع عَلَى عاتق أصحابها.

وعلى فرض أننا سنحاول فهم الآية عَلَى أنها نهى للنبـى ﷺ عـن أن يسـأل عـن أصحاب الجحيم فِى إطار انشغاله عَلَى أبويه – عَلَى فرض صحة الأثر – فإنه يمكـن أن تفهم الآية عَلَى هذا النحو: مَا لأبويك وأصحاب الجحيم، إنك إن سألت عنهما فإنه لاَ يجوز أن يخطر ببالك أنهما من أصحاب الجحيم، فقد نجاهما الله عز وجل كمـات نجـى أهـل الفترة، وأنه قَدْ رفع مكانتهما من أجلك، حتى أصبحا فِى مكانة لم تكن لتخطر لـك عَلَـى بال، من باب: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف:٣١].

وللإمام القرطبى فهمٌ فِى الآية عَلَى هَذِهِ القراءة قريب من هذا الفهم الذى حدثناك عنه قال: [وهذا كَمَا يقال: لاَ تسأل عن فلان أى قَدْ بلغ فوق مَا تحسب] (٢).

هذا وإن فِى مسند الإمام أحمد هذا النص: حدثنا عبد الله حدثنى أبى بالسـند عـن [وكيع بن حدس عن أبى رزين عمه قال: قلت يارسول الله ﷺ: أين أمى قال: أمك فِى النار قال: قلت فأين من مضى من أهلك، قال أما ترضى أن تكون أمك مع أمى] (٣).

ولم يكن من بد لَنَا من أن نتناول هَذِهِ الرواية بكلمة تخصها لما لها من أهميـة هنـا، وَفِى مجال الحديث عن آمنة أم الرسول ﷺ بالذات.

والناظر لأول وهلة فِى هذا الحديث سيتفق معى بأنه غير موجود فِى الكتب السـتة،

---

(١) ابن كثير تفسير ج ١ صد ٢١٩.

(٢) انظر القرطبى- تفسير آية ١١٩ سورة البقرة.

(٣) الإمام أحمد- مسند ج ٤ ص١١.

فهو ليس عند البخارى ولا مسلم، كَمَا أنه لاَ يوجد عند أبى داود أو النسائى أو الترمذى أو ابن ماجة.

وأنا لاَ أجد له وجودًا إلا فِى مسند أحمد، وهو من الكتب التــى لاَ يلتــزم أصــحابها الصحة فِى مروياتهم، ومن المقطوع به أن الأمة لم تتلق مرويات هذا المسند كلها بالقبول.

ولنفترض أن هذا الحديث صحيح، فإن هَذِهِ الصحة المفترضة إنما هى صحة الإسناد.

وصحة الإسناد لاَ تسلتزم صحة المتن قطعا، حتى ولو كان الإسناد فِى أعلى درجات الصحة، ولذا فإن العلماء قَدْ نصوا عَلَى أن البخارى ومسلم حــين التزمــا الصــحة فِــى مروياتهما التزموها فِى الإسناد ومقاصد الكتاب الذى وضعه كل منهما.

أما صحة المتن عند البخارى ومسلم فله طريق آخر، وهــو أن الآمــة قَــدْ تلقــت مروياتهما بالقبول عَلَى توالى العصور.

هذا هو حال الحكم بالصحة عَلَى أحاديث البخارى ومسلم.

أما فِى غير البخارى ومسلم فإن الحكم بالصحة راجع للعلماء الذين عهدت إليهم الأمة – لِتَمَيُّزِهُمْ فِى تَخَصُّصِهِمْ – أن يقوموا بهذا المهمة الصعبة.

وقد اختط العلماء لأنفسهم طريقين للحكم عَلَى الحديث بالصحة أو غيرها.

أحدهما: طريق الإسناد والحكم عَلَى الرجال.

وثانيهما: طريق المتن وفحصه عَلَى قواعد فحص المتون.

وبعد هذا البيان الذى سبقت الإشارة إليه نقول:

إن هذا الحديث عَلَى فرض صحة إسناده، يخالف القرآن ويخالف العقل جميعا.

أما مخالفته للعقل فهو واضح لاَ سترة به، إذ إننا لو عملنا بمقتضاه للزم عَلَى ذلك أن الله آخذ عباده عَلَى مخالفات لم يرد لهم نص صحيح يأمرهم بتجنبها.

وهذا تكليف بما لاَ يطاق قطعا، ولم يقل به أحد إلا المعتزلة وغيرهم ممن شــابههم، بِنَاءً عَلَى أصلهم الفاسد القائل: بأن الحسن والقبيح والتحسين والتقبيح أمور يمكن للعقل أن يدركها.

ثم فرعوا علَى ذلك، أن الإنسان مكلف بمقتضى العقل لاَ بمقتضى الشرع.

ومن هذا الأصل العام وضعوا أصلا آخر، وهو أن وجوب شكر النعمة أمر عقلـي، وليس بأمر شرعي.

وما ذهب إليه المعتزلة ومن وافقهم ليس ملزما لأحد ولا حتى من غير المتدينين.

أما مخالفة هذا الحديث للقرآن، فإن القرآن فيه آيات كثيرة يخالفها متن هذا الحـديث مخالفة تامة، تتأبى علَى التأويل، وترتفع فوق الجمع بين الحديث وآيات القرآن.

وسأحاول أن أزيدك هنا بيانا من آيات القرآن الكريم سوى مَا ذكرت لك من قبل.

ففيه أن الله تعالى قال: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَـذَهُمُ ٱلْعَـذَابُ وَهُـمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [النحل:١١٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُـولِ سَـبِيلاً ﴾ [الفرقان:٢٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰـرَبِّ إِنَّ قَـوْمِى ٱتَّخَـذُواْ هَٰـذَا ٱلْقُـرْءَانَ مَهْجُـورًا ﴾ [الفرقان:٣٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ [الدخان:١٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُـرُّواْ ٱللَّـهَ شَـيْئًا ﴾ [محمد:٣٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الحديد:٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ [الحاقة:١٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ [المزمل:١٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَـا ٱلرَّسُـولاْ ﴾ [الأحزاب:٦٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِـعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه:١٣٤].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴾ [القصص:٥٩].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ [آل عمران:١٠١].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١٠٩].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ ﴾ [الأنعام:١٣٠].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف:٥٣].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة:١٩].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص:٤٦].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ [سبأ:٤٤].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٤].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك:٨، ٩].

هذه نماذج معبرة عن المقصود، وَفِى القرآن الكريم كثير من نظائرها وأشـباهها، لاَ يصلح مع كثرة ورودها إلا أن نقول لك: إن الذى ذكرناه هنا لاَ يزيد عَلَى أن يكون أمثلة لبيان المقصود، وربما يكون مَا تركناه منها أوضح فِى الدلالة عَلَى مَا قصدنا إليـه ممـا ذكرناه، وَعَلَى القارئ المنشغل بهذه القضية أن يعيد النظر فِى القرآن الكريم، وسوف يعود بالفائدة كاملة إن شاء الله تعالى.

ويتضح من هذا الذى ذكرناه أن هذا الحديث لاَ يقوى عَلَى الاستدلال بوجوب مؤاخذة أم النبى ﷺ عَلَى مخالفة أمر لم تتمكن من معرفته، فقد توفيت وعظيم الساحة فِى السادسة من عمره، ولو أنها قَدْ أتيح لها أن تعيش إِلَى أن يصير عظيم السـاحة نبيًـا فِـى واقـع التاريخ، لما كان هناك أسرع منها إِلَى تلبية دعوة ابنها، وإجابته إِلَى مَا يدعو إليـه مـن عبادة ربه.

وما قلناه فِى هذا الحديث هو نفسه الذى يجب أن يقال فِى حديث: « أبى وأبوك فِـى النار ».

فهذا الحديث الذى ينص عَلَى أن أبَا النبى ﷺ فِى النار، وإن كان قَدْ صح سنده عَلَـى منهج المحدثين، فإن متنه مخالف مخالفة تامة للقرآن والعقل وللأحاديث الصـحيحة التـى وردت فِى نجاة أهل الفترة، ومن ماتوا قبل التكليف من الصبيان، ومن فقدوا نعمة العقـل التى هى جوهرة الإنسان والتى هى الأصل الأصيل الذى يقوم عليه كل تكليف.

حَدِيثَانِ وَمَوْقِفٌ:

ودعنى أزيدك الآن شيئا من البيان حول بعض الأحاديث التى قَدْ تشغل بالـك وبـال غيرك ممن لهم اهتمامات ببعض القضايَا التى تتصل بالنبى ﷺ.

وأنا فِى هَذِهِ المرة سأحاول أن أطلعك عَلَى آراء بعض المحدثين الكبار، لكى أزيـدك اطمئنانا عَلَى اطمئنانك.

ولنبدأ معا بهذا الحديث الذى أوردته بعض كتب الصحاح:

[حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِى شَيْبَةَ حَدَّثَنَا عَفَّانُ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ

رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَيْنَ أَبِى ؟ قَالَ « فِى النَّارِ » . فَلَمَّا قَفَّى [1] دَعَاهُ فَقَالَ: « إِنَّ أَبِى وَأَبَاكَ فِى النَّارِ » [2].

وهذا الحديث عليه ملاحظات عامة تتصل بالسند.

فالحديث من طريق « حماد بن سلمة ».

وحماد بن سلمة قَد ازور البخارى عنه، فلم يخرج له فِى صحيحه لرأيه فيه، ولا يجبر ذلك لوم اللائمين للإمام البخارى بسبب عدوله عن حماد.

ومسلم بن الحجاج وإن كان فيما يظهر أنه تدارك الأمر، وأخرج أحاديث حماد فِى صحيحه، فإن معظم مَا أخرجه لحماد كان فِى الشواهد، ولم يعتمده فِى الأصول عَلَى مَا يبدو إلا فِى نطاق محدود.

ومع هذا كله فإن مسلم بن الحجاج قَدْ تعرض للوم أحيانا بالنسبة للأحاديث التى انفرد بها عن البخارى.

قال فِى الميزان: قلت: قَد احتج مسلم بحماد بن سلمة فِى أحاديث عدة فِى الأصول وتحايده البخارى [3].

قال البيهقى: « هو أحد أئمة المسلمين، إلا أنه لما كبر ساء حفظه؛ فلذا تركه البخارى، وأما مسلم فاجتهد وأخرج من حديثه عن ثابت ما سمع منه قبل تغيره، وما سوى حديثه عن ثابت لا يبلغ اثنى عشر حديثا أخرجها فِى الشواهد.

وقال عفان: اختلف أصحابنا فِى سعيد ابن أبى عروبة وحماد بن سلمة، فصرنا إِلَى خالد بن الحارث فسألناه، فقال: حماد أحسنها حديثا « كذا فالمسألة نسبية إذا » وأثبتهما لزوما للسنة، فرجعنا إِلَى يحى القطان فقال: أقال لكم، وأحفظها ؟! ، قلنا لا .

وقال القطان: حماد عن زياد الأعلم وقيس بن سعد ليس بذاك .....

---

(١) « فلما قفى » قال فِى النهاية: أى ذهب موليًا، وكأنه من القفا، أى أعطاه قفاه وظهره.

(٢) مسلم – ا كتاب الإيمان «٨٨» باب بيان أن من مات عَلَى الكفر فهو فِى النار – ح رقم ٣٤٧.

(٣) الذهبى الميزان – ترجمة حماد.

وقال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث، وربما حدث بالحديث المنكر [1].

« وحماد بن سلمة » لم يتكلم أحد فيه من حيث تدينه وصلاحه، وغيرته عَلَى دينه وسنة نبيه ﷺ، ولكنه فِي آخر أيامه ربما يكون قَدْ ساء حفظه، فكان يعتمد عَلَى التحديث من كتبه كَمَا رأيت.

ولقد زعم بعضهم أن حماد كان له ربيب « ابن زوجته من غيره » قَدْ عمد إِلَى بعض كتبه ودس فيها مَا ليس منها.

وقد نص عليه فِي التهذيب بأنه هو: ابن أبي العوجاء.

قال فِي التهذيب: « قال الدولابي: حدثنا محمد بن شجاع ابن البلخي، حدثني إبراهيم ابن عبد الرحمن بن مهدي، قال: كان حماد بن سلمة لا يعترف بهذه الاحاديث التي فِي الصفات حتى خرج مرة إِلَى عبادان [2] فجاء وهو يرويها، فلا أحسب إلا شيطانا خرج إليه من البحر، فألقاها إليه. قال البلخي « هو ابن الثلجي عَلَى مَا فِي بعض النسخ: فسمعت عباد بن صهيب يقول: إن حمادا كان لا يحفظ، وكانوا يقولون إنها دست فِي كتبه وقد قيل: إن ابن أبي العوجاء كان ربيبه فكان يدس فِي كتبه » [3].

ونظرًا إِلَى أن حماد فِي آخر عمره قَدْ ساء حفظه، واعتمد عَلَى الكتاب يحدث منه، فإنه لم يكن ليكتشف مَا دسه عليه ربيبه.

وأصحاب هَذِهِ المقولة فِي حماد يحاولون تأكيد ذلك بموقفي حماد من رواية أحاديث الصفات، فإنه كان بالقطع فِي أول أمره يحجم عن أحاديث الصفات لاَ يحدث بها، ولكنه قَدْ حدث بها فِي آخر حياته - عَلَى مَا يقولون - من كتابه، مما يجعل البعض يحتمل أن تكون أحاديث الصفات قَدْ دست عليه.

جاء فِي الميزان: « عن حماد، عن ثابت، عن أنس أن النبي ﷺ قرأ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ

---

(1) ابن حجر - تهذيب الهذيب - ط الهند جـ ٣ صـ ١٤ وما بعدها.

(2) عبادان بلد من أعمل البصرة.

(3) ابن حجر - تهذيب - صـ ١٥، وَفِي بعض الطبعات زيادات عَلَى طبعة الهندأ أثبتناها هُهنا، فراجعها إن شئت.

رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ [الأعراف:١٤٣] . قال: أخرج طرف خنصره، وضرب عَلَى إبهامه، فساخ الجبل. فقال حميد الطويل لثابت: تحدث بمثل هذا ؟ قال: فضرب فِي صدر حميد وقال: يقوله أنس، ويقوله رسول الله ﷺ وأكتمه أنا ! رواه جماعة عن حماد .....

وعن إبراهيم بن أبى سويد، وأسود بن عامر، حدثنا حماد، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس – مرفوعا: رأيت ربى جعدا أمرد. عليه حلة خضراء. وقال ابن عدى: حدثنا عبد الله بن عبد الحميد الواسطى، حدثنا النضر بن سلمة شاذان، حدثنا الأسود ابن عامر، عن حماد، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن محمدا رأى ربه فِي صورة شاب أمرد دونه ستر من لؤلؤ قدميه أو رجليه فِي خضرة. وحدثنا ابن أبى سفيان الموصلى، وابن شهريار، قالا: حدثنا محمد بن رزق الله بن موسى، حدثنا الأسود بنحوه. وقال عفان: حدثنا عبد الصمد بن كيسان، حدثنا حماد، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ ، قال: رأيت ربى. وقال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا الحسن ابن يحيى بن كثير، حدثنا أبى، حدثنا حماد بنحوه ...

فهذا من أنكر ما أتى به حماد بن سلمة ».

وهذا من أقبح ما رأينا إذ فيه تجسيم مريع – فتأمل! [(١)].

فالواضح أن بعض هَذِهِ الأحاديث تصف الله بأوصاف مَا كان لحماد فِي أول أمره أن يتحمل الاعتقاد بها، ولا أن يجازف بنفسه فيرويها، مما جعل رجالا من المشاهير فِي مجال الحديث يأخذونها عَلَى حماد، ويعتبرونها مما دس عليه اعتذارًا عنه، وليس تبريرًا له.

ومن هنا انتهى بعضهم كالإمام السيوطى مثلا إِلَى أن هذا الحديث الموجود فِي مسلم والقائل بأن: « أبَا النبى ﷺ فِي النار » هو من باب مَا دس عَلَى حماد عَلَى أحسن الظروف، فما كان لحماد قبل أن يسوء حفظه أن يقبل التحديث بمثل هذا الحديث المخالف للعقل وللقرآن الكريم عَلَى السوء [(٢)].

---

(١) الميزان ترجمة حماد.

(٢) راجع فِي ترجمة حماد كتب الرجال من نحو: الميزان، لسان الميزان، تهذيب التهذيب.

وسأنقل بين يديك عبارة السيوطى فِى هذا الصدد قال: [هذا الحديث تفرد بـه مسـلم عن البخارى، وفِى إفراد مسلم أحاديث متكلم فيها، ويوشك أن يكون هذا منها ...]

إلى أن قال: وأما [حماد بن سلمة وإن كان إماما عالما عابدًا فقد تكلم جماعـة فِـى روايته، وتنكب البخارى عنه، فلم يخرج له شيئا فِى صحيحه.

وقال الحاكم فِى المدخل: مَا خرج مسلم « لحماد بن سلمة » فِى الأصول إلا حديثـه عن ثابت.

وقد خرج له فِى الشواهد عن طائفة.

وقال الذهبى: حماد ثقة له أوهام، وله مناكير كثيرة، وكان لاَ يحفظ، فكانوا يقولـون: إنها دست فِى كتبه! وقد قيل: إن ابن أبى العوجاء كان ربيبه، فكان يدس فِى كتبه.

ومن مناكيره مَا رواه عن ثابت عن أنس: أن النبى ﷺ قرأ: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ [الأعراف:١٤٣] قال: « أخرج طرف خنصره وضرب عَلَى إبهامه فساخ الجبل ».

هذا الحديث أخرجه أحمد والترمذى والحاكم وقال: صحيح عَلَى شرط مسلم.

وأورده ابن الجوزى فِى « الموضوعات » وقال: « إنه لاَ يثبت، وإنه مما دسه ربيبه عليه ».

والمناكير فِى رواية حماد كثيرة، وإنما أوردت هذا لأنه بسند الحديث الذى نحن فِـى تعليله].

وأما « ثابت » الذى روى عنه حماد فقد ذكره ابن عدى فِى « الكامل » عَلَى أنه من الضعفاء وقال: إنه وقع فِى أحاديثه نكارة، وذلك من الرواة عنه، فإنه روى عنه ضعفاء.

ولقد احتاط بعض كتاب التراجم فقال: إن أفضل المرويات عن « ثابـت » مَـا رواه حماد عنه.

ونحن قَدْ حدثناك عن طرف من أحوال حماد.

ومن جملة مَا ذكرناه فِى السند نستطيع أن نقول: إننا أمام علة ربما تكون موجودة فِى الحديث الذى نحن بصدده تجعلنا نتوقف فِى الأخذ به خاصة إذا كان الأمر أمر اعتقاد.

والحديث عَلَى كل حال قَدْ روى من طرق أخرى يكون من المفيد أن نذكر بعضــها هنا:

أخرج البزار فِى « مسنده » والطبرانى فِى المعجم الكبير بسند رجاله رجال الصحيح عن « سعد بن أبى وقاص » أن أعرابيًا أتى النبى ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَيْــنَ أَبِــى ؟ قَالَ: فِى النَّارِ . قَالَ فَأَيْنَ (١) قَالَ: حَيْثُمَا مَرَرْتَ بِقَبْرِ كَافِرٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ ».

وهذه الرويات لهذا الحديث تفيد أن النبى ﷺ لم يجزم بل لم يتنــاول الأب الشــريف بالحكم عليه بأنه فِى النار، وإنما سكت عنه، ولجأ إِلَى التعميم حفاظا عَلَى قلب الإعرابــى وعقيدته.

والذى ينبغى أن نفهمه من رواية مسلم هو كَمَا يقول السيوطى: [والذى عنــدى فِــى هذا الحديث أن لفظة: « إن أبى وأباك فِى النار » ليست مروية باللفظ، بل رواها الــرواى بالمعنى، فوهم فِى ذلك، وإنما تُكُلِّمَ عن النبى ﷺ بكلام مروى، ففهم منــه الســامع ذلــك خطأ].

وعلماء الحديث لكى يفهموا المعنى عَلَى وجهه الصحيح، قرروا أن يتتبعوا الحــديث بجميع رواياته حتى قال قائلهم: لو لم نكتب الحديث من ستين وجها مَــا عقلنــاه، يعنــى لاختلاف الرواة فِى إسناده وألفاظه، وقد وقع فِى الصحيحن أحاديث كثيرة من هذا الــنمط، وَهِمَ فيها الرواةُ فِى بعض الألفاظ، وبينها النقاد.

منها: مديث مسلم فى: « نفى قراءة البسملة » وقد أعله الشــافعى بــذلك وقــال: إن الثابت من طريق آخر نفى « سماعها ».

ففهم منه الراوى نفى قراءتها فرواه بالمعنى عَلَى مَا فهمه.

ولعله قَدْ تبين لَنَا من كل مَا ذكرناه أن الجزم بأن « أبَا النبى ﷺ فِى النــار جــزم لاَ يقوم عليه دليل.

والقول فِى أم النبى ﷺ الذى هو أصل موضوعنا قَدْ تبين مما ذكرناه بيانــا شــافيًا لاَ نحتاج بعده إِلَى مزيد.

---

(١) رفع الكاتب المستفهم عنه وهو الأب الشريف تأدبًا مع النبى ﷺ.

كَلِمَةٌ فِى أَنْ نَفْتَرِقَ

لقد قضينا معك فترة من الزمن، كُنَّا فيها معا فِى شرفة من شرفات التـاريخ نجيـل النظر فِى بيت رسول الله ﷺ الذى بناه عبد المطلب لابنه عبد الله قبيل زواجه مـن آمنـة بنت وهب.

وأنا أعترف انى فِى رحلتى معك لم أكن فِى حالة من الاستقرار النفسى تشبه حالـة المستمتع برحلة سياحية فِى أدرب التاريخ الشيقة، وما كان لى أن أكون كذلك، والرحلـة كلها مملوءة بالإثارة العاطفية فِى كثير من الأحيان كَمَا أنها فِى بعض الأحيان لاَ تخلو من الاستفزاز.

فحين كُنَّا معا نتتبع آمنة فِى رحلتها التاريخية، كَمَا تجيش بنا نفوسنا وتسبقنا العبرات، عَلَى نحو مَا كانت تجيش بالنبى ﷺ نفسه وتسبقه العبرة.

وَفِى هَذِهِ الحالة النفسية التى تحيط بنا، لم نكن نعدم الشعور بالنشوة حين نستشعر أنـا نتحدث عن عظيم من العظماء، وعن أمه التى أنجبته، وعن الصلة التى تربطنـا بهمـا، والتى نسأل الله أن يرزقنا ثمارها فِى الدنيَا وَفِى الآخرة.

وما بين أن تجيش بنا أنفسنا ونحن نتحدث عن صعوبات ألمت بآمنـة زهـرة بنـى زهرة، وأن نشعر بالنشوة بسبب حديثنا عن خاتم المرسلين ﷺ، وعن أمه التـى أنجبتـه راجين أن يديم الله علينا نعمة الارتباط بهما.

ما بين هذين الشعورين اللذين نتردد بينهما، إذا بنا وقد أفقنا عَلَى حقيقة مـرة ألجأتـا إِلَى الإحساس بها هذا الاستفزاز العجيب وغير المسئول المتلخص فِى هَذِهِ العبـارة التـى مجها التاريخ، وسئمتها مشاعر المسلمين وهى: « إن أبـوى المصـطفى فِـى النـار » وحاشاهما.

وأنت تعلم يَا صَاحِبِى أن الكلام الذى يخالف الواقع، يكون له دوى يشبه دوى تحطيم الأثاث فِى المنازل، يقوم به بعض الناس حين يسلب منهم ربهم نعمة العقل، فيتصـرفون بطريقة غير منضبطة.

ونحن لاَ نهتم بهذه الفرية فإنها كَمَا قلت: لاَ تعدو أن تكون لونا من الاستفزاز، الـذى

تعود الناس فِي هذا الزمان وقبله عَلَى مثله.

وَفِي آداب الإسلام أن الله قَدْ علمنا فِي مثل هَذِهِ الأحوال المستفزة أن نلتزم بمبدأين لاَ نعدوهما:

أحدهما: أن لاَ نجيب المستفز مهما كانت قسوة عبارته، لاَ خوفا من سطوته أو أفكاره، وإنما خوفا من تصرفاته غير المسئولة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:١٠٨].

والمبدأ الثانى من هذين المبدأين هو: مبدأ يمدح به صاحبه لمقدرته عَلَى كبح جماح نفسه فِي حالات الاستفزاز العارمة، وتكون إجابته عَلَى الاستفزاز بما يحجم آثاره: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣].

إنا لاَ نهتم بهذا النوع من الإثارة المستفزاز، بقدر مَا نهتم بما تدل عليه هَذِهِ الإثارة من بعض القيم الأخلاقية المسقرة فِي نفوس مصطنعيها.

وإننا لنعلم علم اليقين أنه مَا من أمة من الأمم، إلا وعلاقتها بسلفها - خاصة العظماء منهم - علاقة التقدير والعرفان، والغيرة عليهم وَعَلَى تاريخهم من غير تقصير فِي الذب عن تاريخهم إذا تعرض للنيل منه.

هذه قاعدة عامة تجدها فِي جميع الأمم المتحضرة منها والبدائية عَلَى السواء، كأنها القاعدة التى تربى عليها الإنسان منذ أن خلقه الله، وقد وقعت من نفسه موقع الماء والهواء، تفقد حياته قيمتها ومقوماتها لو أنه تخلى عنها أو أدار إليها قفاه.

والشىء غير المفهوم وغير الطبيعى، أننا نجد من بعض ينتسبون إِلَى الإسلام مواقف من الشذوذ الفكرى والنفسى، ربما لاَ نجده فِي أمة من الأمم، الأمر الذى يحملنا عَلَى القول: إن مَا يقوم به هؤلاء الناس وراءه قدر كبير من المنفعة الذاتية، أو الانتماء المشبوه.

وهذا الشذوذ الفكرى أو النفسى، قَدْ أفرز فِي الأمة اتجاهات معادية جدًا للماضين من السلف، أو للمعاصرين من العلماء ورموز الأمة.

وقد تكون هَذه الاتجاهات معادية للإسلام نفسه، حتى اجتمع من كل هذا ركام ضخم

يتمثل فِي معاداة بعضهم للشريعة والآراء الموروثة، أو لمصادر الشريعة من قرآن وسنة، أو لتطبيقات الشريعة فِي العصور الأولى، أو لقيمة الشريعة فِي العصر الحاضر ومدى فائدتها، وقد تصل المسائل بهم إِلَى غايتها فيعلنون عدائهم للنبى ﷺ نفسه وعلاقته بالأمة، فكانت قولتهم المشهورة: « إن احترام النبى - ﷺ - شرك وسنته من عمل الشيطان » ومن بين مَا ذكروه موجها للنبى ﷺ أنهم قالوا: « إن أبوى النبى - ﷺ - فِي النار » وأجهدوا أنفسهم فِي ذلك ليبينوا أن النبى - ﷺ - ليس له شيء من التميز لاَ فِي الدنيَا ولا فِي الآخرة، ودعوى أنه فِي محل القدوة تحتاج إِلَى إعادة نظر.

ولقد سبق لى ولغيرى أن لفتنا نظر المثقفين من خلال كتب كاملة أو مقدمات كتب قمنا بنشرها، وقد آتت بحمد الله أكلها، فاستجاب لها الكثيرون من أصحاب الرأى الواعى، والأمانة المطلقة عَلَى الأمة ومصيرها، فانطفأت فِي حينها جذوة: « تأجير الأرحام » التى كان القصد من ورائها فصم عرى الأسرة المسلمة، وازور الناس عن فكرة: « تغيير مواقيت الصلاة » خاصة: « صلاتى الفجر والعشاء » بعد أن نشرنا بين الناس المقصد الخطير من وراء اللعب بمواقيت العبادة.

كما انتهت بحمد الله تعالى فرية أن « النبى ﷺ محروم من المقام المحمود والشفاعة التى سيمنحها الله عز وجل له، كى يشفع يوم القيامة لمن ارتضى الله أن يشفع النبى له ».

ثم كان مَا كان من الكلمة التى قلناها لنتحدث عن الواقع الذى يقول: « إن هناك صراعا بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى » وأشياء كثيرة قلناها فِي حينها ونقولها الآن، تستطيع أن تتأملها من خلال الكتب التى كتبها العقلاء من الناس فِي هَذِهِ الموضوعات، ومن خلال النشرة التى سأذكرها لك الآن، وَفِي آخر هذا البحث تضم مَا صدر لَنَا من مؤلفات.

وأنا لاَ أحبك يَا صَاحِبِى أن تنتهى من كل هذا إِلَى مص الشفتين، فأفضل من هذا المص أن تحمل قلمك إن كنت من أرباب القلم لتقول كلمة الحق فِي دينك ونبيك، فالمنتصر فِي هذا العصر هو الذى يستطيع أن ينشر برنامجه الثقافى والتشريعى بعبارات مقنعة، وترتيب منطقى بعيد عن التشويش والتهويش.

ويكفيك أن تعلم أن الدين الإسلامى بوضوح هدفه، ووسائله إِلَى هذا الهدف قَدْ أشرق

علَى أوربَا اليوم لينير جنباتها، كَمَا أشرق عليها فِى عصور الظلام، فأنار جنباتها بالهـدى ودين الحق.

أما أنت يا آمنة فلتهنئى بالا، ولتسعد نفسك بما قدمتيه للإنسانية كلها، من نبى يعترف لك بالأمومة، وتعترفين له بالبنوة، لن يسيئه الله بسببك، كَمَا مَنَّ عليـك بحسـن السـيرة بسببه.

ففِى هَذِهِ الدنيَا تعطرت سيرتك، وسوف يكون ذلك فِى الآخرة أكثر عطرًا: ﴿ يَـوْمَ لاَ يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ ﴾.

وَوَدَاعًا يَا آمِنَةُ، اللقاء بعده فِى جنات النعيم إن شاء الله.

الْمَوْضُوعُ	الصَّفْحَةُ
الْفَتَى الَّذِى نَجَا عَبْدُ اللَّهِ أَبُو النَّبِىِّ ﷺ	٤
مُقَدِّمَةٌ	٥
الْفَتَـــى	١٥
نَسَبٌ رَفِيعٌ	١٧
الْعَزِيزُ الْمُطَاعُ	١٨
الاسْمُ وَالْكُنْيَةُ وَاللَّقَبُ	٢٤
فِى غَيَاهِبِ الزَّمَنْ	٢٩
الْفَتَى الذَّبِيحُ	٣٢
تَجْدِيدُ حَفْرِ زَمْزَمَ	٣٢
مَوْقِفٌ عَصِيبٌ وَنَذْرٌ غَرِيبٌ	٣٨
أَبِالْقِلَّةِ تُعَيِّرُنِى ؟!	٤٠
وَمَنْ يُشَابِهْ أَبَهُ فَمَا ظَلَمْ	٤١
عَوْدَةٌ بَعْدَ الاسْتِطْرَادِ	٤٤
حَدَثٌ وَفُقَهَاءُ	٤٤
يَوْمُ الْوَفَاءِ	٤٦
إِلَى الْمَذْبَحِ	٥١
هَيَاجُ الْعَوَاطِفِ	٥٢
جِلْسَةٌ حَزِينَةٌ	٥٣
عَرْضٌ حَسَنٌ وَفِعْلٌ رَشِيدٌ	٥٦
بَارِقَةُ أَمَلٍ	٥٨
النَّجَاةُ الثَّانِيَةُ	٥٩
دَعْوَةٌ لِلتَّأَمُّلِ	٦١
الْفَتَى عَلَى مِقْيَاسِ الْخُلُقِ	٦٣
الزَّوَاجُ الْمَيْمُونُ	٦٨
مُصَارَحَةٌ	٧٢
فِى الطَّرِيقِ إِلَى زُهْرَةَ	٧٣
الْفَتَى فِى حَىِّ بَنِى زُهْرَةَ أَيَّامَ الزَّوَاجِ الأُولَى	٧٥
إِلَى بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ	٧٥
الرَّحِيــلُ	٧٧

الْمَوْضُوعُ	الصَّفْحَةُ
نِدَاءٌ يَجِبُ أَنْ يُلَبَّى	٧٨
دَعْوَةٌ لِلْخُرُوجِ	٨٠
إِلَى الشَّامِ	٨١
مِنَ الشَّامِ إِلَى يَثْرِبَ	٨١
الْعِيرُ إِلَى مَكَّةَ	٨١
الْخَبَرُ الْحَزِينُ	٨٢
الْحَارِثُ أَمَامَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ	٨٢
حُزْنٌ أَلَمَّ بِمَكَّةَ	٨٣
رِثَاءٌ مُخْلِصٌ مِنْ زَوْجَةٍ مُخَضَّبَةٍ بِخِضَابِ الْعُرْسِ	٨٣
عُمْرُ الْفَتَى وَعُمْرُ الزَّوَاجِ الْمَيْمُونِ	٨٣
أَبْنَاءُ الْفَتَى	٨٤
وَظِيفَةٌ شَرِيفَةٌ	٨٥
الْمَصِيــرُ	٨٨
الشَّانِئُونَ	٩٠
حُجَجٌ دَاحِضَةٌ	٩٢
حَدِيثٌ وَمَوْقِفٌ	٩٣
فَائِدَةٌ	١٠١
عَوْدَةٌ بَعْدَ الاسْتِطْرَادِ	١٠٣
كَلِمَةٌ مُجْمَلَةٌ	١٠٥
زَهْرَةُ بَنِي زُهْرَةَ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ أُمُّ النَّبِيِّ ﷺ	١٠٦
تَمْهِيدٌ	١٠٧
أُمٌّ عَظِيمَةٌ لِنَبِيٍّ عَظِيمِ النَّسَبِ الطَّاهِرِ	١٠٩
بَنُو زُهْرَةَ	١٠٤
سَلِيلَةُ الشَّرَفِ وَكَرِيمَةُ بَنِي زُهْرَةَ	١١٨
اللُّؤْلُؤَةُ الْمَكْنُونَةُ	١١٩
لَفْتَةٌ إِلَى زَوَاجٍ مُبَارَكٍ	١٢٠
الزَّوَاجُ الْمَيْمُونُ	١٢٢
بُشْرَى فِي حَمْلٍ أَوْ حَمْلٌ فِي بُشْرَى	١٢٦
تَرَمُّلٌ قَبْلَ زَوَالِ خِضَابِ الْعُرْسِ	١٢٧

امُومَة وتَضْحِيَة ١٣٣
الرَّحِيـلُ ١٣٦
ذِكْرَى لاَ تَنْقَطِعْ ١٣٨
اللَّهُ يَعْصِمُ جُثْمَانَ آمِنَةَ مِنْ الْعَبَثِ بِهِ ١٣٩
الْوَفَــاءُ ١٤١
تَأَمُّلاَتٌ فِي أُمَّهَات الأَنْبِيَاء ١٤٨
آمِنَةُ وَأَهْلُ الْفَتْرَةِ ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ ١٥٢
نِهَايَةُ الْمَطَاف ١٥٩
حَدِيثَانِ وَمَوْقِفٌ ١٦٤
كَلِمَةٌ فِي أَنْ نَفْتَرِقَ ١٧٠
فهرس الكتاب ١٧٤